التنشئة السياسية
في المنظور القرآني

أ. د. السيد عمر
أستاذ العلوم السياسية بجامعة حلوان

obeikan.com

obeikan.com

مُقَدِّمَة

يدور مفهوم التنشئة السياسية، بدلالته الدارجة، حول: عملية استيعاب الأفراد والجماعات والأمم لمنظومة المعتقدات والرموز والقيم والاتجاهات والقناعات طويلة الأمد المتعلقة بالظاهرة السياسية السائدة في كيان سياسيٍّ معين، وانتقالها من جيل إلى آخر، بشكل تلقائي أو مخطط، عبر قنواتٍ عديدة أهمها الأسرة والمؤسسات التعليمية ودور العبادة وجماعة الأصدقاء ووسائل الإعلام والخطاب الرسمي وغير الرسمي، على نحو يتسم بالثبات النسبي، ويستجيب لاعتبارات التكيف الزماني والمكاني[١].

ولكل قيمة سياسية أبعاد ثلاثة: القيمة كمبدأ، القيمة على صعيد الممارسة، القيمة كعبرة لا زمانية ولا مكانية. وجوهر أهمية القيم: هو كونها مقاييس، وتطلعات للارتقاء[٢].

ويمثل مفهوم التنشئة السياسية، واحـدًا من المفاهيم المفتاحية، ونواةً لأحد فروع علم السياسة. ولهذا المفهوم خصوصية في السياق القرآني، نسعى في هذه الدراسة، إلى رسم معالمها بشكل أولي، باستقراء مضامينه، وفضائه، عبر مقاربات ثلاث: الحقل الدلالي لمادته في سياقها القرآني القريب، على سبيل الحصر، ثم الانطلاق منها إلى رسم معالم بنيته القرآنية، بتحديد ناظمه وتحليل شبكة المفاهيم الفرعية ذات الصلة به،كما تحددت في المقاربة الأولى، والتحرك من تلك المحاولة التي لا نطمع أن نصل فيها إلى مستوى تقصِّي السياق القرآني كله، بحكم أننا نطرق أرضًا بكرًا، بل يكفينا أن نضع أقدامنا على عتبتها، إلى طرح تصور أوليٍّ لمعالم الطريق لإعادة بناء حقل التنشئة السياسية من مرجعية قرآنية.

والمنظور القرآني، في أبسط معانيه، هو المقابل لمنظور الجاهلية. ومحاور الأخير هي: اهتمامات عابثة، وصَمَمٌ عن النداء المزكي والمبارك للإنسان، يُفضي به إلى دَرَك هابط مظلم وصادم للفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها في نقائها الأصلي، ويؤدي بالتالي إلى انكفائه على عالم الشهادة وحده، مع النظر إليه على أنه ساحة صراع، نهايته هي الموت، وينتهي مطافه إلى فوات الجزاء في الدنيا والآخرة. أمَّا المنظور القرآني، فيستمد منظومته من القرآن

---

(١) انظر: د. السيد عليوة (وآخرون): المدخل في علم السياسة، الإسكندرية، مطبعة الجمهورية، ١٩٩٩م، ص٢٦٧ – ٢٨٠.

(٢) انظر في تفصيل ذلك: د. حامد عبد اللَّه ربيع، مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي، تحرير وتعليق: د. سيف الدين عبد الفتاح، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧م، ١/ ٣٠٨، ٣٥١ – ٣٥٣. ويقدم هذا المرجع المهم رؤية للممارسة السياسية، على أنها بمثابة تحويل للقيم إلى سلوك، كما يرسم معالم قراءة مستقيمة لمصادرنا التأسيسية، كفيلة ببناء خريطة للقراءة الجامعة، لأمتنا التي هي أمة القيم. انظر على سبيل المثال: المرجع السابق، ص٢٠ – ٧٥.

الكريم،حيث التكريم العلوي للإنسان، المستدعي لرؤية إنسانية للوجود كله على مستوى ذلك التكريم، تنطلق من تصورٍ كُليٍّ شامل للوجود وفق السنن الإلهية، يؤدي إلى الارتقاء المتناغم بين حركة الإنسان والكون، في عالمي الغيب والشهادة، وتصير رحلة الإنسان في الكون هي رحلة كائن حر عابد في كون مسبح للَّه الحي، ويغدو الموت مجرد مرحلة على الطريق للقاء اللَّه، تصل بين الحياة على ظهر الأرض، وبين الجزاء الأوفى في الآخرة.

وتطبق هذه الدراسة منهاجية التحليل السياقي، وكذا اقتراب القيم في تناولها لمفهوم التنشئة السياسية، والمفاهيم ذات العلاقة به.

وتنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول، وخاتمة:

ويتناول الفصل الأول:المضامين الكلية لمفهوم التنشئة السياسية في القرآن. ونمهد لذلك بتجلية المضامين والدلالات اللغوية للمفهوم في اللغة العربية بوصفها لغة القرآن، ثم ننظر في أبعاده في المواضع التي وردت مادته فيها من القرآن، ثم عبر فضاء العلاقة الإنسانية،وأطر صبغها بخاصية المسؤولية.

أما الفصل الثاني: فيعرج بنا في ساحة أبعاد المنظور القرآني للتنشئة على الأسوة الحسنة،كما تتجلى في الأسوة بالقرآن ذاته وبالنبي ﷺ بوصفه النموذج الأمثل الذي تجسد فيه القرآن،حيث كان هو خلقه وكان قرآنًا يمشي على الأرض، مع بيان الضوابط المنهاجية للاستقامة على طريق الوصال مع تلك الأسوة الحسنة.

ويعالج الفصل الثالث: مقومات التنشئة السياسية الإسلامية،وفى مقدمتها التنشئة على أركان الإسلام و التنشئـة على التدبر.

بينما يُلقي الفصل الرابع: الضوء على أركان علم التنشئة السياسية الإسلامية المتمثلة في التنشئة على الكلمة السواء، والعدل والتحرر من هجر القرآن.

وتثير الخاتمة الهم البحثي المتعلق بحاجة اللبنة التأسيسية التي تقدمها هذه الدراسة إلى الصقل والتثبيت من جهة، وإلى الانطلاق منها إلى التفكير في مشروع بحثي طموح وجماعي لبناء علم التنشئة السياسية الإسلامية.

* * *
* *
*

الفَصْلُ الأَوَّلُ

المضامين الكلية لمفهوم التنشئة السياسية

يتضمن هذا الفصل مقاربة في تأسيس المعالم الكلية لمفهوم التنشئة السياسية في اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم، وفى السياق المباشر لمادة (نشأ) في القرآن الكريم، وفي معالم الحقل العلاقي للإنسان، وأبعاد التنشئة على المسئولية في السياق القرآني، **في ثلاثة مباحث:**

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

المضامين اللغوية والقرآنية لمفهوم التنشئة السياسية

يسعى هذا المبحث إلى تحديد الحقل الدلالي لمادتي (نشأ، سوس)، في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، أو بالأحرى، في السياق المباشر الذي وردت فيه مادة (نشأ)، **على التفصيل التالي:**

أولًا: الحقل الدلالي اللغوي لمادتي (نشأ، سوس):

تتحمل مادة (نشأ) في لغة الضاد بمضامين عديدة أهمها: الإحداث والحدوث، والتجديد والتجدد، والتأليف والتربية، وجمع المعاني والتأليف بينها وتنسيقها وحسن التعبير عنها، والكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب كالأمر والنهي والاستفهام، والأصل والعلة.

والمنشئ هو القائم باستنباط المعاني وتأليفها والتعبير عنها بكلام بليغ. والناشئ: من تجاوز حد الصغر وشب. وناشئة الليل: الاستيقاظ[1] من النوم والقيام للصلاة. والنشأة: الحياة.

ومعنى ذلك: أن معاني التنشئة تدور حول الحركة التلقائية (الحدوث والتجدد)، والتغيير المخطط (الإحداث والتجديد)، وتقوم على استنباط، ينطلق من سبر أغوار أصول وعلة الأشياء، بهدف الإبداع في التأليف بين المعاني، وإجادة الإفصاح عنها، ويرتبط بالتكاليف الدينية بالليل والنهار، ويُسَوي بين النشأة والحياة، حيث لا موضع للجمود ولا للتقليد، بل للسعي الدائم إلى الكمال، وإلى تجاوز حد الصغر بالنسبة للفرد والجماعة والمجتمع والأمة.

---

(١) إبراهيم مدكور (وآخرون): المعجم الوجيز، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ٢٠٠٠م، ص٦١٥.

والعلاقة وثيقةٌ للغاية بين المدلولات اللغوية سالفة الذكر لمفهوم التنشئة، والحقل الدلالي لمفهوم السياسة فـ (السوس) يعني في لسان العرب: الرياسة. والسياسة هي القيام على الأمر بما يصلحه، وهي فعل السائس، والوالي الذي يسوس رعيته ويدافع عنها. السياسة إذن هي تدبير أمر عام في جماعة ما تدبيرًا يغلب عليه الإحسان، والرياسة، والقيادة وتقويم وترويض وتذليل الأمور العامة وتدبيرها. هي بتعبير آخر: تدبير الأمر العام بحكمة وفق معايير معينة، وتذليل الرعية وترويضها في حركة هادفة من منطلق الاختيار والمبادرة الذاتية والتوجيه، والتحريك الإلزامي.

والسياسة بهذه المضامين مفهوم واسع يشمل تزيين الأمر العام للآخرين وترويضهم وتذليلهم للقيام به على نحو يتطلع إليه مصدره، وتولِّي أمر الرعية ورياستها وإحسان النظر إليها.ولا يقف المفهوم عند البشر، بل يمتد ليشمل تدبير أمر الدواب وتأديبها وإصلاحها وترويضها، والمحاورة والمداورة في التفاعل مع كل شيء للوصول إلى مراد معين منه. ولم يرد مفهوم السياسة بلفظه في القرآن الكريم، وإن كان قد ورد بمضامينه هذه بكثافة بالغة. كما ورد لفظ السياسة في الحديث النبوي بدلالة مماثلة لدلالاته اللغوية السالفة الذكر[١].

وتتعانق الدلالة الاصطلاحية لهذا المفهوم في المنظور الإسلامي مع تلك الدلالات اللغوية. فمفهوم التنشئة مفهوم إنساني متناغم مع مفهوم السياسة بمدلوله الشامل المنفتح على كافة أبعاد الظاهرة الإنسانية، المتعلق بالقيام على الأمر بما يصلحه، وبناء الإنسان العابد الحائز على شروط الحرية الحقة، النافية للعبودية لغير اللَّه.

فالسياسة هي: عدل اللَّه ورسوله، أيًّا كانت طريقة التعرف على علامات ذلك وأماراته، مما يكون البشر معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، في إطار ما لا يتعارض مع ما نطق به الشرع.

ولب التنشئة السياسية هو: عملية تحويل ذلك العدل إلى قيم ومعايير سلوكية متفاعلة تتوارثها الأجيال، من أجل علاقة مستقيمة جامعة بين البشر والكون كله.

وغاية تلك العملية التي لا تعرف التوقف، وتحيط بالإنسان في كافة أطوار حياته، في كل زمان ومكان، هي: تنشئة الإنسان العابد المتكامل الاستواء في ظاهره وباطنه، الموصول

---

(١) السيد عمر: الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، رسالة دكتوراه غير منشورة، ١٩٩١م، ص٧٣، ٧٤.

بكافة الكائنات الأخرى بعلاقة توازن إيجابي فعَّال على قاعدة المقاصد الشرعية الخمسة، بوسائل تشمل: التربية بالقدوة، تحويل الخير كله إلى عادة سلوكية، والتربية بالعبرة من محصلة التفاعل مع المواقف، والتربية بتفريغ الطاقة في التأسيس لعلاقة والدية/ بنوة مع كل ما في الكون، مع ربط عملية التغيير بكاملها بتغيير ما في النفس.

والتنشئة السياسية بهذا المعنى هي عملية: إقامة حياة التقوى برعاية المقاصد الشرعية، في مدارات ثلاثة: معرفي (الارتقاء في تحصيل المعرفة الجديدة المفيدة عن الماضي والحاضر والمستقبل)، وظيفي (الحفاظ على الثوابت فيما هو قائم، واستصحاب الصحيح من الواقع، مع الارتقاء به عبر أنساق الحفظ المستنِدة إلى قيم الحرية التوحيدية، والتي تشمل: حفظ الابتداء، وحفظ البقاء، وحفظ البناء، وحفظ الارتقاء، وحفظ النماء، وصولًا إلى التجديد المحقق لثبات الهوية وارتقائها في آن واحد)، مجالي (ترتيب علاقة الأنا بذاته وبناء الهوية، وترتيب العلاقة بين الذات والآخر، على صعيدي: التحلية والتخلية). وتتم هذه العملية المرتكزة على ثوابت سنن اللَّه في الأرض في ترتيب الاجتماع الإنساني، عبر قنوات تضم في الإسلام: الأسرة ودور العبادة، ودور التعليم، والسير في الأرض، والمجادلة بالتي هي أحسن، ووسائل الإعلام. وتستدعي تلك العملية ضوابط لحركة تلك القنوات، ولمضمون ما تُقَدِّمه[١].

ثانيًا: الحقل الدلالي لمادة (نشأ) في القرآن الكريم:

وردت مادة (نشأ) في القرآن الكريم، في سبع وعشرين آية، في أربع عشرة سورة، هي: الأنعام، هود، الرعد، الأنبياء، المؤمنون، القصص، العنكبوت، يس، الزخرف، النجم، الرحمن، الواقعة، المُلك، المزمل. وسنسعى في هذا المبحث إلى بناء المعمار المعرفي لبنية مفهوم التنشئة، عبر رصد مضامين ودلالات مادة نشأ بكافة تصريفاتها في **السياق القرآني القريب المباشرة الذي جاءت فيه:**

١ - المضامين والدلالات في سورة الأنعام:

ورد الفعل (أنشأ) في القرآن الكريم، لأول مرة، في سورة الأنعام، في أربعة مواضع[٢]، على النحو التالي:

أ - عضوية العلاقة بين التنشئة والإيمان والابتلاء: في الآية السادسة، جاء الفعل (أنشأ)

(١) انظر: د. السيد عمر: توجيه بحوث التنشئة السياسية والاجتماعية في الجامعات،ضمن بحوث مؤتمر: توجيه بحوث الجامعات لخدمة قضايا الأمة، القاهرة: كلية التربية، جامعة الأزهر، مركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٧م.

(٢) الأنعام ٦، ٩٨، ١٣٣، ١٤١.

منسوبًا إلى اللَّه تعالى، خاصًّا بخلق جيل، ليحل محل جيل آخر، مكَّن اللَّه له في الأرض، وأفاض عليه من النعم، فاقترف ذنوبًا أهلكه اللَّه بها. ويدلل السياق هنا على سنة كونية خاصة بعاقبة ركون الأمم إلى التمكين والاستعلاء في الأرض، وتأدية ذلك بها إلى الهلاك وإنشاء قوم آخرين[١]، يدخلون في ذات الاختبار، وما لم يشكروا اللَّه على التمكين ويخشوه فيه، فإن التمكين المادي ذاته يتحول إلى قاطرة بوارٍ وخسران.

ويؤسس هذا للوعي بأن التنشئة الفعَّالة القادرة على البقاء، لا تتحقق بمجرد تحقيق الأمم لوضعية التمكين في الأرض، بل بالمثابرة عند بلوغ ذلك المأرب على القيام بشكر نعمة التمكين. والغفلة عن ذلك، تفتح الطريق إلى الإصابة بالوهن، والاستبدال الإلهي بآخرين. ويجب أن لا ينحصر هدف التنشئة، بالتالي، في الحفاظ على نظام أو تقليد قائم، بل ينصبُّ على تنقية ما هو قائم من أية مخالفةٍ لشرع اللَّه، من منطلق الإيمان بارتباط الهلاك بالذنوب. ورغم أهمية العوامل المادية في حياة الأمم، فإن شرط تأديتها إلى الخير وبقائها، يظل متمثلًا في: ارتكازها على قاعدة إيمانية أخلاقية. فقد يتحقق التمكين المادي بلا قاعدة إيمانية، ولكنه في هذه الحالة لا يولِّد إلا الشرَّ والهلاكَ ولا يدوم.

وترتبط القيم الإيمانية بالسنن الطبيعية في تحديد مصير الأمم. فالحضارة تقوم على: قيم إيمانية، وإبداع مادي، فيما لو سَعَتْ إلى البقاء. وعلى العكس من ذلك، قد تحقق الحضارة تقدمًا ماديًّا، مصحوبًا بانحدار أخلاقي، فتصير مؤذنةً بالخراب. فالحضارة إن سارت في سبيل المؤمنين، بالقيام على تقوى اللَّه، والتمتع بالطيبات الحلال، والحرص على الرحمة، تهيأت للاستقرار، وإن هي تيممت سبيل المجرمين، فقد يملي اللَّه لها، ولكنها تقترن دائمًا بالفتن والصراع، وتنشأ فيها عواملُ فنائها[٢].

ويشير السياق القريب في هذا الموضع القرآني، إلى حقيقة ينساها البشر حين يُمَكِّنُ اللَّه لهم في الأرض، ألا وهي: أن التمكين إنما تم بمشيئة اللَّه ليبلوهم فيه، أيقومون عليه بشرع اللَّه، كوكلاء مستخلفين، بوصفه أمانة؟ أم يقعون به في آفة الطغيان والجهالة والتعنت؟. في الحالة الأولى يدوم التمكين بشكر النعمة. وفي الثانية يدب الفساد، ويتسلل، بحيث لا يشعر به الواقع فيه في البداية، ثم يألفه، ثم ينزلق معه بلا إرادة، ويسلط اللَّه عليه ما شاء من صنوف الإهلاك، ويستخلف قومًا آخرين ليمتحنهم فيما مكنهم فيه[٣].

---

(١) أبو الفداء إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، القاهرة، المطبعة الفنية، د. ت، ٢/ ١٢٤، ١٢٥.

(٢) يوسف كمال محمد: سنن الحضارات كما تبينها سورة الأنعام، القاهرة: دار القلم، ٢٠٠٠م، ص٧ – ١٥، ٣٠ – ٣٩.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٧م، ٢/ ١٠٣٧ – ١٠٣٨.

ب - **المستقر والمستودع**: في الآية الثامنة والتسعين من الأنعام: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [الأنعام: ٩٨] تأتي إشارة مهمة لتأسيس نظام العمران الإنساني، على علاقة الوصال الحر المسئول بين الإنسان والكون، من منطلق وحدة أصل البشرية، وارتباطها بخالقها، وبالكون، والمسئولية المشتركة المتكافئة للرجل والمرأة عبر الزمان، والمكان. فالكل لآدم وهو من تراب. والذرية مستودَعة في أصلاب الرجال، والأرحام مستقَر لها. والمرء على ظهر الأرض مستودَع، وهو حين يموت يستقر به عمله. والدنيا مستودَع، والدار الآخرة هي المستقَر. وعلاقة الخلق والمستودَع والمستقَر، باللَّه، هي علاقة بين مخلوق، وبين خالق كل شيء، ورب كل شيء، المنعم المنفرد بالوحدانية وبوجوب العبادة[1].

وتأتي هذه الآية الكريمة، في سياق يشير إلى ضرورة إقامة نظام العمران الإنساني، في أرض اللَّه، وتحقيق التزكية، بالسعي المخطط إلى الأخذ بالأسباب، وإلى إبداع المزيد من الأسباب بالفعل الإنساني في الموجودات المسخرة. فالسياق يصرح بإنشاء اللَّه لكل شيء في الوجود، وفق تدبير محكم لا موضع فيه للصدفة ولا للعشوائية، وتوجيه اللَّه للبشر إلى: تلمس أسباب الوعي بالكون ونواميسه،حيث أودع في فطرتهم، القدرةَ على التدبر في مخلوقاته، ومعرفته بها.

وتشير هذه الآية الكريمة إلى أن وحدة النفس البشرية لم تجعل البشر نماذج مكررة، وتركز على محورية الأسرة في التكاثر، والتنشئة، وعلى حاجة الإنسان في كل أطواره، وفى انتقاله من وضعية كونه خلية حية في صلب الرجل، إلى: مستودع أمين عليه، وإلى مستقر، يوفر له كل أسباب الحماية، ولا يستطيع البشر أن يحصلوا ذلك، إلا بواسطة شرع اللَّه. فالتوحيد واستقرار الذرية في محيط الأسرة، وفي الوطن، شرطان متلازمان لحفظ إنسانية الإنسان. وهكذا ترسي هذه الآية الكريمة، بنصها، وبسياقها القريب العلاقة العضوية بين: التنشئة، والإيمان، ووحدة أصل الإنسان، والأمانة، والتوحيد، والاستقرار، وإنسانية الإنسان.

جـ - **لا حرية للإنسان إلا بدين اللَّه**: تضيف الآية (١٣٣) من سورة الأنعام، إلى معمار مفهوم التنشئة السياسية، ركنين آخرين، يتمثلان في: تحرير الذات الإنسانية الفردية والجماعية، من القابلية للفتنة بالأسباب، واحتياج الاجتماع الإنساني بكل أنساقه، إلى دين اللَّه على الدوام، حيث تقرر أن مشيئة اللَّه - تعالى - مطلقة، وأن بقاء قوم أو استخلافهم بغيرهم، مرهون

(١) ابن كثير: مرجع سابق، ٢/ ١٦٠، ١٦١.

برحمة اللَّه ومشيئته. ومن يتجبر ويتكبر في الأرض، ليس بمستعصٍ على اللَّه، ولن يفلت من حسابه. وعاقبة الدار والفلاح لن تكون، في نهاية المطاف، إلا للقائمين بشرع اللَّه. فالمَدَارك البشرية قد يصيبها القصور والغفلة. وهي دائمًا بحاجة إلى ما أنزله اللَّه على رسله.

ويعزز سياق هذه الآية الكريمة، صرح الركنين المذكورين، بالتحذير من الغفلة عن بشارة الرسل، وإنذارهم، ومن الركون إلى شياطين الإنس والجن وأوليائهم، ويبين أن الجزاء الحق سيكون في الآخرة على ما يكسبه الثقلان بمبادرتهم، وما يكتسبانه بفعل غيرهم بهم وفيهم. ويرشد هذا السياقَ إلى عقباتٍ تواجه التنشئة الإسلامية، من أهمها: تعطل أجهزة الاستقبال في الكيان البشري أو ضلالها أو غفلتها، وما يوحي به شياطين الإنس والجن لبعضهم البعض من زخرف القول غرورًا، واستمتاع هؤلاء بإغواء الشيطان لهم، وعلاقة الولاء بين الظالمين لنصرة الهوى والطغيان وفتنة المؤمنين، مبينًا أن السبيل الوحيد لاقتحامها هو: التوحيد الخالص وتحكيم شرع اللَّه[1].

د - **تكريم العمل الإنساني الصالح**: تأتي الآية (١٤١) من سورة الأنعام ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ** ﴾ لتدشن ركنًا آخر من بنية مفهوم التنشئة، يتمثل في محورية العمل الإنساني الصالح، في ضوء تقديم: الجنات المعروشات الإنسيات التي تعهدها الإنسان بالرعاية، على الجنات غير المعروشات البريات، التي تنمو بلا تدخل من الإنسان ولا تنظيم، مع تكريم اللَّه تعالى، الفعل الإنساني الصالح، بنسبة إنشاء الجنات المعروشات إلى نفسه، بما أن الإنسان مخلوق له، وهو الذي علمه، وهو وما استخلف فيه مملوك له، وبما أن التنوع في الحياة التي بثها اللَّه في الكون، نعمة من اللَّه، أساسها تهيئة الأرض لِأَنْ تكون مستقرًّا لحياة الإنسان، ومتاعًا له إلى حين.

وتأتي هذه الآية الكريمة، بعد بيان عاقبة انجراف البشرية مع الهوى والشرك باللَّه، في سياق يربط التنشئة بالوصايا العشر، مقررًا أن التحليل والتحريم شأنٌ لا يشارك اللَّه فيه أحدٌ، ويأمر باجتناب الإشراك باللَّه، و بالإحسان للوالدين، وبعدم قتل الأولاد من إملاق، وباجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وعدم قتل النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق، وعدم الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، والوفاء في الكيل والميزان، والعدل في القول، والوفاء بعهد اللَّه، واتباع طريق اللَّه المستقيم، وهجر السبل التي تتفرق بسالكها عن سبيل اللَّه، واجتناب الإسراف حتى في الطاعة[2].

---

(١) ابن كثير: مرجع سابق، ٣/ ١٢١٠، ١٢١١.

(٢) المرجع السابق، ٣/ ٢٢١٨ - ١٢٢٣.

٢ - المضامين والدلالات في سورتي هود والرعد:

ينصبُّ السياق القرآني لمادة نشأ، هنا على تأكيد انتفاء العصمة عن البشر، واستحالة تغيير البشر من خارجهم، **على النحو التالي:**

أ - انتفاء العصمة من القابلية للخطأ: تؤسس آية هود، بنصها، وسياقها القريب، لركن آخر من بنية مفهوم التنشئة، يتمثل في: صلة الوالدية بين الأرض والإنسان، الناشئ منها بقدرة اللَّه، المستعمَر فيها بتكليف إلهي. ففي الآية الواحدة والستين من سورة هود، نقرأ قول اللَّه تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]، مسبوقًا بدعوة صالح لثمود لعبادة اللَّه وحده، وللمسارعة إلى الاستغفار والتوبة إلى اللَّه، ونجد أنفسنا هنا أمام الدليل على: قابلية أية أمة للانحراف، وأن مبـدأ خيرية الأمة، ليس صفة تكوينية فطرها اللَّه عليها، بل هي تكليف إلهي لها، بالاستقامة على منهج اللَّه. فإن هي بدلت ما بنفسها، غَيَّرَ اللَّه ما بها. فمِنْ بين مَنْ كانوا مع نوحٍ على الإسلام - بعد أن طهَّر اللَّه الأرضَ من الكفر بالطوفان - نشأت ناشئة، انحرفت عن صراط اللَّه، واجتالتهم الشياطين، وخرجت منهم عاد وثمود، وبلغت عاد أعلى درجات التمدن في الأحقاف بجنوب جزيرة العرب، وبلغت ثمود أعلى درجات التمكن في شمال الجزيرة، وكان هلاكهما نتيجةً طبيعيةً لرفض نصيحة هود وصالح لهما بالاستغفار والتوبة كأساس لبقاء النعمة وزيادتها. ومرة أخرى، يقوم الدليل على أن قوة مَنْ لا يحكم بما أنزل اللَّه مؤقتة، ومصيرها الزوال، وأن اللَّه تعالى يوجه العوامل الطبيعية لإثابة الطائعين وعقاب العاصين، ولكنْ بعد الابتلاء والإمهال بآجال قدرها ﷻ[1].

ب - لا عبرة إلا بتغيير ما بالنفس: في الآية الثانية عشرة من الرعد، تقترن الإشارة إلى إنشاء اللَّه للسحاب الثقال، المحملة بالماء الذي هو أصل كل حياة على الأرض، بتقرير: خاصية الكون المسبح بكل شيء فيه للَّه. ويأتي ذكر إنشاء اللَّه السحاب الثقال، في سياق شواهد كونية، على أن القرآن هو الحق من عند اللَّه، والنعي على من لا يدققون في آفاق الكون والنفس، وفي تدبير اللَّه للأمر كله، وتفصيله الآيات، وفى مصارع الغابرين، وإمهال اللَّه الخلق، لفتح باب التوبة والمغفرة أمامهم. وفى السياق القريب تأتي الإشارة إلى الرقابة الإلهية الدائمة، والمشيئة الإلهية المطلقة.

ثم ترد قاعدة عدم تغيير اللَّه ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم، في سياق يربطها بالكون كله، بإقران إنشاء السحاب الثقال، بالتوجيه الإلهي للظواهر الكونية، بحيث تكون كل منها

---

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ٤/ ١٩٠٠.

مصدر خير لمن يشاء، ومصدر شر على من يشاء، ويلتقي على صعيد واحد ذكر: البرق والرعد والسحاب والصواعق، وذكر: الملائكة والظلال والتسبيح والخوف، ودعوة الحق المستجابة والدعوة المردودة، وذكر: خصال المؤمنين، وفي مقدمتها: العلم بأن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، والوفاء بالعهد، وعدم نقض الميثاق، ووصْل ما أمر اللَّه به أن يوصل، وخشية اللَّه والخوف من سوء الحساب، والصبر ابتغاء وجه اللَّه، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ورد السيئة بالحسنة[١].

ومرة أخرى، تتأكد العلاقة بين التنشئة وبين التوحيد والعمارة والاستغفار والتوبة، والحاجة المستمرة إلى ضبط الأداء وإصلاحه. فتحقيق الاستقامة لا يضمن بذاته بقاء الاستقامة. ويؤشر ذلك، على ضرورة المراجعة والمساءلة والتصحيح المتواصل.

٣ - المضامين والدلالات في سورتي الأنبياء والمؤمنون:

من أهم المضامين التي يرسيها السياق القرآني لبنية مفهوم التنشئة السياسية في **هاتين السورتين:**

أ - حيوية عبرة الأمم الخالية: تُعْنَى الآية الحادية عشرة من الأنبياء، بنصها وسياقها، ببيان عبرة سير الأمم الخالية، وتعمق الوعي بسنن قيام الأمم وزوالها. ولب تلك العبرة، هو وجود قانون سياسي ثابت، فحواه: إهلاك اللَّه تعالى الأمم الظالمة، وعجزها عن النجاة، حين يأتيها أمر اللَّه، وإنشاء اللَّه أممًا أخرى. ومِنْ سُنن اللَّه في الأمم، أن تكون للتوحيد - الذي أرسل اللَّه به كل الرسل - الغلبة في النهاية على الباطل[٢].

ب - الطابع الارتقائي لعملية التنشئة: ورد الفعل (أنشأ) خمس مرات[٣]، في سورة المؤمنون، في ثلاثة مواضع، يُجلي أولُها: البعدَ الارتقائي، في مفهوم التنشئة، المتمثل في النفخة الإلهية في المضغة المخلقة. فنفخة الروح، التي هي من أمر اللَّه، في الجنين في بطن أمه، تحوله إلى خلق آخر، لا يقف عند تركيبته المادية، بل يصير بها خلقًا آخر، ذا سمع وبصر وإدراك، ومن هذا الجذر يَشْرع الإنسانُ - في تقلبات وأحوال لكل منها خصوصيتها - يخرج طفلًا، وينشأ صغيرًا، ثم يصير شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ثم هرمًا. ثم يلي الموتُ هذه النشأة الأولى، ثم ينشئه اللَّه النشأة الأخرى يوم الميعاد[٤].

ومفاد ذلك، أن عمق دورة التنشئة، يسبق تكوين الأسرة، ويلازم الإنسان في حياته،

---

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ٤/ ٢٠٤٧ - ٢٠٥٤.
(٢) المرجع السابق، ٤/ ٢٣٧٠، ٢٣٧١.
(٣) المؤمنون: ١٤، ١٩، ٣١، ٤٢، ٧٨.
(٤) ابن كثير: مرجع سابق، ٤/ ٣٣٢.

ويتواصل معه إلى الآخرة. ويَرِدُ (الإنشاء) هنا في سياق يربط عملية التنشئة، بمعالم شخصية المؤمن، في أفقها الأعلى: خشوع في الصلاة يسري إلى الجوارح والملامح والحركات، يتضاءل معه شأن كل ما لا يتصل باللَّه على صعيد القيم والأشخاص والأشياء، وإعراض عن اللغو كله: لغو القول والفعل والشعور والاهتمام، وإقبال على اللَّه بتطهير القلب والنفس والسلوك والصبر والاستغراق في أمر اللَّه، وفعل الزكاة طهرة للقلب والنفس من الشح، وصيانة للجماعة من الحاجة والتفكك والانحلال، وحفظ البيت: طهارة للروح والبيت والجماعة، وحفظ للفرد وللجماعة من أسر الشهوة وفساد البيوت، وحماية لحرمة البيت كمحضن لا قوام له إلا بالأمن والاستقرار والعفة والطهارة، وحفظ الأمانات ورعايتها، وفي مقدمتها: أمانة فطرة الفرد والجماعة، وعهد اللَّه وتبعاته، والحفاظ على الصلاة، وتقرير أن حفظ ما بين المرء وربه، هو مفتاح حفظ ما بينه وبين غيره، وهو أساس الوراثة الحقيقية، التي تصل إلى وراثة الفردوس والخلود فيه.

ويوضح السياق القرآني في هذا الموضع أن النشأة حلقات يتكون منها متصل، يشق طريقه من التزاوج بين المستقر والمستودع، إلى المرحلة الجنينية، إلى مراحل الحياة الدنيوية، إلى الآخرة. وهي نشأة ذات أطوار منتظمة مطردة، تشهد بوجود المنشئ، وبالقصد، والتدبير، والرعاية المتواصلة، وتؤكد أن الإيمان بالخالق المدبر، والسير على نهج المؤمنين، هو وحده: طريق الكمال المقدر لتلك النشأة في الدنيا والآخرة. فالإنسان في بعده المادي مجرد طين، وهو في بعده الإيماني خلق كريم ومكرم، وكما أن الإنسان كُرِّم بالمستودع والمستقر ونفخة الروح في المرحلة الجنينية، فإنه مكلف بالاجتهاد لجعل الجماعة والمجتمع والأمة مستودَعًا ومستقرًّا له، وأساسًا لإنسانيته في حياته الدنيوية، ولفلاحه في الآخرة.

وكما أن مرور الإنسان بأطوار نشأته هذه، لا يعني فقدانه الخصائص الأساسية المختزنة، في النطفة، في كل مراحل حياته، ولا يعني الجمود في آن واحد، فإن الحركة الارتقائية لأجيال الأمة على أطوار متصل التنشئة السياسية، تقتضي دوام بصمتها التي أخرجها اللَّه بها للناس. فالأصالة لا تلتقي أبدًا، مع حركة فاقد الهوية، ولا مع فعل داعية الجمود، وما دام الإنسان ليس مجرد جسد، فإن الحياة الإنسانية، التي بدأت من الأرض، لا تنتهي في الأرض، بل تتطلع،على الدوام، إلى بث الروح الإيمانية في حركة الإنسان وسكناته، وتنظر إلى الموت، كطوْرٍ من أطوار التنشئة الإنسانية، وإلى البعث كبداية للحياة الآخرة، كطورٍ أخير منزه عن كافة نقائص الحياة الدنيوية[1].

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ٤/ ٢٤٥٦ - ٢٤٦٩.

جـ - حيوية فعل الزمن في الأمم: يبرز الموضع الثاني، محورية عنصر الزمن، في تنشئة الأمم ومداولة اللَّه الأيام بينها. ففي الآيتين (٣١، ٤٢) من سورة المؤمنون، تأتي الإشارة إلى سُنة اللَّه في استبدال قوم بقوم آخرين، متضمنة لفظة (ثم) التي تؤشر على استغراق عملية إنشاء الأمة زمنًا، كسُنة كونية للتغيير.

وفي الآية الأولى، يشير الحق إلى إنشاء أمة مؤمنة حلت محل قوم نوح، بعد أن استحكم الكفر في قلوب قومه، إلا القليل منهم، بسبب الجمود المولِّد لآفة التقليد، الذي يطمس البصيرة، ويحجر الفكر، ويقتل فرصة الاستفادة من الزمن. وبالطوفان جرف اللَّه ذلك الكفر، وغسل التربة، وعلم الأمة المؤمنة التزود بأسباب النجاة المادية والإيمانية، لحفظ بذور الحياة، ليعاد بذرها من جديد. ورغم صلاحية تلك البذرة، فإن الغفلة عن فعل الزمن بالأمم الناسية، أخرجت من رحمها قومًا نسوا أن التمكين في الأرض ابتلاء، وانقسموا، مرة أخرى، إلى مؤمنين ومشركين، فاستبدلهم اللَّه بقوم ليسوا أمثالهم.

وفي الآية الثانية، يتواتر مفعول هذه السنة الكونية، بإنشاء قرون آخرين، دون أن تعتبر البشريةُ أو تغير سلوكياتها، تجاه دعوة الرسل. ويكشف السياق، في آن واحد، عن اثنين من أهم معالم بنية التنشئة السياسية: استحكام آفة النسيان في الأمم، وانتفاء أي ظل للإكراه في دين اللَّه. وفى أحضان هذين المَعْلَمَيْنِ، تأتي الإشارة إلى: وحدة أمة الرسل، ووحدة دين اللَّه، وإلى أن مطلوب الشرع، هو: ممارسة الفطرة البشرية بالأكل من الطيبات، وعمل الصالحات على قاعدة التوحيد، والارتقاء بالبشرية بربطها بالملأ الأعلى وضبطها بمنهج اللَّه[1].

ويؤكد السياق هنا على التناغم بين نواميس الكون، والحق الذي نزل به الروح الأمين، والالتزام به. فعقْرُ قوم صالح للناقة، استوجب العذاب بحلول أجله. والمرض النفسي يُعدي، كالمرض الجسدي، بإيحاء البيئة المريضة. والمخرج مرهون دائمًا باستقامة الفطرة والدين والمروءة والرشد.

وهكذا يرسم السياق القرآني في هذا الموضع، أفقًا لعملية التنشئة، محكومًا بالتفاعل بين: دين اللَّه الواحد، والكون المتناغم معه، من جهة، وبين أمة الإجابة الواحدة، ومفاعيل الحرية التوحيدية، والقابلية للنسيان، من جهة أخرى.

وتدلل معالم بنية التنشئة، المتضمنة في هذه السورة الكريمة، بالإشارة في الموضع الأخير منها، على قدرة الأمم على الفعل المتناغم مع دين اللَّه والكون، فيما لو توفرت لديها

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ٤/ ٢٤٥١ - ٢٤٦٩.

الإرادة، في ضوء امتنان اللَّه على البشر، بإنشاء السمع والأبصار والأفئدة لهم، للاعتبار بالآيات الدالة على وحدانيته، وتيسير اتصالهم بالكون، وتوفير الاستعدادات والطاقات الضرورية لاستخلافهم في الأرض وعمارتها، وعدم تكليفهم بما هو فوق طاقتهم[١].

٤ - المضامين والدلالات في سورتي القصص والعنكبوت:

يرشد السياق القرآني هنا،إلى أهمية الأسوة الحسنة، والعدل والإحسان كأساس لاستقامة العلاقات بين الأمم، **كما يلي:**

أ - عبرة الأسوة بالصالحين: ترسم الآية (٤٥) من القصص معالم الطريق للوعي التاريخي، مبينة أن من ثوابت سلوكيات إحسان أمة الإجابة الواحدة، عبر الزمان والمكان، في معاملة الأمم الأخرى: العدلَ في الحكم بينها، والإحسان في معاملتها. وتشير هذه الآية الكريمة إلى إنشاء اللَّه تعالى أجيالًا متطاولةً، اندرست مع تطاول الزمن أخبارُهم[٢]. وفى الوقت الذي تُبْرِهِنُ فيه الآيةُ الكريمة على أن بُعْد الشُّقة الزمنية بين بعثة موسى وبعثة محمد، وورود ذلك القصص الحق في القرآن، دليل على صدق النبي، فإن سياقها يؤشر على أن القرآن هو المصدر الوحيد، للوقوف على قصص الأولين الحق، وعلى أن الوعي بسيرهم، رحمة من اللَّه، تتحقق به العبرة، وتقوم الحجة.

ويبلور السياق درس الأسوة في الذين أنعم اللَّه عليهم، بدعوة خَلَفِهم من أمة الإجابة، إلى التحلي في معاملة أهل الهوى والضلال، بالتخلق بالإسلام للَّه، والإنفاق مما رزقهم اللَّه، والإعراض عن اللغو، والانشغال بتكاليف الإيمان، وإجادة الأدب في الحوار مع المخالف، بعدم تهييجه، وعدم تضييع الوقت في جدل عقيم معه، والوعي بأن دورهم هو: النصيحة، لا الهداية، وتقديم حب اللَّه ورسوله على حب قرابتهم وأنفسهم، والإيمان بأن التمسك بحبل اللَّه هو مفتاح الأمن، وأن أية قوة في الأرض لا تستطيع تخويفهم، فيما لو ركنوا إلى اللَّه بصدق وثبات، ووزنوا الأمر على أن ما في الدنيا متاع وزينة، و أن ما عندهم ينفد، وما عند اللَّه خيرٌ لهم وأبقَى.

ب - السير في الأرض للحفر المعرفي عن نقطة البداية: توجه سورة العنكبوت أمة الإجابة إلى الحركة الرامية إلى الوعي بالكيفية التي بدأ اللَّه بها الخلق، في سياق ينفخ فيها روح الاستهانة بكل العقبات التي تعترض سبيل ذلك، مهما بدت رهيبة في ظاهرها. فالتوجيه الإلهي الوارد في الآية العشرين من العنكبوت للسير في الأرض، للنظر في الكيفية التي

---

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ٤/ ٢٤٧٦.

(٢) ابن كثير: مرجع سابق، ٣/ ٣٦٢.

بدأ الخلق بها، المقرون بوعد إلهي بإنشاء النشأة الآخرة، بعد أجلٍ مسمًّى، يأتي في سياق يتضمن نماذج من الفتن والابتلاءات التي تعرض لها المؤمنون على مدى التاريخ، تشمل: الفتنة بالأذى، والفتنة بالقرابة، والفتنة بالإغراء، والإغواء، وطغيان المال، وبالقوة والنعمة والنفاق، مع بيان أنها كلَّها قوًى واهيةٌ كبيْت العنكبوت، لا وزن لها في نهاية المطاف، أمام القدرة الإلهية، والمشيئة الإلهية المطلقة[١]. وينبه السياق هنا إلى أهمية الحركة، والانفتاح على الآخرين. فالإنسان لا يستطيع أن ينظر في كيفية بدء الخلق، وهو جامد في مكانه، ومتقوقع على نفسه؛ لأن العيش في نفس المكان، يجعل ما فيه مألوفًا له، ولا يحرك أجهزة الاستقبال لديه للتدبر والإحساس بالجديد، والاستدلال من النشأة الأولى، على النشأة الآخرة، أما رؤية المشاهد الجديدة، والاحتكاك بها فتجدد قدرة السمع والبصر والفؤاد، على تأدية وظائفها في: التدبر في معالم قدرة اللَّه، والتناغم مع الكون في تسبيحه بحمد اللَّه.

٥ - المضامين والدلالات في بقية سور القرآن:

من أهم اللبنات التي تقدمها المواطنُ التي وردت فيها مادة (نشأ) بدءًا بسورة يس، وانتهاءً بسورة المزمل لِصرْح مفهوم التنشئة السياسية ربطُه بالبعث، وبقابلية الأمم للانحراف، وافتقارهم الدائم إلى اللَّه، وسمو النشأة الآخرة، وعلو شأن ناشئة الليل.

- **وفي الآية التاسعة والسبعين من سورة يس**، إشارة إلى إحياء اللَّه للإنسان، بعد أن تصير عظامه رميمًا، كما أنشأه أول مرة. فاللَّه بيده ملكوت كل شيء وهو مبدعه.

- ويشير سياق تلك الآية إلى تواتر كفر كثيرين بنعمة اللَّه، وتعبيدهم أنفسهم لآلهة من دون اللَّه، رغم جلاء حقيقة الارتباط بين الاستقامة الإنسانية والتوحيد الخالص.

- ويأتي الفعل (ينشأ) **في الآية الثامنة عشرة من الزخرف**، التي تثبت بنصها وسياقها القريب، التسويةَ بين البنين والبنات، والتسوية بين كل المخلوقات في العبودية للَّه وحده، واختصاص البنات بالتنشئة على الزينة، وحب الجمال، والوداد الجامع، كخصال ملازمة للصالحات منهن حتى في النشأة الآخرة، كما سيتضح لاحقًا، وتنعي على الجاهلية الأولى في ذات الوقت السفه المركب، في حق المـرأة، المتمثَّل في: كرههن بلا مبرر، والزعم بأن الملائكة إناث، مع عبادتهم من دون اللَّه، دون دليل يُذكر من شهادة خلقهم، أو من وحي منزل من ربهم[٢].

---

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ٥/ ٢٧٢٦ - ٢٧٣٠.

(٢) المرجع سابق، ٦/ ٣١٨٠، ٣١٨٢.

- **وفي الآية السابعة والأربعين من سورة النجم**، يأتي الوعد الإلهي بالنشأة الأخرى ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧] في سياق توجيه أمة الإجابة، متأسيةً برسولها إلى: الإعراض عمَّن يتولى عن ذكر اللَّه، ويشغل نفسه بالدنيا، ويغفل عن حقيقة أن علم اللَّه بخلقه يفوق - بلا وجهٍ للمقارنة - علمَهم بأنفسهم، وإلى اليقين بانتهاء أمر الخلق كله إليه سبحانه في الدنيا والآخرة، وإلى ضرورةِ التوبة، وإلى اجتناب الفواحش، وإلى وجوب عدم تزكية النفس، وإلى استحضار حقيقة فردية التبعة، وعدالة الجزاء الإلهي، ومنطقية الاستدلال من النشأة الأولى على النشأة الآخرة(١).

- **وفي الآية الرابعة والعشرين من سورة الرحمن**، يأتي قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، في سياقٍ يدل على أن الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول وخالقه الأول. فالكون خليقة حية ذات روح يختلف مظهرها ودرجتها من كائن لآخر. والإنسان وما يبدعه مما علمه اللَّه له، ينبغي أن يسبح اللَّه، شأن كل ما في الكون. وأصل النعمة هو: الإيمان والإنشاء. واللَّه هو الذي يخلق ويبدع ويحفظ ويحاسب، وهو وحده الذي ينبغي أن يسأله كل مَنْ في السموات والأرض؛ لأن غيره فانٍ، لا يتعلق به سؤال. وسؤال غيره دليل ضلال بحد ذاته؛ لأن تدبير كل شؤون الخلق بيده وحده(٢).

- **وفي سورة الواقعة** وردت مادة (نشأ) ست مرات(٣)، في سياق يشير إلى نشأة الزرع والماء والنار والاحتضار والنعيم المادي والمعنوي، ويربط بين النشأة الأولى للحياة بشتى صورها، وبين بناء اليقين الإنساني بالنشأة الآخرة التي تبدل أقدار الناس وأوضاعهم، بميزان التصنيف على متصل: السابقين، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة. وفي ظلال الطهر والقرب من اللَّه وارتفاع المكانة، يأتي ذكر إنشاء اللَّه تعالى، الحور العين والزوجات المبعوثات، والموت كحلقة في سلسلة النشأة، التي لابد أن تكتمل، وتستدعي التزود من الدنيا للآخرة(٤).

- **وفي الآية الثالثة والعشرين من سورة المُلك**، إشارة إلى خلق اللَّه للبشر، وتزويدهم بالسمع والأبصار والأفئدة كنعم تستحق الشكر، وبثِّ اللَّه الخلقَ في الأرض للابتلاء فيها، ثم جمعه لهم في الآخرة(٥).

---

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ٦/ ٣٤٠٥ - ٣٤١٧.
(٢) المرجع السابق، ٦/ ٣٤٤٨ - ٣٤٥٥.
(٣) الواقعة: ٣٥، ٦١، ٦٢، ٧٢.
(٤) سيد قطب: مرجع سابق، ٦/ ٣٤٦١ - ٣٤٧٠.
(٥) ابن كثير: مرجع سابق، ٤/ ٤٠٠.

- وأخيرًا، يأتي الثناء الإلهي على: قيام ناشئة الليل **في الآية السادسة من المزمل** ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ [المزمل: ٦]، في سياق يشير إلى: توجيه الأمة عبر مَنْ لها فيه الأسوة الحسنة، إلى التزود بالانقطاع فترة عن شواغل الأرض، والتدبر في الكون؛ لأن الاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه ولا تحاول تغييره، ويشير إلى أنه لم يعد لديها بعد تلقي الوحي متسع لتضييع الليل بالنوم. ويفيد السياق هنا: أن الصبر والاجتهاد في طاعة اللَّه، يستتبع التخفيف والتيسير منه.

وناشئة الليل هي ما ينشأ منه بعد العشاء، وكل ساعة من الليل تسمى ناشئة، ومعنى أقوم: أصوب وأهيأ، ويقال: نشأ إذا قام من الليل خاصة بعد العشاء، وقيام الليل أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها، من قيام النهار، الذي يفرغ للمعاش والحوائج، وهو وقت انتشار الناس ولغط الأصوات[١].

والقيام للَّه في ناشئة الليل، أجهد للبدن، ولكنه أثبت في الخير؛ لأنه بعيد عن شبهة الرياء، ويصبُّ قيام ناشئة الليل - فيما يشير السياق - في تحقيق تخلق أمة الإجابة بالصبر والهجر الجميل والإمهال في مواجهة الاتهام والإعراض والصد والتعويق؛ لأن الداعية إن أمهل العصاة الدنيا كلَّها كان ذلك الإمهال أمدًا يسيرًا[٢].

٦ - خلاصة مضامين السياق القرآني القريب لمفهوم التنشئة السياسية:

زبدة هذه الإطلالة السريعة على السياق القرآني المباشر لمادة (نشأ): أن مضامينها تدور حول: مفاهيم النشأة والإنشاء والتنشئة. والمفهومان الأوَّلان وردا في القرآن الكريم بلفظيهما، في حين ورد به الفعل ينشأ الذي هو جذر المفهوم الثالث، المناظر للثاني، لارتكازهما معًا على فعل طرف ما في طرف آخر، دون أن يرد هو بلفظه، ومجال الأول هو: عملية التخلق بالقيم بالمسعى التلقائي، المتمثل في: النشأة، والحدوث المرتبطيْن بقابليات الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها. ومجال الثاني، هو: السعي المخطط المتعمد للتربية على: الإصلاح والتجديد في القيام على الأمر بما يصلحه، والتربية على الأسوة، بتعزيز قابلية الذات الإنسانية الفردية والجماعية للمحاكاة، والمراجعة والاعتبار. وجوهر مفهوم النشأة هو المبادرة الذاتية، في مقابل المبادرة من طرف آخر، كبؤرة لمفهوم تنشئة الذات الإنسانية الفردية والجماعية، عبر عملية ارتقائية دائمة، متعددة الدرجات والحلقات، ترمي إلى إثراء الفطرة الإنسانية السويَّة، على ثلاث مراتب، تبدأ بـ: تنشئة واقع غير مخالف لِمَا نطق به

(١) ابن كثير: مرجع سابق، ٤/ ٤٣٦، ٤٣٧.
(٢) سيد قطب، مرجع سابق، ٦/ ٣٧٤٧.

الشرع، لتنتقل منها إلى: التنشئة على سنن التمكين في الأرض، لتتجاوزها إلى: التنشئة على سنن شكر نعمة التمكين في الأرض.

ومن أقوى الأدلة، على نقاء الفضاء القرآني، لعملية الكسب الذاتي للقيم، واكتسابِها بمبادرة بفعل ذات إنسانية أخرى، من أي شبهة للإكراه، رد مفهوم التنشئة الإنسانية إلى مفهومي النشأة والإنشاء. فالقرآن بوصفه كتاب الحرية الإنسانية التوحيدية، يوجه البشرية إلى تنشئة كافة أنساقها، بدءًا بالفرد، وانتهاء بالأمة، بالبينة، التي لا مجال معها، للإكراه، ولا للتلاعب والمكر السيئ.

والعلاقة جد وثيقة بين عملية التنشئة بمراتبها الثلاث وبين: الإيمان والابتلاء. فالتمكين في الأرض ممكن – من قبيل الابتلاء – دون ركيزة إيمانية ولكنه لا يدوم، ولا يؤدي إلا إلى زيادة الإنسانية رهقًا. وتمتد دورة التنشئة على هذه المستويات الثلاثة في المنظور القرآني، إلى عمق يمتد من بدء الخليقة حتى قيام الساعة، والتي تجمع بين واقع معين لجيل تتم تنشئته، وبين الخبرة اللازمانية واللامكانية لتفاعل البشرية مع كافة الرسالات الإلهية من لدن آدم عليه السلام إلى النبي الخاتم ﷺ **بمنطق يرتكز على ستة مبادئ، هي:**

أ – ثبات السنن الإلهية الكونية، وفى مقدمتها سُنّة إهلاك الأمم الظالمة والمنّ على المستضعفين.

ب – تعلق سُنّة التخفيف والتيسير الإلهيين، بالصبر والمصابرة والاجتهاد في السير في الأرض والأخذ بأسباب العزة.

جـ – قابلية الفطرة الإنسانية لاستكشافها واستعادة نقائها والاستفادة منها في الارتقاء بالعمران الإنساني.

د – المساواة بين المرأة والرجل، وبين كافة البشر في القيمة الإنسانية وفي المسؤولية، ومحورية الأسرة كنواة لكافة الأنساق السياسية الأخرى للأمة.

هـ – ضرورة المساءلة والمراجعة والتصحيح الدائم، في ضوء: قابلية البشر للخطأ والغفلة، مما يستدعي حاجتهم الدائمة إلى التذكير بآيات اللَّه، والتناصح والاستغفار.

و – السعي إلى معرفة سِيَر الأولين والاعتبار بها. فمِن سِيَر الصالحين نتعلم أسس التعامل السوي مع الأنا والآخر، ومِن سِيَر الطالحين نتبين العاقبة، وأسس التعامل مع الفتنة بالأذى أو بالقرابة، أو بالاستدراج أو بالنفاق.

ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّانِي

معالم الحقل العلاقي للإنسان

مفتاح التأسيس التنظيري لحقل التنشئة السياسية الإنسانية، من مرجعية قرآنية، هو إعادة تحرير مفهوم الإنسان، عبر عملية تخلية له من كل ما شَابَهُ من رؤى المنظور الجاهلي، من قبيل مقولة أنه حيوان اجتماعي ناطق، ثم إعادة بناء معالم حقله العلاقي، برصد أهم خصائصه وشروطه المبثوثة صراحةً وضمنيًّا، في كل آيات القرآن الكريم. **ويكشف التحليل السياقي الأَوَّليُّ لمفهوم الإنسان، وشبكة علاقاته في القرآن الكريم، عن المعطيات التالية:**

أولًا: ثلاثية الحقل العلاقي للإنسان:

يدور فضاء هذا الحقل في المنظور القرآني، حول علاقة الإنسان بالخالق، والكون، والمنهج الإلهي. و نواة هذه الثلاثية هي: وجود خالق للكون كله بكل ما فيه، يده حاضرة في كل حادثة وفى كل أمر، ومِنْ وجوده ورعايته يستمد كلُّ موجود حياتَه ومصيرَه. وفي مقابل الأحدية كخاصية متفردة للَّه تعالى، تمثِّل الزوجيةُ الخاصيةَ الأم لنظام كافة المخلوقات، ويشتمل القانون الكُليُّ الناظمُ للكون على زوجين - شأنه شأن كافة مخلوقات اللَّه تعالى -: سُنن كونية، وشريعة إلهية. والخالق ﷻ، صاحب تلك السنن، وتلك الشريعة، لا يشبه أحدًا، وينفرد بالإرادة المدبرة والمشيئة المطلقة وصفاته - تعالى - إيجابية وذات فاعلية، وهي وراء السنن.

ويده ﷻ تعمل بطريقتها الخاصة، ولا موضع لاستعجالها ولا للاقتراح عليها. والمنهج الإلهي موضوع لإنسانٍ حر حامل للأمانة يعيش في هذه الأرض، وهو متوافق مع الفطرة، والحق فيه أصيل وركيزة لِبِنْيَة الوجود كله. والخير والصلاح والإحسان خصـال باقية بقاء الحق في الأرض، إلى أن تقوم الساعة. بمعنى آخر: يحتاج الإنسان إلى رد فطرته على الدوام إلى صانعها. والقرآن الكريم هو كلمة اللَّه تعالى، والصيغة المصدقة لكل رسالاته إلى البشرية، والمهيمنة عليها، وهو مفارق لبيان البشر، بما أنه من عند اللَّه، لا سبيل لهم لِأَنْ يأتوا بمثله، ولا ببعض مثله. وهو في ذات الوقت مُيسَّر للذكر، مطلوب من البشرية الوصال الجميل معه، لرسم خرائط علاقة مستبصرة بينهم وبين الخالق والمخلوقات. فلا طريق للصلاح والإصلاح في الأرض إلا بالإنابة لمنهج اللَّه، المرسوم للبشرية في القرآن الكريم، والعودة بالحياة كلها إليه، فهي من صنع اللَّه، لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنعه ﷻ.

ومن أهم معالم تلك العلاقة بين الخالق والإنسان والمنهج الإلهي: الانضباط بسنن إلهية كونية لا تتبدل ولا تتغير، وتمثل بالتالي ثوابت للعمران الإنساني، وبأوامر تكليفية، جوهرها هو: دعوة الإنسان إلى الحركة المتناغمة مع هذه السنن، والاجتهاد في التعرف عليها. ومن هذا المَعْلم الأمّ ينفتح الطريق أمام الذات الإنسانية الفردية والجماعية، للوعي بالطابع المفارق الواصل لمنظومة علاقاتها، فهي مخلوقة، ولا سبيل أمامها لِأَنْ تصير مُنشئة فاطرة خالقة. ومقامها الصحيح هو: العبودية والتبعية في علاقتها مع اللَّه ومع منهجه، وهي متساوية مع غيرها من الكائنات، في كونها جميعًا من خلق اللَّه، وهي مغايرة لها، من مقام تكريم اللَّه للإنسان، وتسخيرها له، وهي مطالبة بالقرآن بعلاقة إحسان مع الكون كله.

ثانيًا: المعالم الفرعية للرؤية القرآنية للتنشئة الإنسانية:

ومن رحم خاصية الطابع المفارق الواصل، القائم على منهج متجاوز للإنسان، يرسم له بوصلة علاقة الإنسان مع ذاته ومع غيره، **تتولد المعالم الفرعية التالية للرؤية القرآنية للتنشئة الإنسانية:**

تحرير الإنسانية من الثنائيات المفتعلة:

لا محل في ظل تلك العلاقة لافتعال فوارق مفتعلة، نابعة من النظر إلى العلاقات الكونية من زاوية خاطئة، تُفْضي إلى القطيعة والعقوق بين الإنسان وربه، أو بين الإنسان وأخيه، أو بينه وبين المخلوقات الأخرى غير المكلفة، وعماد التحرير هنا هو الوعي بزيف المفارقة بين الالتزام بمنهج اللَّه، والإبداع الإنساني في عالم المادة. فالمنهج الإلهي هو منشئ هذا الإبداع ومُوَجهه الوجهة الصحيحة. هو بمعنى آخر: مَطيَّة تيسير الإبداع وجعله في عداد العبادة للَّه. وبالمِثل لا أساس للفصل بين صنفي القوى الطبيعية والقيم الإيمانية والزعم بأن لكل منهما مجالًا. فالقوى الطبيعية والقيم الإيمانية نوعان من السنن الإلهية لا انفصام بينهما، بل إن كلًّا منهما تتداخل مع الأخرى. فالانحراف عن القيم الإيمانية يُفضي إلى خراب العمران. والربط بين واقع الناس النفسي وواقعهم الخارجي هو من السنن الإلهية. فاللَّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ومِنْ أساسيات الابتلاء للإنسان الحرص على التوبة والإنابة واتخاذ ما يلزم من إجراءات الإصلاح لمنع الافتراق بين القيم الإيمانية والقيم الطبيعية في ضوء خبرة كافة الأمم بما فيها الأمة الإسلامية.

٢ - التنشئة المنضبطة بكُليَّات الحياة الأساسية:

يتحرك الإنسان في ظل هذه العلاقة الثلاثية، في فضاء كُليَّات أربع أساسية في الحياة، نابعة من العقيدة الإسلامية، تمثل أركان التصور الإسلامي لِمَا ينبغي أن تكون عليه المشاعر والتوجهات الإنسانية في هذه الحياة. وهذه الكليات كما حددتها فاتحة الكتاب، على مستوى أصولها وكلياتها، وبينتها بقية سور القرآن على مستوى فروعها وتفصيلاتها، هي: القراءة باسم اللَّه، والإيمان باليوم الآخر، واختصاص اللَّه تعالى بالعبادة وبالاستعانة، والمبادرة الإنسانية الحرة إلى طلب الهداية الإلهية، **على التفصيل التالي:**

أ - القراءة باسم اللَّه: لباب هذه الكلية، هو: التنشئة على بدء كل شيء بـ (بسم اللَّه الرحمن الرحيم). وهى بداية تستبطن الاستغراق في كافة معاني الرحمة، بكل مجالاتها وتجلياتها، بحيث تصير نقطة النهاية في علاقة الإنسان بالوجود، كما نقطة البدء، هي (الحمد للَّه) كأساس للتصور الإسلامي للبدايات وللمآلات.

وتتشبع الذات الإنسانية بكل مستوياتها الفردية والجماعية، عبر الإيمان بهذه الكلية العقيدية، بالإحساس بأن للكون خالقًا، وأن ذلك الخالق لا يرعى الإنسان فحسب، بل يرعى كل مخلوقاته، و يتصرف فيهم بالإصلاح والرعاية والتربية الدائمة التي لا تتوقف، وتهدم هذه الكلية العقيديةُ، الوهمَ بتعدد الأرباب المتحكمين في الحياة. فالعوالم جميعها تتوجه إلى رب واحد، ومن حق كل مخلوق أن يستحضر الرعاية الإلهية الدائمة وأن يطمئن إليها. ويفسح ذلك الطريق: للتخلص من تيه العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام، بتحرير أمر العقيدة وفق التصور القرآني على مستوى: تصور الخالق، والعلاقة بين الخالق والمخلوقات، وعلاقة المخلوقات باللَّه تعالى، وبناء التوحيد الكامل، على أساس ما جاء بالقرآن من قول فاصل في ذات اللَّه وصفاته، وفى علاقة الخالق بالعالم، وفى تحرير الضمير البشري وإعتاقه.

ووصْفُ الخالق ﷻ بأنه: (رب العالمين) يشير إلى كونه مربيًا لعوالم الغيب والشهادة بنفخ الحياة فيها، وكفالة توالدها، وتغذيتها بأسباب البقاء، كعوالم لكلٍّ منها خصائصه المميزة له، مع تساويها جميعًا رغم ذلك في استحقاق الرعاية الإلهية. والإنسان من بين هذه المخلوقات حين يعلن، بصفة الجمع، أنه يعبد اللَّه ويستعين به يحقق درجةً من التكريم وعلو القدر لذاته، بالوقوف بين يدي ربه، من جهة، ويجسد، من جهة أخرى، ما يرمز إلى وحدة قلوب أمة الإجابة وتضامن السلف، المنتهي في البدء إلى آدم وحواء - عليهم السلام - والمستمَد لهداية الفطرة والغريزة والعقل والفتح من اللَّه تعالى، والمستعين في التعرف على

الصراط المستقيم بكل ما هو صحيح من عبرة السلف الصالح التي جاء القرآن مصدقًا لها ومهيمنًا عليها [١].

ويستدعي مفهوم الرب، الرعاية الربانية للإنسان فيما يتعلق بالنواميس الكونية الحاكمة له من جهة، وتمكين فطرته في دائرة الأوامر التكليفية بالوحي، من جهة أخرى. وجوهر حظ العبد من وصف اللَّه تعالى بالربوبية هو: شكر اللَّه تعالى باستعمال نعمه فيما خُلقت له، وحسن تربية النفس، وتربية من يوكل إلى المرء تربيتُهم، والتحلي بالرحمة في معاملة كافة المخلوقات، كأساس لاستحقاق الرحمة الإلهية[٢].

وخلاصة هذه الكلية الأولى هي التأكيد في عملية التنشئة على صلة الرحمة والرعاية الدائمة كأساس للكون المسبح بحمد اللَّه، وللتوفيق الإنساني بالتسبيح معه، وبالحمد، كاستجابة فطرية لتلك الرحمة وتلك الرعاية. فالإله الرب في الإسلام مغاير لصورته في الأساطير الإغريقية وفى أسطورة برج بابل. فهو لا يطارد خصومه، ولا يحيك لهم المكائد، وإنما يشملهم بواسع رحمته ورعايته، ويحثهم على محاكاة تلك الرحمة في معاملاتهم المتبادلة، وعلى السعي إلى أن يكونوا نماذج للرحمة تسير على الأرض.

ب - **الاعتقاد بالآخرة**: تتجاوز عمليةُ التنشئة - باستحضار مضامين ومقتضيات كلية الاعتقاد بالآخرة - نقطةَ الإقرار بألوهية اللَّه تعالى ورحمته وربوبيته للعالمين إلى الاعتقاد بيوم الجزاء، بما يترتب على ذلك من تعميق للأفق الزماني والمكاني للجزاء. وتؤدي هذه الكلية إلى تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض. ويؤدي ذلك إلى عدم استبداد الضرورات الأرضية بهم، وتمكينهم من الاستعلاء عليها، وعدم القلق من إمكانية فوات عائد سعيهم فيها، بما أن هناك يومًا تقام فيه الموازين بالقسط، وينتظم فيه الجزاء وفق ما يقدره اللَّه تعالى، تعجيلًا في الدنيا، أو ادخارًا في الآخرة. وهذه الكلية بمثابة مفترق طريق بين أمرين: العبودية لتصورات الأرض وموازينها، والاستعلاء عليها بالتعلق بالقيم والموازين والتصورات الربانية. ويتولد من هذه الكلية مفهوم الإنسانية، في حقيقته العليا، المُبرأة من الصور المشوهة المنحرفة - لطبيعة الإنسان وغايته في هذه الحياة.

جـ - **اختصاص اللَّه بالعبادة والاستعانة**: تؤسس هذه الكلية لميلاد التحرر البشرى الكامل الشامل، بحصر العبادة في اللَّه تعالى، وكذا الاستعانة، مما يعني تحرير الإنسان من عبودية

---

(١) عمر بهاء الدين الأميري: في رحاب القرآن، بيروت: دار القرآن الكريم، ١٣٩٢هـ، ص ٣٨ - ٤٥، ٦٨، ٩٦.

(٢) السيد محمد رشيد رضا: تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٥م، ص ٢٩ - ٣٣.

الأوهام والنظم والأوضاع والأشخاص، وتخليص ضميره من كافة مظاهر القابلية للاستذلال. وتصير القوى الإنسانية والقوى الطبيعية من حيث موقف المسلم منها، في ضوء ذلك: قُوى متكافلة متراحمة إن هي انتظمت بالمنهج الإلهي. فالعلاقة مع الطبيعة علاقة حب متبادل وتعرف وصداقة، بما أنها هي وقوة الإنسان نابعتان من مشيئة إلهية واحدة، محكومتان بها، متناسقتان في الحركة والاتجاه. والقوى الطبيعية في ظل ذلك لا تؤذي إلا مَنْ لا يتدبرها، ومَنْ لا يتوجه معها إلى ربها وربه.

وبالمثل تنقسم القوى الإنسانية إلى نوعين: قوى مهتدية، جديرة بالمؤازرة، محررة من غضب اللَّه، ومن الضلال، متصلة باللَّه، تستمد منه – مهما قل حجمها – مفاتيحَ العزة وأسباب التمكين، وقوى ضالة تمثل الزَّبَد، مهما بدت ضخمة؛ لفقدانها الصلة باللَّه، مما يؤدي إلى نضوب مَعِيْن عزتها، ولو بعد حين. والراعي للإنسان على طول ذلك الطريق هو (رب العالمين). ويُعد قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] بمثابة وثيقة حرية لبني الإنسان. وهذه الوسيلة مفتتحة بالرحمة التي تعم كافة المخلوقات، مِنْ مَن هو مالك على الحقيقة والدوام، في مواجهة الإنسان الذي يمكن رد كل ما يمتلكه – بشكل مؤقت – إلى التراب[١].

د – **المبادرة الإنسانية**: جوهر هذه الكلية هو تأسيس الهداية الربانية للإنسان على سعيه الحر إليها. فصرحُ مفهوم الإنسانية الحرة يقوم على المبادرة الإنسانية إلى التضرع إلى اللَّه تعالى من أجل معرفة الطريق المستقيم الواصل، والتوفيق للاستقامة عليه بعد معرفته، مع الوعي بأن المعرفة والاستقامة ما هما إلا ثمرة للهداية والرعاية والرحمة الربانية[٢].

٣ – تأسيس عبادة اللَّه تعالى على الاختيار الإنساني المسؤول:

يؤكد القرآن الكريم بأساليب شتى على أن جوهر الأمانة التي تحمل بها الإنسان، وأشفقت منها السماوات والأرض، هي: العبادة للَّه تعالى، والاستعانة به عن اختيار مسؤول، ومن ثَمّ، فإن جوهر الدين هو: نفي أي سمة للإكراه فيه أو عليه أو به. ومن شأن التأكيد على هذا الجذر التأسيسي في رسم آفاق حقل التنشئة الإنسانية القرآنية استعادةُ وعي الإنسانية بمضامينه السياسية المهمة، المعينة لها في تفنيد كثير مما نسب إلى الدين على غير وجهه، في معرض تبرير الاستبداد والسكوت على الظلم عبر التاريخ. فالقرآن الكريم رسالة جامعها هو: تنشئة

(١) د. عبد الصبور شاهين: تأملات في فاتحة الكتاب، القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٩٤م، ص٢١ – ٣٨.

(٢) سيد قطب: مرجع سابق، ١/ ١٢ – ٢٦، أبو الأعلى المودودي، مبادئ الإسلام، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، د. ت، ص ٢٥ – ٢٨، ١٥٩ – ١٨٨.

الأمة الإسلامية على السعي إلى امتلاك أسباب منع الآخر من الاعتداء على حريتها الدينية من جهة، وصيانة حق الآخر المطلق في الحرية الدينية من جهة أخرى. ويمكن تجلية هذا البعد عبر إطلالة خاطفة علي السياق القرآني المتعلق بالهجرة إلى المدينة المنورة، والتوجيهات القرآنية للأمة الإسلامية بخصوص مرتكزات التعاطي مع موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية، وكلاهما يعبر بعمق عن احترام الدين البالغ لحرية الإنسان.

فلقد عضدت العناية الإلهية الكريمة سعيَ الجماعة الإسلامية الأولى إلى تأكيد حريتها الدينية عبر الهجرة إلى الحبشة، والمدينة المنورة، التي تمت بنظام محكم، كمَخرج من تعرض الدعوة للتجميد في مكة وما حولها، بالأخذ بالأسباب ضمن إحساس بهوية جماعية دفعت الأقوياء قبل المستضعفين، إلى التكافل في السعي، وإلى التمكين لحرية الدعوة وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة بكفِّ اليد. ومن بداية الأمر تمت الهجرة إلى الحبشة من جانب رجال ونساء من أشرف البيوتات، لم يكونوا من المستضعفين، وإنما كانوا من المقدمين لحرية الاعتقاد على أي أمر آخر.

وتأتي في هذا السياق، هجرة جعفر بن أبى طالب، رغم أن أباه كان يحمي النبي، وحمايته لابنه، محققة من باب أولى، كبرهان على تمحور سلوك الجماعة الإسلامية الأولى، حول تأمين حقها في حرية العقيدة بتأسيس قاعدة حرة آمنة للدعوة الجديدة. ويصبُّ في ذات المجرى سعيُ النبي ﷺ إلى الطائف، وتنطق كلماته، في تلك اللحظة، بحقيقة أن الدعوة الإسلامية لا تصادر حرية أي ذات إنسانية، فردية كانت أم جماعية. فالنبي الذي أُرسل بها يتحدث عن: ضعف قوته، وقلة حيلته، وهوانه على الناس، وعن عدو يخشى أن يتملك أمره، وعن بعيد يتجهمه. وهو ﷺ إلى جانب ذلك يقرر أن اللَّه ربه ورب المستضعفين، ولا يكترث بأية صعاب، طالما حظي برضوان اللَّه تعالى، ويوقن بأنه لا حول ولا قوة إلا باللَّه.

ومن جهة أخرى يكشف القرآن الكريم بجلاء في مواضع عديدة عن الحفاوة الإسلامية بالحرية الإنسانية، في التعاطي مع عداوات إنسانية متعددة المظاهر متوحدة الطبيعة، في خبرة نموذج السلوك الإسرائيلي، فلم يصادر اللَّه تعالى، على حرية بني إسرائيل في الاختيار بين الاستقامة على الطريقة، وبين الارتداد على الأعقاب، والتنكب عن الصراط المستقيم.

ويبين القرآن الكريم في هذا الصدد، أن علاقة اليهود مع أمة الإجابة وفي مقدمتها

أنبياؤهم هم أنفسهم، كانت على الدوام علاقة رد على الإحسان بالعقوق. وصارت تلك واحدة من سُنن طبيعتهم التي توارثتها أجيالهم. وفى مقابل تقديم أمة القرآن طوق النجاة لهم ليستعيدوا فطرتهم السوية بالتنشئة على سُنن الاستقامة الربانية، قدَّم لها اليهودُ الكيدَ كله، بذات الوسائل والأساليب، إلى حدٍّ استدعى تحذير الجماعة المسلمة من الطمع في إيمانهم بما أنهم: يحرفون كلام اللَّه عن محله، ويرفضون ما هو مصدِّقٌ لِمَا معهم، ويرغبون في رد المؤمنين إلى الكفر حسدًا من عند أنفسهم. وتتأبد فيهم هذه الخصال على مدى تاريخهم قبل الإسلام وبعده، بحيث يصيرون حربًا على الإسلام ذات حقيقة واحدة متنوعة المظاهر[١].

وفيما وصفه اللَّه تعالى بأحسن القصص، تتزود البشرية إلى قيام الساعة بتوصيف قرآني لثوابت الشخصية الإسرائيلية، ويتجاور هنا الاصطفاء من اللَّه تعالى ليوسف وأبيه، ووصله لهم نعمة الدنيا والآخرة، مع الإشارة إلى القابلية للانحراف في أول جيل نشأ من بني إسرائيل، حيث نشاهد: طعنَهم في أبيهم المعصوم، وزعمهم أنه في ضلال مبين، والغدرَ بأخيهم، والافتراءَ على من أحسن إليهم، وعدمَ اللين في القول، إلا في لحظة المسكنة. ومن سمات السلوك الإسرائيلي في قصة يوسف وإخوته: السعي إلى الاستحواذ، ورفض الشريك في أمر يتسع للأنا والآخر، من مثل حب الإنسان لأبنائه جميعًا، وانحصار الاختلاف في طريقة التخلص من الشريك، واللجوء إلى الحيلة، مع عدم الاكتراث بغضب اللَّه تعالى ولا بعقوق الوالد، وافتعال الدليل، مع التظاهر بصدقه[٢].

وبعد أن بيَّن القرآن ذلك كله، بما يستبطنه من حقيقة أن من يفعله هو بالبداهة إنسان يؤمن ويكفر بمشيئته الحرة، إذا به يوجه أمتنا بكل صرامة إلى الاعتكاف في محراب رعاية الحرية الإنسانية للبشرية في ساحة الاعتقاد الديني، بوصفه الركن المؤسس من باب أولى لحرية الإنسان في علاقته مع غيره من المخلوقات، بالرد على العقوق بالإحسان.

ومن أهم القواعد التي يرشدنا الخطاب القرآني، في ضوء سمات تعاطيه مع العقوق الإسرائيلي، إلى تأسيس عملية التنشئة، عليها في رسم أطر العلاقة مع الآخر، في ضوء خصائص تعاطيه مع الظاهرة الإسرائيلية، ونظائرها:

---

(١) للوقوف على طرف من أدلة التوجيه القرآني للرد على العقوق بالإحسان في مواجهة العقوق الإسرائيلي ونظائره، انظر: محمد على الصابوني: صفوة التفاسير، القاهرة، دار الصابوني، ١٩٨٠م، المجلد الأول، ص٥٥ – ١٠٥، وانظر: سيد قطب: مرجع سابق، ١/ ٢٩ – ٣٤.

(٢) محمد جواد مغنية: التفسير المبين، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، ١٩٨٣م، ص ٣٠٢ – ٣٠٥.

أ - حق الأمم العاقَّة في التبصرة: من حق الأمم العاقة لنفسها وللأمم الأخرى على أمة الإجابة تذكيرها بنعمة اللَّه عليها، ودعوتها للوفاء بعهد اللَّه تعالى، والتنديد بتلبيس الحق بالباطل، والنصح بقهر النفس للانصياع للحق، ومخاطبة الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوْا هذه النعم على عهد رسلهم، باعتبارهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، متحدة الجِبِلَّة، واستحضار نجاتهم، ونعم اللَّه عليهم جنبًا إلى جنب مع ما ارتكبوه من انحرافات متوالية، وتذكيرهم بالحساب يوم الدين، وتفنيد ادعائهم أنهم وحدهم الأمة المهدية التي لا يرضى اللَّه إلا عنهم، ببيان أن الفيصل الحق هو: نجاة كل من آمن وعمل صالحًا، من كافة الأمم، على مدى التاريخ.

وتأتي المعالجة القرآنية للظاهرة اليهودية، لتؤكد على الطابع المطلق لمبدأ حرية الاعتقاد، فلقد زعم اليهود أنهم شعب اللَّه المختار، ونظروا إلى دعوتهم للدخول في الإسلام على أنها إهانة واستطالة، وبات همهم الأساسي هو استشعار خطر الإسلام على بيئة استعلائهم، وعبثهم بالمجتمع المدني، الذي كانوا يزاولون فيه التجارة والربا والقيادة الفعلية، والاستعلاء الديني. ولم يتضمن النداء لبني إسرائيل أيَّ تلميح بالإكراه، بل تضمن على العكس خطابًا لذات إنسانية حرة مسؤولة، تطالَب بذكر نعمة اللَّه عليها، والوفاء بعهده والخوف منه، والإيمان بما جاء به محمد مصدقًا لما معها، ونبذ التناقض المتمثل في أمر الناس بالبر ونسيان النفس، على المستويين الفردي والجماعي[1].

ب - تحصين الذات المسلمة ضد القابلية للتغذي على أساطير الأولين: جوهر هذا التحصين هو التنشئة على الوعي بوهن دعاوى اليهود، وبيان حقيقة دوافعهم في الدس على الإسلام والمسلمين، وسعيهم بالفتنة، مع تحفيز كل جيل مسلم للجيل الذي سيخلفه، وللتناصح فيما بينهم، للتزود بأسباب الوقاية من مزالق الطريق التي عثرت بها أقدام الأمم المستخلفة من قبلهم، واستحضار التوجيهات الظاهرة والخفية للمسلمين، من مآل الانحراف الإسرائيلي عن جادة دواعي التكريم ومقتضيات العهد بحمل الأمانـة.

جـ - البحث في عبرة دور الرؤساء في انحراف الأمم: السلطة ابتلاء، يحتاج من يتولاها إلى من يعينه على الاستقامة فيها وبها. والتنشئة على الوعي بأن أشد البشر تعرضًا للخطأ هم الملأ، أيًّا كانت المرجعية التي يستندون إليها، هو جوهر عبرة نموذج العلاقة بين بني إسرائيل وأحبارهم ورهبانهم، الذين أسفر تحريفهم الكلم عن مواضعه انطلاقًا من غايات

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ١/ ٣٠ - ٣٤.

مادية إلى نسيان أمتهم حظًّا مما ذكروا به، فتبددت أسس اصطفائها، ووقعت في عبادة فريق من البشر، وفي السعي إلى تدمير أواخرها من بني البشر، بالكيد الخبيث والطرق الخفية للضلال.

ومجيء الحديث عن بني إسرائيل، في ختام قصة خلق آدم عليه السلام، والمعركة الأولى بينه وبين الشيطان، يستبطن متصلًا حضاريًّا يبدأ بالعهد الصريح، والتكريم على الملائكة، والوصية، والنسيان، والندم والتوبة، والهداية والمغفرة، بالعودة إلى مقتضيات العهد الأول كما تجسدت في سلوكيات آدم وحواء – عليهما السلام –، أو الانحراف على شاكلة السلوك الإسرائيلي، عن خبرة تلك المعركة الأولى، في الاتجاه السالب، حيث نجد أنفسنا أمام متصل إسرائيلي دركاته هي: عهد من اللَّه لهم، نكث بالعهد، جحود بنعم اللَّه عليهم، حرمانهم من الاصطفاء، كتابة الذل عليهم، إلا بحبل من اللَّه وحبل من الناس، تحذير المؤمنين من كيدهم ومن مزالقهم.

ومن أهم خصائص السياق القرآني الذي وردت فيه معالم المتصل السلوكي لآدم، والمتصل السلوكي لبني إسرائيل، التأكيد على تكريم اللَّه للإنسان، والعهد إليه بالأمانة، ونسيان الإنسان لهذا العهد، في ظل إشارات إلى: وحدة الإنسانية، ووحدة دين اللَّه ورسالاته، وتنبيه النفس البشرية إلى مقوماتها وعواقب استقامتها وانحرافها.

د – الحذر من انحراف دور رجال الدين في كل زمان ومكان: من أهم مظاهر هذا الانحراف تحول الدين إلى حرفة بدل أن يكون عقيدة دافعة. وهنا يصير المتحدثون باسم الدين أناسًا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويأوِّلون النصوص حسب أهوائهم.

وتؤدي الدعوة إلى البر، على مستوى المقال، والسلوك المغاير لها على مستوى الأفعال، إلى الشك في الدعوة ذاتها، لا في الدعاة وحدهم، وإلى فقدان الثقة في الدين ذاته، وفى هذه الحالة تصير الكلمة ميتة، بما أنها لا تنبعث من قلب مؤمن بها، حريص على المطابقة بين العقيدة والسلوك. ومفتاح التحرر من هذا الداء هو الصلة باللَّه والرياضة عليها، ومن هنا يوجهنا اللَّه إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ضمنًا في توجيهه المباشر لليهود بذلك، بما أن الصلاة هي مفتاح عدم تفضيل المصلحة الخاصة، على الاعتراف بالحق، لليقين بالرجعة إلى اللَّه وحده في كل الأمور، وهي مناط: الصبر وقوة التحمل، والتقوى والحساسية، والوزن الصحيح لقيم الدنيا والآخرة.

هـ - اللين والاستمالة كأساس للعلاقة مع أمة الدعوة: رغم رداءة طابع الشخصية اليهودية، فإن القرآن الكريم ينبهنا إلى حقهم في تذكيرهم بفضل اللَّه، كسبيل لتوليد الرغبة لديهم في العودة إلى الأخذ بأسباب التكريم، والمزاوجة بين الإطماع في الفضل والنعمة، بالتذكير بالتبعة القائمة على الإرادة والتمييز، والعهد المطلق الذي لا موضع معه لشفاعة النسب، ولا لأخذ فدية. وينصرف القرآن الكريم في خطابه لبني إسرائيل من صيغة الخطاب المباشر، إلى صيغة الغيبة لغرض التعميم، بحيث يصير مدلول الخطاب شاملًا للبشرية كلها. فالسياق يذكِّرهم بآلاء اللَّه عليهم، وردهم عليها بالجحود. وهو يَسْتَحْي فيهم صورة الكرب الذي كانوا فيه على يد فرعون، ونجاتهم من آل فرعون، ويربي فيهم الإحساس بالتعالي على الألم، بإدراك أن للامتحان عواقب مفيدة، فيما لو أُحسن الانتفاع به، باحتسابه عند اللَّه، وأخذ العبرة منه في الدنيا، واستحضار مشهد النجاة بعد مشاهد العذاب، والاستفادة من ماضي الأمة كأنه حاضر مشاهد، حيث خوطب اليهود في عهد التنزيل القرآني وكأنهم هم الذين فرق اللَّه بهم البحر، والذين اتخذوا العجل لمجرد غيبة موسى عنهم، والذين حازوا غضب اللَّه عليهم، والذين قتلوا النفس المحرمة بغير حق، مع تذكيرهم بعدها ببقاء باب التوبة مفتوحًا أمامهم، لاستمالتهم إلى السعي من جديد للتحلي بأسباب توبة اللَّه عليهم.

و - التدافع بين أنساق إنسانية جماعية: تأتي كل الشواهد السالفة الذكر على الحفاوة بحُرية أهل الكتاب، والحرص على استعادتهم لكينونتهم الحرة العابدة للَّه على بصيرة، المستقيمة على منهج اللَّه، الداعية إليه، بصيغة لا تعامل كل فرد منهم ككيان منفصل له حق الحرية كإنسان حر مسؤول، فحسب، وإنما بوصفه لبنة في صرح أمته، التي تمثل ذاتًا إنسانية حرة. فلم يرد بالقرآن الكريم أبدًا نداء يخص فردًا من أهل الكتاب باستثناء أنبيائهم. فقط يخاطبهم القرآن كذات جماعية بـ: يا بني إسرائيل، يا أهل الكتاب، ويتحدث عنهم بلفظ الجمع[1]، مؤكدًا استحقاق الذات الإنسانية الفردية والجماعية، في كل زمان ومكان، للحرية، أيًّا كانت خصائصها، بما أن تلك الحرية تتقرر بكل هذا الشمول والعمق، رغم التواء الطبيعة اليهودية التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تتسم بطبيعة العبيد الذين يستخذون تحت سياط الجلاد، ويتمردون إذا رفعت عنهم، ويصابون بالظلم والجحود والبطر عندما تتاح لهم بعض أسباب القوة والنعمة.

---

(١) وردت عبارة: يا أهل الكتاب ٢٣ مرة في القرآن الكريم، إلى جانب ورود عبارة أهل الإنجيل مرة، وعبارة بني إسرائيل ٤٢ مرة. انظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة دار الريان للتراث، ١٩٨٧م، ص٣٣، ٩٥.

وفي ظل امتداد هذه الحرية من مستوى الذات الإنسانية المنفردة، إلى رحاب حق الأمم كذوات جماعية، وإقرار أمة الإجابة الصريح بالذات الجماعية للآخر، إلى حد معاملة القرآن لتاريخ اليهود كله على أنه بمثابة وحدة واحدة، يأتي التأكيد على مبدأ التدافع كاستحقاق للحرية. فالحرية الناظمة لعلاقة الذات الإنسانية مع الوجود كله ليست خاصية تكوينية في الأفراد والأمم، بل هي تكليف، تسعى إليه، في ظل علاقة تَعرف بمنطق الحرية ذاته إمكانيةَ استقامة طرف وانحراف الطرف الآخر على نحو قد لا تقف تبعاته عليه وحده.

ولا قوام بأمر ذلك التكليف بالتالي إلا بالتدافع في مواجهة من يرفضون النهوض بمقتضيات العهـد الإلهي، ويقدمون عليه مألوفهم في العبادة والمطعم والمشرب، ويبين السياق أن من فعل ذلك يكون قد اختار الدّنية، وثمرتها: الذل والمسكنة وغضب اللَّه تعالى. وبما أن تلك الحرية حق لكل الأمم على قدم المساواة، لوحدة أصلها الإنساني، فإن من متطلبات صيانتها إذا سولت لطرف ما نفسُه السعيَ إلى فتنة طرف آخر في دينه، امتلاكَ الأمم أسباب القدرة على التدافع، المنضبط بشرع اللَّه تعالى، لأهمية القوة في مواجهة الذوات الإنسانية الجماعية التي لا تجدي معها النعم الربانية، و تصاب بآفات النفسية المفككة المتداعية، ذات الطابع التفريقي حتى داخل صفها[1].

ويتبين هنا أن أساس عدم الإكراه في الدين، هو: الرعاية المتبادلة لحق الإنسان في حرية الاعتقاد، أي رعاية حق أي ذات إنسانية في عدم الفتنة في الدين، في مقابل احترامها حرية الاعتقاد للآخر. ويأتي هنا تأكيد الحاجة إلى التدافع الإنساني بإطلاق القرآن الكريم وصف (شياطين المنافقين)،على نوعية من البشر، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

فمن معالم تكريم اللَّه للإنسان تسخيرُ كافة القيم المادية لخلافته في الأرض، فاللَّه خلق للبشرية ما في الأرض جميعًا منه، ووهب الإنسان سر المعرفة، والإرادة المستقلة التي تختار الطريق، والقدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات، والتكليف بالسعي لإبراز إرادة اللَّه في الإبداع والتحليل والتركيب والكشف عما في الأرض من قوى وطاقات، وتسخير هذا كله، بإذن اللَّه تعالى، كأسباب، في مهمة الخلافة في الأرض. وفى ظل هذا التسخير قد يوجد شرٌّ جزئي ظاهر يكمن وراءه خير أشمل، في ضوء ما يمكن تسميته: خير الحركة الهادمة البانية، المؤدية إلى الارتقاء. وتواجه هذه الحركة مجسمات للشر تتمثـل في: عصيان اللَّه،

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ١/ ٦٠ – ٧٥.

والاستكبار عن الإقرار بالفضل لأهله، والعزة بالإثم، والاستغلاق على الفهم. وتدور على الدوام معركة بين طرفين: الإنسان كحامل لأمانة الخلافة في الأرض، وإبليس وحزبه كحامل للواء الشر. ويتحدد اتجاه المعركة في ضوء واحدٍ من اثنين: استعصام الإنسان بعهده مع ربه بإرادة الخير، أو استسلام الإنسان للشهوات والوقوع في غواية الشيطان. ويرمز تحريمُ الشجرة الواحدة لحتمية وجود محظور في حياة الإنسان الأرضية، فبغير محظور لا تنبت الإرادة، ولا يتحقق اختبار صبر الإنسان على الوفاء بعهد اللَّه.

ويكشف نموذج المعركة الأولى بين الإنسان والشيطان عن: نجاح الشيطان في زحزحة آدم عليه السلام عن المحظور في بداية الأمر، وقضاءِ اللَّه تعالى بالهبوط، مع تأكيد تواصل العداء بين الخير والشر على الأرض طيلة الحياة الدنيا، وارتقاءِ آدم وحواء – عليهما السلام – من عثرتهما بالتوبة بالاستعانة بالفطرة المركوزة فيهما، مما استتبع إدراك رحمة اللَّه لهما، وتلقي آدم كلمات من ربه محفوفة بالتوبة وبشروط الاستخلاف المشروط، ومعرفة الإنسان السبيل للانتصار عن إرادة، أو الانكسار عن إرادة، وتسخير اللَّه النواميس الكونية لخلافة الإنسان في الأرض، مع فتح باب المعرفة له إن هو سعَى إلى ذلك، وحجب اللَّه أسرار الغيب عن الإنسان فيما لا جدوى من معرفته له[١].

وميدان هذه المعركة هو الإنسان نفسه، وهو الرابح أو الخاسر فيها، والخطيئة فردية، وطريق التوبة ميسرٌ ومفتوح على الدوام، والإنسان في هذا المنظور مخلوق للأرض منذ اللحظة الأولى، وخطيئة آدم عليه السلام شخصية، تحرر منها بالتوبة في نموذج يُحتذى للبشرية من بعده. والإنسان هو سيد هذه الأرض ومن أجله خلق اللَّه كل شيء فيها. ولا يستقيم بالتالي أن تكون هناك أية قيمة مادية فيها أعلى من قيمة الإنسان. ودور الإنسان في الأرض هو الدور الأساس، ولا منطق لِأَنْ تستولي وسائل الإنتاج التي هي من صنعه على ذلك الدور. والإنسان يرتبط – بخلافته في الأرض – بموجودات أنشأها اللَّه تعالى على نحو يجعلها في موقع أدوات التمكين له من القيام بدوره. ومن أهم مضامين الخلافة إعلاء القيم الأدبية في وزن الإنسان وتقديره، بحيث تصير القيم المادية خادمة لها، و بمعنى آخر، عدم طغيان القيم المادية على القيم الخلقية التي هي بمثابة الأصل[٢].

٤ – التواصل على السنن:

يركز القرآن على إقامة العلاقة بين الإنسان والكون والمنهج الإلهي المنزل، على سنن

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ١/ ٤٧ – ٥٨.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٥٩، ٦٠.

اللَّه تعالى التي لا تبديل لها ولا تحويل، معمقًا للوعي الإنساني بالطابع المؤقت لمفعول الخوارق والمعجزات،واستنادِ منطقها إلى التخويف، إلى جانب كونها وسيلة إقناع بدليل من خارج العقيدة الدينية ذاتها، ويمثل البيان القرآني لهذه الحقيقة ذروة التأكيد – مع اللبنة الخاتمة لدين اللَّه على الأرض – على الحرية الإنسانية. ومثلت الجماعة الإسلامية الأولى المتمثلة في النبي الخاتم ﷺ والصحابة تجسيدًا لهذا المسعى الرامي إلى التمكين لحرية العقيدة، بالتأسيس للتواصل مع البشر، مع كل المخلوقات، وفق السنن الثابتة، وليس بالخوارق. فجاءت بيعة العقبة ثمرةً للدعوة إلى الإسلام من جهة، والتعاقد السياسي بين الرسول ﷺ والأنصار من جهة أخرى، وتزاوج في آن واحد الاشتراط للَّه تعالى بعبادته وعدم الإشراك به، مع الاشتراط لنفس النبي بأن يمنعه الأنصار مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم في مقابل الجنة. وأخذ الأنصار الأمر بقوة، وهاجر المسلمون للمدينة تباعًا حيث وجدوا الإيثار وأرسوْا الإخاء، ليتوج الأمر بهجرة الرسول ﷺ والصديق وتشكيل منظومة المهاجرين والأنصار – رضي اللَّه عنهم –، ومجتمع المدينة المكرِّس لحرية الأديان[1].

٥ – الطابع الجماعي للعلاقة الإنسانية:

يستبطن السياق القرآني من بدايته إلى نهايته، التأسيس للحرية الإنسانية، من خلال النظر للإنسان، على نحو يجعله مشبعًا بالبعد الجماعي، حتى لو كانت العلاقة على مستوى أفراد. ومن بين الشواهد الدالة على ذلك، أن الآيات التي افتُتِحَ بها كتاب اللَّه تعالى، عقب الفاتحة مباشرة، اتخذت من موقف ثلاث نوعيات من البشر من القرآن – بوصفه الكتاب المهيمن المجسد لمنهج اللَّه تعالى – مدخلًا لرسم خريطة سمات ثلاث ذوات إنسانية جماعية، ناظم كل منها على التوالي هو: التقوى، والكفر والنفاق. واحتفت بحرية الإنسان بكل قوة، بدليل عدم النص على أي عقاب دنيوي للكفار والمنافقين بشكل مباشر، والاكتفاء بالتصريح باستهزاء اللَّه بهم، والرد علي دعاواهم بحق أنفسهم وغيرهم، والإملاء لهم، والإشارة إلى أنهم غير مؤهلين للاستفادة من الهَدْي القرآني.

وتبدأ سورة البقرة ببيان سمات المتقين الذين يُعتبر القرآنُ هدًى لهم، بأفعال تتمثل في: الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم اللَّه، والإيمان بما أُنزل على محمد ﷺ وما أُنزل من قبله، واليقين بالآخرة. وعلى الفور يرد وصف مباشر للكفار، نلمح فيه عدم

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ١/ ٢٨ – ٣٠، للتعرف على تفصيلات محصلة تفاعل البشرية مع المعجزات ص٣١٤، لقراءة الخلاصة القرآنية المصرح بها في الآية ٥٩ من سورة الإسراء، وراجع: محمد فؤاد عبد الباقي: مرجع سابق، ص١٠٢ – ١٠٨.

جدوى الإنذار النبوي، في مواجهة الكفر كمتصل علاقي بين الرافضين للمنهج الإلهي من بني البشر، الذين تتوفر فيهم خصائص أربع: الإصرار على الرفض مهما كان الدليل، الختم، الغشاوة، العذاب العظيم. وإلى جانب هؤلاء يأتي بيان مفصل عن طائفة المنافقين، التي تشمل من أرغمتهم الظروف على التظاهر بالإسلام، مع عدم تخليص أنفسهم من الترفع على غيرهم. ونطالع وصف هؤلاء لغيرهم بالسفاهـة على طريقـة العلية المتكبرين، مع ادعاء أنهم مصلحون، رغم أنهم في حقيقتهم مفسدون بلا شعور منهم، سفهاء بلا علم، مرضى قلوب، مستهزئون، متمسكون بمعية شياطينهم. فالعقيدة مجال لا موضع فيه للإكراه، والقطع بحقيقة موقف الإنسان منها، فوق طاقة البشر، ويلزم رده إلى اللَّه، والحكم في علاقاتهم بالظاهر وحده.

والعلاقات الإنسانية في هذا المنظور القرآني جماعية بالضرورة. فالقرآن لا يتحدث عن تقيٍّ فرد، وإنما عن (المتقين)، كوحدة شعورية إيجابية جماعية فعالة، تتحلى بالقيم الأساسية في حياة البشرية، المتمثلة في: الإيمان بالغيب (فلا تحول حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم وبارئها، وبما وراء الحس من الإحساس بالكون وما وراءه)، وصيانة الطاقة الفكرية (المحدودة المجال من تبديدها فيما لم تُخلق له، وتكريسها للقيام بمهام الخلافة في الأرض، وفي محاولة إدراك ما وراء الواقع من معين الوحي، لا من معين العقل المحدود بحدود هذه الأرض). والمنطق الكامن وراء ذلك هو: كون المحدود لا يدرك المطلقَ، وبالتالي، فإن من المحال إدراك الإنسان للمطلق. ولا ينفي عدمُ إدراك الإنسان للمطلق وجودَ ذلك المطلق، فمن سمات المتقين احترام منطق العقل ودوره، ومن سماتهم أيضًا التوجه بالعبادة للَّه وحده، والارتقاء بها عن أن تكون عبادة للعباد أو للأشياء، فمقام العبادة هو وصل القلب الدائم باللَّه تعالى، ويتجسد الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة في مظاهر خارجية، على رأسها: الإنفاق من رزق اللَّه تعالى، لغرس قيم البر، وتعزيز الآصرة الإنسانية، والتحرر من الشح، والدخول في السلم كافة، واليقين بالآخرة.

والهدى من حيث حقيقته وطبيعته وماهيته، قصرٌ على المتقين الذين يأتون إلى القرآن بقلب سليم، وهو مفهوم يمتلئ بالإرادة والحرية. فالتقوى في جوهرها هي بمثابة التشمير والاجتهاد على شاكلة من يسلك طريقًا به أشواك، من أنماطها: أشواك الشهوات، والمطامع، والهواجس، والمخاوف، والرجاء الكاذب، والخوف الكاذب.

وفي مقابل ذلك يرتبط النفاق بغياب النوافذ المفتوحة، وانقطاع الوشائج الموصولة، مما يجعل الإنذار وعدم الإنذار سواء في نتيجته. ويتكون النفاق كصورة في الحس، من معالمها: خداع النفس، بادعاء الإيمان على عكس الحقيقة، والغفلة المستدعية لعدم

الإحساس بخداع النفس، والظن بأنهم يُحْيُون أنفسهم مع أنهم يهلكونها بالكفر المضمر والنفاق الظاهر، ويزيدون قلوبهم مرضًا، بما أن المرض ينشئ المرض، لدى من يجمع بين السفه والادعاء الكاذب والخداع، وتختل الموازين في يده، ويتطاول ويتعالى على غيره، ويرتبط بشياطينه الذين يعتبرون المكر السيئ براعةً واللؤم قوةً.

ويكشف التكثيف في الخطاب القرآني عن النفس المريضة الملتوية المعقدة القلقة في مقابل النفس الصافية المستقيمة، والنفس المعتمة السادرة في كفرها، على خطورة دور المنافقين في مسيرة الإنسان ومدى الحاجة إلى تدارك سلبيات موقفهم على الأمة، مع ترك أمر سريرتهم للَّه تعالى، ومحاسبتهم على ظاهر قولهم وفعلهم فحسب، بما يستبطنه ذلك من دلالات على صعيد صيانة حريتهم وكرامتهم الإنسانية. وتركز الأمثال المضروبة للمنافقين على بيان مداخل الإصابة بالنفاق، وفي مقدمتها: تعطيل الحواس الإنسانية عن الانتفاع بالهدى والنور. فمن عطّل أذنه فهو أصم، ومن عطّل لسانه فهو أبكم، ومن عطّل بصره فهو أعمى. والعيش في حالة التيه والتأرجح هو عاقبة ذلك التعطيل.

ومن أهم الآثار الهدَّامة لنمط المنافقين التي نبه إليها القرآن الكريم: نقض عهد اللَّه من بعد ميثاقه، والذي يشمل: عهد الفطرة المركوز في كل إنسان بأن يعرف خالقه ويتوجه إليه بالعبادة، وعهد الاستخلاف في الأرض المتضمن في كافة الرسالات التوحيدية، وعهود صلة ما أمر اللَّه به أن يوصل، على صعيد العقيدة والرحم والإنسانية والكون كله، والعهد بالبعد عن الفساد في الأرض الذي تنبع أنواعه جميعًا من: الفسوق عن كلمة اللَّه، بالانحراف عن منهجه الذي اختاره لتصريف حياة البشر، وقطع ما أمر اللَّه به أن يوصل، والثمرة التي تتولد عن ذلك هي: الفساد في الأرض بعد إصلاحها، وبالتالي فإن من أساسيات الوقاية من النفاق تحاشي تعطيل تلك الحواس، بوصفها قنوات للبصيرة والحرية التوحيدية.

وفي المقابل، تأتي سمات المتقين في سياقٍ يركز على يُسْر حياة البشر على الأرض التي أعدها اللَّه لهم، كأنها فراش، في رحاب الخالق الواحد، في كون واحـد متناسق صديق للحياة وللإنسان، محرر من تعليق الرجاء بغير اللَّه في أي صورة، ومن الخوف من غيره، ومن الاعتقاد بأن غيره تعالى بيده أي نفع أو ضرر.

وكما أن ثمار الجنة تتشابه من حيث الظاهر في الاسم أو الشكل، وتتنوع في جوهرها، فإن البشر يختلفون، رغم تشابه تكوينهم الجسماني، من حيث السمات والطباع والاستعدادات، في ضوء موقفهم من العبودية للَّه تعالى. والبشر في الدنيا موضع ابتلاء واحد، إلا أن اختلاف

الأنفس المتلقية له يؤدي إلى اختلاف المآل. فالشدة تزيد المؤمن خشية، والرخاء يزيده شكرًا، في حين تزلزل الشدة المنافق، ويصيبه الرخاء بالبطر[١]

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

العلاقة المسؤولة

ترتكز المسئولية في المنظور القرآني كخاصية للعلاقة بين الإنسان وكل ما في الكون على الكرامة الإنسانية من زوايا ثلاث: العصمة، والعزة، والاستحقاق. فلكل إنسان قدسية في منظور الإسلام، حتى في مواجهة نفسه. ومدار المسئولية هنا هو: تنظيم العلاقة بين الغرائز المرتبطة بالطبيعة القاهرة التي لا يتمتع الإنسان بالحرية في مواجهتها، وبين الإرادة كمجال للإبداع الإنساني الحر المستقل، الذي يشمل أيضًا تنظيم الغرائز وإزاحة أبعادها السلبية.

و بمعنى آخر فإن فضاء التنشئة على المسئولية هو: بيان كيفية السعي الإنساني في الدائرة الرمادية التي يلتقي فيها عمل الغريزة وعمل الإرادة. ويعترف الإسلام بسلطان النزعات التي فطر اللَّه الإنسان عليها عند حدٍّ معين إيجابي بطبيعته، ثم يترك المجال للسعي الإنساني القائم على العزيمة والهمة. ومعنى ذلك: أن العلاقة التي يتم ترتيبها هنا هي: البحث عن نقطة التوفيق والالتقاء بين عاملين: الفطرة، والاكتساب الإنساني، من خلال منهج لتربية الإرادة، على نحو يكفل الارتقاء على طريق الكدح إلى اللَّه تعالى حتى يلاقيه الإنسان[٢].

ومفتاح تحقيق ذلك هو: التربية على كظم الغيظ. فظاهرة الغضب ظاهرة فطرية، لها جانبان: انفعال نفسي، وسلوك لاحق مترتب على ذلك كالجهر بالقول، والبطش باليد، ويُسلِّم المنظور القرآني بحق الإنسان في الانفعال حين يتوفر داعٍ له، ويركز فحسب على ترشيد، وتنظيم اللواحق التي تترتب على هذا الانفعال ويحاسب عليها وحدها. بلغة أخرى، لا يحظر الإسلام تفريغ الشحنة الانفعالية، وإنما يحدد اتجاه تفريغها. ومن الأساليب النبوية المبيِّنة للطريق القويم لتفريغ الشحنة الغضبية: الاستعاذة باللَّه من الشيطان الرجيم، وتغيير وضعية الإنسان من المشي إلى الوقوف، ومنه إلى القعود، أو الاضجاع عند الغضب.

ويسلِّم هذا المنظور بالبواعث الفطرية للحب والبغض، ويسعى فحسب إلى ترشيد آثارها الإرادية التي هي من صنع الإنسان، فيحظر الظلم حتى في مواجهة من نبغضه، على أساس أن

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ١/ ٣٥ – ٣٧.

(٢) د. محمد عبد اللَّه دراز: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، الكويت: دار القلم، ١٩٩٤م، ص١٨ – ٣٣.

هذا يتم باختيار الإنسان. ولا جناح على المرء أن يحزن، فقط يُدعى إلى ترشيد حزنه بالبعد عن قول ما يغضب اللَّه تعالى. فالعين تدمع والقلب يحزن، أما اللسان فلا ينطق إلا بما يرضي اللَّه. وغريزة التشهي والتمني مُزَينة ومسلَّمٌ بها، وهي في ذاتها مستعصية على إغفالها لتعزيز كرامة الإنسان وحريته، بما أنها تحفزه على طلب ما يحتاج إليه من مقومات الحياة. كل ما في الأمر أن الإسلام يوجه الأفراد والجماعات والأمم إلى ترشيد آثار تلك الغريزة، ليس بتوقيف آثارها أو تحجيمها، وإنما بتحويل اتجاهها صوب ما يرضي اللَّه ورسوله.

خلاصة القول، أن بوصلة التأسيس القرآني لتنشئة الذات الإنسانية المسؤولة هي: تأكيد حرية الاختيار الإنساني، مع التربية على تحويل الوجهة من اتجاه العصيان والغضب الإلهي، إلى اتجاه الذين أنعم اللَّه عليهم، بمعنى آخر، ترتكز المسئولية على استبدال الذات الإنسانية هدفًا معينًا، بهدفٍ أسمَى منه، يعوضها عنه، ويحقق لها ما هو أسمى مما كان يستطيع تحقيقه. فالإسلام لا يصادر رغبات الإنسان، وإنما يبين سبيل إشباعها بأسلوب يرضاه اللَّه ورسوله، تنصرف فيه الهمة الإنسانية عن محقرات الأمور، لتتوجه إلى معاليها، ويستخدم الإنسان في التعامل معها ما يشبه جهاز تحريك الآلة، الذي لا غنى فيه عن مفتاح للتحريك ودفة للتوجيه، وفرملة لتوقيف دوران العجلات عند اللزوم مع عدم توقف المحرك عن العمل. وتتمثل الدفة التي زود اللَّه الإنسان بها، للاستفادة من الوحي الإلهي، ومن السنن المبثوثة في الكون، ولتوجيه سعيه على الأرض، في: العقل، الذي هو بمثابة عقال معنوي، وقيد أدبي جامع، وجالب للمصلحة، ودافع إليها، يقيد به الإنسان حركته عن الشر، ويضبط به حصيلة معارفه وعلومه، بحيث تتوجه في اتجاه البناء لا الهدم.

ولا صلة لمفهوم الإحساس بالمسئولية وفق التحديد السالف، بفكرة وضع الإنسان في موقف المتهم القلق الخائف، أو في موقف المترقب للحرمان الأدبي. فهذا المفهوم لا يحوم حول هذه المعاني إلا بشكل عارض عند توفر بعض الملابسات، وفى بعض أطوار الفعل الإنساني.

ولبيان المعنى سالف الذكر بشيء من التفصيل، تجدر الإشارة إلى أن المسئولية بمثابة متصل سياسي يلازم صاحبه في فضاء زمني له: بداية (حين يطالَب بالقيام بواجب معين)، ونهاية (حين يقدم حسابه عن مدى قيامه بما طُلب منه). وبين البداية والنهاية يوجد طريق يتحدد طوره بالمدى الزمني المقرر لإنجاز المهمة[1].

(١) محمد عبد اللَّه دراز: دراسات إسلامية...، مرجع سابق، ص٤٦ – ٥٤.

وتأسيسًا على ذلك تمر عملية المسئولية بمراحل ثلاث: نداء للسعي إلى واجب، إجابة للنداء، محاسبة وتقدير لقيمة الاستجابة. ولا بأس هنا من شيءٍ من التفصيل لهذه المراحل، على النحو التالي:

أولًا: مرحلة مطالبة الواجب للذات الإنسانية بالعمل:

لا تنشأ هذه المطالبة إلا في مواجهة ذات إنسانية مُستطيعة، تبعث هي فيها تلك المطالبة ذاتها، الشعورَ بأمرين: القدرة على الفعل، والإرادة ذات اليد العليا بشأنه. وليس في العوالم المشاهدَة في الكون مسؤول عن حاله، فضلًا عن حال غيره، فيما بين المخلوقات، غيرُ الإنسان. فكل العوالم المشاهدَة الأخرى مسخرة ومفطورة على طريقة معينة، هي مُسيَّرة فيها مُيسَّرة لفعل الإنسان بها. وليس من المنطق في شيء في ضوء وضعيتها هذه أن تطالَب بسلوك سبيل لا موضع أمامها إلا أن تسير فيها. وحده الإنسان الذي يُحمل بالتزام أدبي.

وفي عمق هذا الالتزام، وفي دلالاته، استقلال شخصية الذات الإنسانية كأحد شروط توجيه الخطاب لها على التخيير. ومن مضامين ذلك من المنظور السياسي أن تلك الذات الإنسانية تتمتع بإمكانيات متعددة، وتتوفر أمامها مسالك متعددة للفعل، ولديها قدرة على التفكير والترجيح والتروي للاختيار من بين البدائل المتاحة أمامها في ضوء معطيات الموقف الذي تتعاطى معه، وتتمتع أيضًا بالقدرة على العزم، وعلى تنفيذ ما تنعقد عليه عزيمتها. فتلك هي شروط اعتبار الإنسان كائنًا عابدًا مسؤولًا. وتندرج كل هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فالمتأهل لحمل هذه الأمانة هو الإنسان، بوصفه المخلوق المُجَهَّز بإمكانات يستطيع أن يصرفها باختياره في استقامة أو في انحراف، المؤهَّل بقُوى الفهم والخطاب والحرية والبيان. فالإنسان المسئول يقتصر على: العاقل، القادر، المُريد لحمل الأمانة. لذا كان ختام الآية غير شامل لمطلق مفهوم الإنسان، بل مقتصرًا على ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

ومعنى ذلك، أن الشعور بالمسئولية هو بمثابة خاصية مستمدة من الفطرة الإنسانية، قبل أن يتلقاها الإنسان من الشرائع والقوانين. هي صفة لازمة للإنسان كمخلوق حر مكرَّم له هوية جامعة بالضرورة، مزود بنوعين من الشعور، هما عنوان إنسانيته: الشعور بالاستقلال والكرامة والفضيلة، والشعور بالقدرة على تغيير معالم الأشياء. والإنسان بوضعيته هذه،

سيد ومَسُود في آن واحد. هو سيد بما أن له ميدانًا يملك فيه حريته، وتتقرر فيه مسؤوليته، في التعامل الحر مع الكائنات الأخرى. وهو مسود في عوالم المادة والحياة، كجزء من العمارة الكونية، خاضع لنواميسها، ليس أمامه من سبيل للنفاذ من أقطار السماوات والأرض، ولا للتحرر من فطرته، شأنه شأن كل ذي كبد رطب. وهو بهذا مُسَيَّر في أمور، مُخَيَّر في أمور أخرى، فضاؤها هو: تزكية النفس وعمارة الأرض، عبر بوابة: عبادة اللَّه تعالى عن اختيار.

ومن رحم هذا التأسيس لمفهوم المسئولية الإنسانية في القرآن تتحقق كرامة الإنسان، حيث تتأكد حقيقة احتياج الكون كله، إلى الإنسان، كواحدة من نعم اللَّه عليه، فسائر القيم الحميدة، وفى مقدمتها التوحيد والعدل والبر والرحمة والعمران تحتاج إلى فعل الإنسان، ليس كفرد، وإنما كعضو في بنية ذات إنسانية متكافلة، يساهم في ضوئها كل إنسان بقدر استطاعته، في التسبيح المشترك، في عملية عمارة الكون بالصلاح وبالإصلاح.

وفى ضوء ذلك، لا تتوجه الكائنات الأخرى إلى الإنسان بأُصبع الاتهام والمحاسبة بالأساس، وإنما تتوجه إليه من منطلق الأمل فيه كمصدر لأمل كوني عالمي حر. والمسئولية بذلك ليست خطاب تخويف، وإنما هي خطاب تكليف، يُفضي القيام به على وجهه إلى التشريف. فلا يُكلف بحمل العبء إلا من هو أهلٌ لذلك[1].

وفى ضوء ذلك، تتجلى مضامين قول اللَّه تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]. فالإنسان مسؤول، مرجو الخير، مدعوٌ للبناء، قيامًا بمتطلبات القيم الدينية والأخلاقية، والمصالح الأدبية والمادية. ومطالبه الحياتية الأساسية ثلاثة: الأمن، والصحة، والقوت. فالإنسان إن بات آمنًا في سربه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حاز الدنيا بحذافيرها. وكل ما عدا ذلك هو من قبيل التكميلي الذي يمكن الحياة بدونه.

ويتصدر الأمن بهذا التحديد هرم مفهوم المسئولية الإنسانية. ويختلف مقتضى تلك المسئولية حسب النقطة التي يوجد عندها الإنسان على متصلها. فالمسئولية في مرحلة ما قبل قيام الإنسان بالعمل، تنظر إلى المستقبل، وهي بمثابة تكليف يستبطن نوعًا من التكريم للإنسان، ويتحدد بحدود استطاعته. أما المسئولية في مرحلة ما بعد القيام بالعمل، فجوهرها هو المحاسبة على نوعية الأداء والإتقان. وبين هاتين النقطتين يتصرف الإنسان

(١) محمد عبد اللَّه دراز: دراسات إسلامية...، مرجع سابق، ص٥٦ – ٦٩.

تصرف الحر المُريد، الممتلك لإمكانيات حيازة مقاليد التصرف في الأشياء، بقوى ظاهرة وباطنة منحه اللَّه إياها.

وخلاصة القول، أن المسئولية لا تتلبس بمفهوم المحاسبة والاستجواب في مرحلة ما قبل العمل، ولا أثناء العمل. فالعنوان الرئيس لها في هاتين المرحلتين، هو: الحرية والاختيار. وبعد العمل، تتأسس المساءلة على الحرية والقدرة أثناء الفعل ذاته.

وتتفاوت مراتب المسئولية حسب مدى اتساع مجال النشاط المطلوب، ومدى جسامة المصالح التي يناط بالمرء رعايتها. وتأخذ المسئولية شكل الدوائر المتداخلة المتحدة المركز، حيث يصير الكلُّ راعيًا، ومسؤولًا عن رعيته.

ثانيًا: فضاء المسؤولية:

يشتمل هذا الفضاء على نوعين من المسؤولية: داخلية تتعلق بفعل الإنسان تجاه نفسه وغيره بشكل مباشر، وخارجية تتعلق بآثار فعل الإنسان في المجتمع. فالإنسان مسئول عن نفسه، بوصف جوارحه رعايا له. وأول ما يُسأل عنه: عمرُه فيم أفنـاه، وعلمُه ماذا عمل فيه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وجسمه فيم أبلاه. أمَّا مسؤولياته الخارجية فمدارها هو: حقوق دوائر المسئولية تجاه الغير، والتي تزيد وتنقص حسب مكانة الإنسان وقدرته.

وإلى جانب المسؤوليات الداخلية والخارجية، التي يُسأل الإنسان عنها في شأن عمله تجاه نفسه وتجاه غيره، هناك حالات ثلاث يُحاسب فيها على عمل غيره، وهي: حالة تسببه في عمل الغير بالأمر أو الإيحاء بما يؤسس لمشاطرته لهم في العاقبة، وحالة التسبب في فعل الغير من مدخل العدوى والأسوة الحسنة والسيئة، والتسبب في فعل الغير بالسكوت عنه. وفي هذه الحالات الثلاث يتكافأ الثواب والعقاب للفاعل والمتسبب. وهذا هو جوهر مفهوم المسئولية الإنسانية الجماعية.

ثالثًا: التغيير بالقلب:

حدد الإسلام آليات ثلاث لمقاومة الفساد: تنحية الفساد باليد من جانب من تتوفر لديه وسائل السلطان الكفيلة بذلك، وباللسان من جانب الدعاة إلى الخير وأهل التغيير باللسان من العلماء، وبالقلب كمهمة أساسية لعامة بني الإنسان.

وقد لا نحتاج إلى التفصيل فيما يتعلق بدور التغيير باليد وباللسان، في عملية تنشئة الأفراد والجماعات والأمم. أما مسألة اعتبار التغيير بالقلب، فيلزم تسليط الضوء على محوريتها كفضاء لدور سياسي شديد الارتباط بالتنشئة، يستحيل تصور عجز أية ذات إنسانية مسؤولة

عن القيام به، بما يجعله في مقام فرض العين على الأفراد والجماعات والأمم، ويتعين، بالتالي، إزاحة أخطاء شائعة في فهمه، حجبت المضمون الحقيقي له كآلية للتغير. فمفهوم (تغيير المنكر بالقلب) لا يقف عند حد كراهية الإنسان للشر فيما بينه وبين نفسه، دون أن تبدو عليه آثار سلوكية خارجية كاشفة عن وجود تلك الكراهية في قلبه. فالإنكار بالقلب المجرد عن أي مظهر إيجابي أو سلبي كاشف عن هذا الإنكار لا يسمى تغييرًا للمنكر، بل هو بمثابة: إقرار سكوتي له. والوقوف بالمفهوم عند هذا المعنى باب أساسي للنفاق ولتحريف مقاصد الشريعة. فالإنكار مع بقاء البشاشة والمجاملة والمعاملة العادية مع من يأتي المنكر لا يمكن بحال أن يكون مدخلًا للتغيير.

والتغيير بالقلب، تأسيسًا على ما سبق، هو: المقاومة السلبية الأدبية من جانب غير المخوَّلين بصلاحيات التغيير باليد وباللسان، في اتجاه معزز لمن يغيرون بهذه الوسائل. وهذه المقاومة السلبية لا تعني الإهانة ولا التسفيه ولا العنف، وإنما إشعار المسيء بأنه محروم من الدفء الاجتماعي الذي تعوده، على نحو يجعله يشعر بالوحشة، التي تدفعه إلى التغيير، على غرار سلوك مجتمع المدينة بريادة رسول اللَّه ﷺ، تجاه الذين تخلفوا عن الجهاد بلا عذر مع التزام الصدق.

وعملية التغيير هذه ليست فردية، وإنما ينبغي التنشئة على جعلها بمثابة فطرة ثانية للجماعة المسلمة تجعلها تتحاشى مواقف المجاملة الكاذبة في مواجهة المفسدين في الأرض. ويمكن في هذا الصدد أن تشكل الذوات الإنسانية بكل مستويات أنساقها، جماعات للتغيير بالقلب، عدتها الأساسية هي الصدق في النصيحة والمصابرة بالحق، كأساس لإثارة الدافعية إلى التغيير في نفوس من يحيدون عن الجادة.

ومن شأن هذه الأساليب التغييرية، أن يتربى داخل الإنسان إحساسٌ بالمسئولية يلازمه قبل العمل، وأثناء العمل، وبعد العمل. ويترتب على هذا الشعور الإحساس بالحاجة إلى استشراف المستقبل، ومعرفة موضوع الأسئلة التي يناط بالإنسان الإجابة عنها، والتي ستكون نوعية الإجابة عنها هي المحدد الأهم لمصير الإنسان، كما يحتاج الإنسان إلى معرفة أنسب الأساليب والضوابط الكفيلة بإجادة فعل ما يرضاه اللَّه تعالى.

رابعًا: الأسئلة الأَوْلى بالفهم:

الإنسان بوصفه كائنًا عابدًا حرًّا مسؤولًا، يجب أن يكون شاغله الأول في عملية تنشئته على المستوى الفردي والجمعي هو تحديد: مجال السؤال، ووجهة المحاسبة، وأنواع

المسؤوليات وحدودها ودرجاتها وأدواتها، والهَدي القرآني للإنسان على طريق الإجابة على تلك الأسئلة. وفيما يلي إشارة خاطفة للخطوط العريضة التي يمكن الاسترشاد بها في هذا الصدد:

١ - فضاء السؤال:

سيُسأل الإنسان، في المنظور القرآني عن نوعين من الأعمال: أعماله المباشرة، وتوابعها وآثارها في فعل الغير. ولابد من التأكيد مرة أخرى هنا على أن محل السؤال ليس مجرد الإنكار، وإنما الفعل القلبي المؤدي إلى التغيير. فالقرآن والسنة معًا يوجهان إلى بذل الجهد في اتجاه التغيير، لا في اتجاه مجرد الإنكار. آية ذلك أن النبي ﷺ لم يأمر في مواجهة المنكر بإنكار المنكر بالقلب، وإنما أمر بتغييره بالقلب. والقرآن بدوره يؤكد في مواضع كثيرة على أن كراهية المنكر بالقلب دون بذل الجهد المستطاع للقيام بإجراء إيجابي أو سلبي يؤدي إلى التغيير، هو بمثابة مشاركة في المنكر.

وتكفي الإشارة هنا إلى قولـه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]. فالآيات تنص بصراحة على التسوية بين المستهزئ والساكت، ولا تقبل بأقل من الإعراض عنه وهجر مجلسه، كسلوك ظاهر كاشف.

٢ - القائم بالمحاسبة:

توزعت الرؤى الإنسانية على اتجاهات ثلاثة في تحديد القائم بالمحاسبة. فثمة مَن تبنوْا نزعة روحية صوفية تركز على تربية الشعور الديني، وتجعل المسئولية أمام اللَّه وحده. وثمة مَن تبنوْا نزعة أخلاقية تعتبر الإنسان مسؤولًا أمام نفسه فحسب، وتركز بالتالي على تربية ضميره الفردي. وثمة مَن تبنوْا النزعة الاجتماعية، مركزين على تربية الشعور الاجتماعي لدى الفرد، قائلين بأن المسئولية تنحصر في المسئولية أمام الأمة.

أما الإسلام فيتبنى موقفًا فريدًا في تحديد القائم بالمحاسبة، حيث وضع الإنسان أمام سلطة ثلاثية جامعة لكل هذه الروافد، تجعله يتصور نفسه في: نقطة مركزية تحيط به ثلاث دوائر متدرجة في الاتساع، يَخْرج مِن كل منها رقيبٌ عليه. فالإنسان يواجه: محكمة الضمير في قلبه، ومحكمة البشر من حوله، ومحكمة الذي يعلم السر وأخفى من فوقه. ولكلٍّ

مِن هذه المحاكم الثلاث أمانة، سيحاسب الإنسان عليها. وهذه السلطة الثلاثية متضمنة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]. فالأمر بعدم الخيانة للّه يؤسس للمسئولية الدينية، والأمر بعدم الخيانة للرسول يؤسس للمسئولية أمام الناس، والأمر بعدم خيانة الأمانات يؤسس للمسئولية الأخلاقية أمام الضمير.

وبالمثل يتضمن قول اللّه تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، إشارة إلى تلك المحاكم الثلاث. ففي قوله تعالى « فَسَيَرَى اللّهُ » إشارة إلى المحاسبة الإلهية. في حين تشير رؤية الرسول والمؤمنين لعمل الأمة إلى المحاسبة الإنسانية، ويشير ختام الآية إلى محكمة الضمير التي تظل لها الصدارة حتى في يوم العرض الأكبر، في ضوء قوله تعالى ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء: ١٤].

ولا تتوقف إمكانية الرشد في القيام بالمسئولية على مجرد العلم بأركانها ومقوماتها وشروطها وأساليب تفعيلها، بل يتعين إلى جانب ذلك التربية على المسؤولية، والتهذيب على طريقها. فالعلم بالمسئولية مجرد وسيلة، فيما لو قيس بالتربية عليها، التي تقصد لذاتها. وثمة وسائل للتحفيز على إرادة تحمل المسؤولية، أدناها مقامًا: الترغيب والترهيب بأسلوب المكافأة والعقوبة الحسية. فاللجوء إلى هاتين الوسيلتين هو أحط أنواع التنشئة؛ لأنه يرتبط بعوامل خارجية، وليس بتعزيز الباعث النفسي الداخلي على تحمل المسؤولية، مما يجعلهما بمثابة تعزيز لغريزة الخوف واللذة المادية الأقرب إلى البعد الحيواني منها إلى تزكية النفس والتحلي بالقيم الإنسانية.

وقد يلتبس الأمر أحيانًا في هذا الصدد، في ضوء ورود نماذج كثيرة في القرآن الكريم، للترغيب في الجنة ونعيمها، والتخويف من النار وعذابها. إلا أن التدقيق في النسق القرآني للتربية على المسؤولية، يوضح بجلاء أن استخدام تلك الأساليب، لا يصبُّ في المدلولات المادية، بقدر ما يصب في وعاء الوسائل المعنوية الارتقائية. ومن الشواهد على ذلك، أن القرآن الكريم لا يلوِّح بجزاء أو عقوبة عاجلة مواكبة للفعل، وإنما يزكي البعد الداخلي النفسي في الإنسان بثواب وعقاب أخروي، يستبطن في جوهره الإيمان بالغيب، وباليوم الآخر.

وعلاوة على ذلك، فإن القرآن الكريم يربي المسلم على عدم النظر إلى نعيم الجنة

كمقصود بحد ذاته، لمجرد قيمته المادية، وإنما كدليل معنوي على رضا اللَّه تعالى بوصفه المطلوب لذاته، ويعتبر الخضوع للرغبة والرهبة علامة عدم استواء في الطبيعة الإنسانية.

من ثَمَّ، فإن من أهم الوسائل القرآنية للتربية على المسؤولية، التربية بالوسائل الأدبية الوجدانية المغيرة لما بالنفس في اتجاه مرضاة اللَّه تعالى. ومنافذ تحقيق ذلك ثلاثة هي: تربية الوجدان الأخلاقي، وتربية الوجدان الاجتماعي، وتربية الوجدان الأدبي. ولا يخفى أن كل نوع من هذه الأنواع يُعد بمثابة إعداد للإنسان للتزكيـة أمام واحدة من المحاكم الثلاث: محكمة الضمير، والرؤية البشرية، والحكم الإلهي.

ومن بين الأساليب القرآنية لتربية الوجدان الخلقي: التنفير من الغيبة والنميمة واللمز والتجسس، والنهي عن الكبر والخيلاء، والتحذير من التسرع في الحكم على الآخرين، والتربية على النفور مما يترتب عليه تأنيب الضمير، والحض على الطهارة، والتحريض على تجاوز الرد على السيئة بالحسنى، إلى مقام الرد عليها بما هو أحسن الحسنات.

ومن أساليب تربية الوجدان الاجتماعي، المتجذر في الشعور بالمسئولية أمام الناس، بوصفهم من بين من يراقبون أعمالنا، ويحكمون عليها حكمًا يقيم له القرآن وزنًا، ما لم يكن ظالمًا، التربية على: الحذر من إتيان ما من شأنه أن يكون للناس حجة علينا إلا الذين ظلموا منهم. فالأحكام البشرية العادلة موضع تأييد قرآني، بدليل قوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]، والحرص على التدليل على البراءة ونفي الشبهة، ليس أمام اللَّه وحده، بل أمام الناس أيضًا، والسعي إلى وضعية الشهادة على الناس، وابتغاء الثناء من الصالحين، وفعل ما يرث به الإنسان (لسان الصدق في الآخِرِيْنَ).

ويمكن القول في هذا الصدد أن القصص القرآني المتضمن لخلاصة سنن مآل المصلحين والمفسدين في الأرض عبر الزمان والمكان، يمثل نوعية رفيعة من التغذية لإقامة حجة إنسانية رفيعة، كما أنه يمثل نموذجًا في التدريب على إصدار أحكام سديدة على أفعال البشر وأخلاقهم.

أما بخصوص تربية الشعور بالمسئولية أمام اللَّه تعالى، فإن الأمر يتعدى الأحكام الإنسانية التي نصدرها على أنفسنا، والتي يصدرها الآخرون على أعمالنا من منطلق الحكم بالظاهر، وتجاوز محكمة الضمير التي تتفاعل مع ما يستشعره الإنسان في باطنه، مما قد

يتلوث بالقصور الإنساني، إلى رحاب محكمة إلهية ذات إحاطة شاملة وبالغة الدقة، بالظاهر والباطن على حقيقتيهما.

والتربية على الشعور بالمسئولية على مستوى استحضار معية اللَّه الدائمة، يفتح المجال أمام آفاق بعيدة المدى والعمق للمسئولية الإنسانية الأدبية، يستشعر فيها المرء أنه محاسب ليس عن فعله فحسب، وإنما عن كل ما يفعله الغير من منطلق اتباع أمره، أو المثول لتزيينه للعمل لغيره، أو محاكاة الآخرين له ونسجهم على منواله، أو ارتياح نفس الآخرين لما يفعلونه من تلقاء أنفسهم من جراء سكوته هو عليه، انطلاقًا من المسئولية الفردية والجماعية عن طهارة العمران الإنساني والتدافع للإصلاح ولمنع الإفساد في الأرض بعد صلاحها. وتتأكد هنا أخلاقية التناهي عن المنكر، بما أن السكوت عنه يؤدى إلى استمراره وترسيخه وشيوعه، حتى وإن لم يكن هو السبب في حدوثه في الأصل.

وفى إطار هذه التربية ذاتها يتم التأسيس النفسي لمشاطرة المخطئين في تحمل نتائج خطأهم، من مدخل مساعدتهم على الخروج من زلتهم، ومعالجة آثارها المعنوية. كما يتأكد أيضًا مبدأ التربية على المسئولية عن تخفيف وتلطيف أثر فعل القدر في المجتمعات. وفي هذا الصدد يأتي التوجيه القرآني إلى: تحرير الرقـاب، وإلى إزالة عثرة المدين من جهة، والتأكيد على حرمة الأموال والدماء وضرورة حفظها وجبر ما يقع من ضرر عليها سواء كان بطريق العمد أو الخطأ. كما يتأكد الإحساس بأنه رغم أننا لا نُسأل عن علة القـدر، فإننا نُسأل عن التفاعل مع آثاره على نحو يخفف آلام الغير وينقذ أحلامهم، كمسئولية أدبية ومادية تضامنية بين بني الإنسان من منطلق وحدتهم في الأصل، وفي الرب، وفي الرسالة على الأرض، وفي المصير.

وتتسع في ضوء ذلك، مضامين مفهوم (العمل الصالح). فلقد جرى العرف في تحديد مفهوم العمل على قصره على السلوكيات الظاهرة الواقعـة تحت الحس، أو تعدي ذلك على أحسن الفروض، إلى الأعمال الباطنة. إلا أن مفهوم العمل يستدعي في ضوء الطرح السابق، إلى جانب ذلك أمرين: وسائل العمل نفسهـا، وضوابط العمل وغايته. وبهما نصير أمام مفهوم العمل الصالح. وتشمل وسائل العمل في المنظور القرآني: القُوَى والملكات والمواهب، وسائر المُكنات الذاتية والخارجية. وموضع المسئولية الأساسيـة هو: ما هي درجة استعمال الإنسان لهذه الوسائل، وهل عطلها، أم استخدمها فيما خُلقت له؟.

والتحرك إلى هذا العمق القرآني لمفهوم العمل، يُفضي إلى: ربط الفعل كفكرة مستقبلية،

بالفعل كفكرة رهن التطبيق، بالفكرة المطبقة التي آتت أُكلها ورتبت مآلًا ما لفاعلها. وتحرير مفهوم العمل على هذا النحو، يؤدي إلى تخطي النظرة القشرية السطحية التي تقف بالمسؤوليات الإنسانية عند حد الأقوال والأعمال الظاهرة، والتي تقف عند مجرد الرصد العددي لأفعال الإنسان كل على حدة، وتجاوز فكرة المسئولية الفردية التي تُفتت مبدأ المسئولية الإنسانية المتضامنة، التي هي جوهر تكريم الإنسان والتأسيس لقيمة الإنسان المسؤول.

بتعبير آخر، يلزم في تحديد مفهوم العمل الصالح النظر إلى المسئولية على أنها ذات أبعاد ثلاثة: رأسية وأفقية، فضلًا عن عمق هذين البعدين الأولين. فالبشر مسؤولون عن: أعمال الجوارح أقوالًا وأفعالًا. وهم مسؤولون أيضًا عن: أعمال القلوب. حقيقة أن الإنسان غير مسئول عن: أحوال القلب، من حب وفرح وحزن، إلا أنه مسئول عن أعمال القلب، والتي تتخطى المفهوم الدارج المتعلق بما أسـرّ الإنسان به من عمل الجوارح، لتعانق ما انعقدت عليه النية من المعصية والإغماض والإعراض عن مراد اللَّه تعالى، بدليل قوله تعالى ﴿ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾[الأنعام: ١٢٠]. فالبشر سيُسألون يوم تُبلَى السرائر، ويُحَصَّلُ ما في الصدور، ليس عن خواطرهم، وإنما على ما كان لهم من كسب واختيار بشأنها. ومن أهم أعمال القلوب التي يجب التربية على جعلها في مركز الصدارة في نسق المسؤولية: الإيمان باللَّه، وما إذا كان عن بصيرة، وما مدى الثبات عليه، بوصفه ركيزة للسؤال عن أمهات القيم من التوحيد والرحمة والعدل والصبر، والسؤال أخيرًا عن حالة الإنسان فيما يتعلق باجتناب كبائر الآثام القلبية، وفي مقدمتها: كتمان كلمة الحق، وتبييت الأذى، والنفاق، والحقد والحسد والكبر[1].

* * *
* *
*

(١) د. محمد عبد اللَّه دراز: دراسات إسلامية...، مرجع سابق، ص٣٧ – ٨٦.

الفَصْلُ الثَّانِيْ

التنشئة على الأسوة الحسنة

للتنشئة على الأسوة الحسنة منهلان: القرآن، بالوصال المباشر معه، لاستلهام حظ الإنسان من أسماء اللَّه الحسنى وهدي النبيين، والنموذج النبوي، بما أنه ﷺ كان قرآنًا يمشى على الأرض. ولن نزيد في هذا الفصل عن إشارة لأهم معالم التنشئة من هذين المدخلين، في ثلاثة مباحث، يتطرق أولها: للتنشئة على الأسوة الحسنة بالوصال مع القرآن الكريم، واستلهام مضامين المفاهيم القرآنية في هذا الصدد، بينما يتناول الثاني: المعالم العامة لأطر محاكاة الأسوة الحسنة بالنبي ﷺ والصالحين في مجال التنشئة.أما الثالث: فيلقى نظرة خاطفة على أسس الانفتاح المنضبط لعملية التنشئـة الإنسانية، على الأسوة بالقرآن وبالسنة.

ٱلْمَبْحَثُ ٱلْأَوَّلُ

التنشئة على الوصال مع القرآن الكريم

يتناول هذا المبحث المعالم الأساسية لمحاكاة مضامين المفاهيم والأساليب القرآنية في عملية التنشئة، عبر مجموعة من المفاهيم يتصدرها مفهوم القرآن الكريم ذاته، والحرية التوحيدية، والمفاهيم الفرعية المتشابكة معها.

أولًا: محاكاة مضامين المفاهيم القرآنية في التنشئة:

القرآن ميسر، خالٍ من أي إغلاق أو تعقيد. ومصدر الاختلاف في فهمه هو اختلاف الاستعداد الذهني، وتأثير العادة، وميل الإنسان إلى تجسيد المعاني. فالعقل البشري درج على التركيز على البعد المادي، في إدراك مفاهيم هي في جوهرها أوسع من ذلك بكثير. ويؤدي ذلك إلى تشويش فهم مقاصد الآيات الكريمة. والمخرج للإنسان للتخلص من قصوره المعتاد في هذا الشأن، هو القراءة السياقية للقرآن الكريم، والسعي إلى تفسير القرآن بالقرآن. فبما أن القرآن كما رد فيه ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]، فإن الإنسان لن يحتاج أبدًا إلى البحث خارجه، فيما لو أدرك أنه ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ويبين بعضه بعضًا[١].

(١) السيد محمد حسن الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٣م، ص٩ – ١٢.

والمعارف القرآنية ذات حقول تشمل: التعريف بأسماء اللَّه وصفاته (والمستبطن بها إلى جانب: التوحيد، هو بحث الإنسان فردًا وجماعة، عن حظه من تلك الأسماء، كأساس للأخلاق الإنسانية)، ومعارف خاصة بالإنسان قبل الدنيا وفيها وبعدها، على صعيد سماته وأفعاله، والتكليف الإلهي له، وعلاقته بخالقه وبالموجودات الأخرى.

ولا مجال للتنشئة السياسية الرشيدة دون الوعي بمضامين ودلالات المفاهيم القرآنية ذات الصلة بها، وفى مقدمتها الحرية التوحيدية، وتَمَثْلها، ومحاكاتها.

ومن أهم المضامين التي يمكن استخلاصها من مفهوم القرآن ذاته، ومن مفهوم الحرية الإنسانية وعائلة المفاهيم القرآنية الرئيسة الأخرى، ما يلي:

١ - الدلالات الكلية لمفهوم القرآن:

من أهم هذه الدلالات، فيما يتعلق بالتنشئة السياسية:

أ - محاكاة موقف القرآن من الكتب السماوية السابقة: يؤسس القرآن الكريم بوصفه الكتاب الخاتم المصدق والمهيمن على الكتب السابقة لعملية تنشئة تقوم على الإحسان، والعدل في آن واحد بين ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها.والجديد هنا يستصحب كل ما هو صواب من محصلة سعي الجماعة الإنسانية من قبله، وينفي خبث ذلك السعي، وينتظم كلَبِنَةٍ مكملة لبنية العمران الإنساني السابق عليه،لا كناقض لها. ويؤسس مبدأ وحدة الوحي السماوي، للكلمة السواء الجامعة بين أمة القرآن، وأهل الكتاب، وأتباع كافة الرسل السابقين، بوجه خاص، والبشرية بوجه عام. ويرسي القرآن هنا مبادئ سياسية في غاية الأهمية، في مقدمتها: اعتبار كل مرحلة في عملية البناء خطوة على طريق اكتماله، بحيث يكون على قمة أهداف المرحلة التالية تثبيت الصحيح في السابقة عليها، ثم الارتقاء به، وصولًا إلى إتمام البناء. فلا موضع لهدر الخبرة والعبرة التاريخية، ولا موضع في نفس الوقت للجمود عندها.

ومعنى ذلك، أن عملية التنشئة ترتكز على مبدأين: الثبات بالمحافظة على القديم الصالح، والتجديد، عبر الإنشاء والابتكار لكل ما هو نافع. ولا موضع في تلك التنشئة للعودة إلى الوراء، ولا لهدم ما تم رفعه من أساسيات البناء، بل هناك سعي دائم للتعرف على جوهر الأشياء، والتجاوز المتواصل، لما يبدعه الإنسان من وسائل وقنوات لتيسير حركته، في مضمار التزكية والعمران، واستبدال ما هو أدنى بما هو خير، على طريق العروج الدائم إلى مرضاة اللَّه. والعلاقة مع الآخر في ضوء ذلك، هي علاقة تواصل وإتمام لمكارم

الأخلاق، ولرفع قواعد العمران والتزكية، وللتربية على المرابطة، بمعنى: التحصين ضد الخطاب المفرق للصف، الأكَّال لروح الأمة، المذهب لريحها[1].

ب - **تربية العقلية الجامعة**: يصل عمق التأكيد القرآني على الطابع الجامع كأساس للعلاقات في الكون، إلى حد التعانق مع القرآن ذاته. فنواة مفهوم الجمع والضم والتأليف تتمثل في جمع كتاب اللَّه تعالى بين اسمين: القرآن، بما أنه يُتلى بألسنة البشر، والكتاب، بما أنه يُدون بالقلم. ويدور كلا المسميين حول مفهوم: الجمع والضم بين ما في الصدور وما في السطور، بحيث يتضافر الظاهر والباطن معًا في تحقيق رسالة الإنسان في الأرض.

وفي التأسيس القرآني لمفهوم الجمع، يأتي القصص القرآني ليجمع بين سبيلي النقل لما هو خارج النفس، وبين التفاعل مع الحس الظاهر أو الباطن بالحدس والاستدلال والاستنباط. ومن ذات القصص تتجلى نبوءات ذات طابع مستقبلي في مضامينها، بما أنها تؤسس للوعي على السنن الكونية. ومن شواهد ذلك هنا ما أخبر عنه القرآن الكريم بشأن انتصار الروم على الفرس (في بضع سنين)، وليس (بعد بضع سنين) ومواكبة ذلك الحدث لوعد إلهي ثالث بانتصار المؤمنين على المشركين.

ومن الأمور الأساسية في هذا الصدد التعامل مع النسق القرآني من منطلق الجمع بين الإيمان بالغيب، والاسترشاد بسنن اللَّه الكونية التي لا تتبدل في مواجهة الإفساد، والإصلاح في الأرض. ويحتاج النظر في ذلك النسق القرآني إلى التعامل مع القرآن الكريم من منطلق النظر إليه كجملة واحدة، بل ككلمة واحدة. ومن مقتضيات ذلك، النظر إلى كل سورة في القرآن الكريم على أنها بمثابة بنية لها نظامها المعنوي، ولها مقاصدها، كمدخل للنظر في طرق وأساليب رعاية ذلك النظام وتحقيق تلك المقاصد. و يستطيع الباحث بكثرة التدريب على محاكاة ذلك الأسلوب في القراءة السياقية للقرآن الكريم، تحقيق المهارة في أساليب الجمع والتأليف بين الأشياء، أو ما يمكن تسميته: الوعي بطريقة التمكين للتعارف بين الفرقاء في هذه الحياة.

ويرشد القرآن الكريم - باسمه وبمضمونه - البشريةَ إلى تلمس أسباب تشكيل العقلية المؤسسية الجامعة، القادرة على توظيف أوجه النقص في البرهنة على تألق أوجه الكمال، وتوظيف معالم العجز في البيان الإنساني في كشف حاجة البشرية الأبدية إلى كلمة اللَّه. فالسياق القرآني يجمع في الموضع الواحد بين فرقاء وأجناس مختلفة، في صورة مؤتلفة،

(١) د. محمد عبد اللَّه دراز: نخبة الأزهار وروضة الأفكار، تحقيق: عبد اللَّه إبراهيم الأنصاري، الدوحة: مطابع قطر الوطنية، ١٩٧٩م.

كاشفًا عن الطريق إلى البحث عن الجامع بين المخلوقات، والبعد عن دواعي الشقاق، عبر بيان أوجه التماثل والتداخل بين المخلوقات، ومن ثَمَّ دواعي الوفاق وتجنب الافتراق فيما بينها. وفي القرآن الكريم نجد الأضداد تتفاعل وتتحاور، دالةً على محاسنها ومساوئها، أو بالأحرى على الطريق إلى التعارف فيما بينها، وإلى التدافع فيما بينها، وبيان سبل التكامل والتعاون والتسبيح المشترك بين كل ما في الكون من عوالم مخلوقات[١].

٢ - حاكمية القرآن وحده:

يؤسس القرآن لمبدأ اتخاذه ميزانًا أسمى، عبر بناء **القواعد التالية:**

أ - اليقين بقابلية أي اجتهاد إنساني للخطأ: يبرهن القرآن الكريم عبر سلوكيات أنبياء كرام - عليهم السلام - على قابلية أي اجتهاد إنساني للخطأ. فالأنبياء وهم الأسوة في كل ما يمثل الكمال الإنساني لم يظفروا بالصدق المطلق في اجتهادهم كبشر حتى في أقرب الحوادث إليهم. بمعنى آخر، كان الأنبياء معصومين في تبليغ الوحي فحسب. أما في مجال اجتهادهم الرأي خارج تلك الدائرة، فإن فراستهم أصابت حينًا، وأخطأت حينًا آخر. مثال ذلك: صدق فراسة يعقوب عليه السلام في زيف ادعاء أولاده بافتراس الذئب لأخيهم يوسف عليه السلام. إلا أن تلك الفراسة أخطأت طريقها تمامًا حين أبلغوه بما حدث لشقيقهم في مصر، حيث اتهمهم رغم صدقهم المطلق بذات التهمة التي وجهها لهم عند بطلان حجتهم المطلقة في المرة الأولى.

وتضمن القرآن الكريم ما يبرهن بكل جلاء،على أن موسى عليه السلام الذي هو واحد من أولي العزم من الرسل، أخفق في الالتزام بأن لا يسأل صاحبه عن شيء حتى يُحدث له منه ذكرًا، وأن يصبر ولا يعصي له أمرًا. ووجدناه ينسى مرارًا، ولا يطيق صبرًا، ولا يطيع أمرًا.

وفى سورة النساء ما يؤشر على عدم استثناء أحد من الأنبياء، بما فيهم الرسول الخاتم ﷺ، من إمكانية الخطأ في اجتهاده الإنساني، وإمكانية أن يزين له من هو ألحن بحجته الأمر على غير حقيقته، وينحى بحكمه في اتجاه غير مطابق لما يحبه اللَّه. فالحق يقول لنبيه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

---

(١) وبوسع المتأمل في سورة البقرة مثلًا، أن يرى نموذجًا لمنظومة من المعاني الجامعة المتآلفة، وكأنها نسيج واحد، تتناسج خيوطه، عبر سياحتها بقارئها من رحاب التعريف بالقرآن الكريم، وبيان مقاصده الأساسية من دعوة الناس كافة إلى الإسلام، إلى اختصاص أهل الكتاب بالدعوة إلى الإسلام، إلى عرض شرائع الدين الإسلامي، إلى الإشارة إلى الوازع على الالتزام بالشرع، لتختتم السورة بالدعوة للأمة بأسرها لليسر والرحمة. وفى سياق بيان هذه المقاصد تتحدد سمات المتقين والمنافقين، والكفار، مقرونة ببيان العلة التي أدت إليها، والمآل الذي تسفر عنه. وانظر في التفصيلات: د. محمد عبد اللَّه دراز، النبأ العظيم، الكويت: دار القلم، ١٩٩٣م، ص١٦ - ٣٤، ٤٩ - ٥٥.

ب - الدعوة إلى النزول بالنفس على هوى القرآن: جوهر هذه القاعدة من قواعد التنشئة، الحرص في ترتيل القرآن على النزول بالنفس على هواه، وتحاشي النزول به على هوى النفس. ومن شأن التنشئة على هذه القاعدة: ابتغاء الوسيلة إلى العمق القرآني، الذي يكفل استشراف النفس للجمال التوفيقي واللغوي للقرآن اللذين تتألف منهما القشرة السطحية للجمال القرآني، كنقطة انطلاق نحو عمق فضاء المفاهيم القرآنية. بتعبير آخر يتضمن النص القرآني على صعيد جماله اللغوي والتوفيقي ما هو أشبه بالصَّدَفَة التي تحوي بداخلها لآلئ نفيسة تحتاج إلى الغوص للوصول إليها. ودون تجاوز القشرة لا يمكن الوصول إلى اللب الذي يُفصح عن منظومة معنوية أشد إبداعًا، يمكن أن نستقى من معينها فيضًا لا نظير له في مجال التنشئة القرآنية.

ومن المؤشرات التي يمكن بها التيقن من الالتزام بهذا المبدأ في التعامل مع القرآن الكريم، ومحاكاته في عملية التنشئة:

(١) الاقتصاد في الأسباب والكفاية في الثمرة: جوهر هذا المؤشر هو: مدى حسن استخدام الأسباب التي يسرها اللَّه تعالى للإنسان للقيام برسالته على وجه الأرض، وتعزيز تلك الأسباب وتعميق مردودها الإيجابي، بحيث تصير بمثابة الشجرة الثابتة الأصل الدائمة الأُكل بإذن ربها.

والتأمل في خصائص القرآن الكريم، من هذا المنطلق، يضعنا أمام البحث في إمكانية محاكاة **أوجه الجمال والكمال القرآني التالية:**

(أ) القصد في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى: من أهم ما يكتنف أساليب البيان الإنسانية من قصور، حقيقة أن البيان الإنساني قد يقع في فخ الإجمال الذي لا يظهر معه المعنى، أو في الإصابة بالإسراف في التفصيل، إلى حد التشتيت المضيع في النهاية لحق المعنى. وحدها محاكاة الأساليب القرآنية في البيان، وتفردها في كافة ما يُقْدِم عليه الإنسان من قول أو فعل، هي الطريق إلى: امتلاك الإنسان القدرة على: القول الموفي بحق المعنى بوسطية لا تعرف الإفراط ولا التفريط.

ومن نافلة القول أن عملية تنشئة تستلهم هذا المبدأ القرآني، لا تبتغي إلا مجرد تحقيق الكمال النسبي الذي هو في متناول البشر، بالاستعانة بالنموذج القرآني. ومحط التركيز هنا هو البحث عن: أساليب التعبير عن الثروة المعنوية في لفظ قاصد عدل، على غرار الأسلوب القرآني.

(ب) **إنشاء خطاب الإنسانية الجامع**: لب هذا المبدأ هو تسوية إشكالية في غاية الخطورة تواجه كافة نماذج الفعل الإنساني غير المسترشدة بالهَدْي القرآني، جوهرها هو: كيفية الجمع بين خطاب للعامة والخاصة على السواء يرتضيه الجميع، ويجد فيه كل طرف غاية ما يصبو إليه.

بتعبير أوضح فإن الخطاب الإنساني يواجه دائمًا معضلة التوصل إلى القول العدل الوسط. وهو إذا لجأ إلى الوضوح المكشوف تمجه عقول الخاصة، بدعوى أنه ينحط بها إلى ما هو دون مستوى قدرتها على الاستيعاب، وفى المقابل فإن تأسيس الخطاب على الإشارة واللمحات يواجَه بالعزوف من جانب العامة، لكونه يُحَملهم ما لا طاقة لعقولهم به. ويظل السؤال هو: كيف ننشئ خطابًا يلتقي فيه البشر جميعًا على الاختلاف بينهم في القدرة العقلية والمُكنة العلمية. ولا حل إلا بمحاكاة نسبية على قدر طاقة الإنسان لأسلوب القرآن، الذي قال عنه اللَّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

وتعمل في النفس البشرية قوتان: قوة التفكير التي تنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وقوة الوجدان التي تسجل إحساسها بما في الأشياء من اللذة والألـم. والبيان التام هو الذي يشبع هاتين القوتين معًا، ويجمع بين ثمرة كلٍّ منهما. ولا نظير للنص القرآني في تحريك العقل الإنساني نحو أساليب في التنشئة من شأنها التأسيس للبرهان العقلي، في ثوب التشويق والتنفير والتحريك للوجدان[١].

(جـ) **الوصال الجميل مع اللغة العربية**: من أوسع أبواب تنشئة ملكة البيان الإنساني الجامع، التعمق في فقه اللغة العربية، التي يدل تنزل القرآن بها بحد ذاته، على أنها من أعمق اللغات، وأقدرها على البيان السهل الممتنع، الجامع بين اليسر والرقي في آن واحد. ولم يصلح أول الأمة الإسلامية إلا بالبيان، ولن يصلح آخرها إلا به[٢]. فاستعادة الوعي بعمق لغتنا الذي ضيعناه بالانعزال عن لحظة تألقها قبل الإسلام، وفى صدره الأول، وعزلها عن العلوم الطبيعية، وتدريسها على نحو لا يربي عشقها، هو مفتاح التنشئة على تمثل عمق المفاهيم القرآنية، للتوصل إلى إمكانية الجمع بين البيان والإجمال النافيين للالتباس واللغو.

---

(١)انظر في التفصيلات: د. محمد عبد اللَّه دراز: النبأ العظيم، الكويت، دار القلم، ١٩٩٣م، ص١٠١ – ١١٨، قارن مع: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، الكويت: الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ١٩٨٣م، ص٢١٩ – ٢٣٩.

(٢) انظر: محمود محمد شاكر، فصل في إعجاز القرآن، ضمن: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص٧ – ٥٠.

(د) التنشئة على طلب المزيد من العلم من اللَّه: جوهر هذا المبدأ هو التعامل مع القرآن الكريم من منطلق أن اللَّه أعلم بأسرار كلامه، وأنه لا علم لنا إلا بتعليم اللَّه لنا. وفي ضوء ذلك، يتعين الأخذ بكافة الأسباب الكفيلة باستجابة الدعاء للَّه تعالى بأن يزيدنا علمًا، مع التسليم بأن اللَّه تعالى قد يفتح بابًا من الفهم في القرآن الكريم، لصغير مفضول، لم يفتحه لعالم كبير فاضل. ويظل الفيصل متمثلًا في صدق القول، لا في شخص القائل من البشر.

ومن أوليات الأدب في التعامل مع القرآن، من مدخل البحث فيه عن جديد لا ينتهي، ولا يعلم حدوده إلا اللَّه، التدبر فيما يتولد عن كلماته من معانٍ متجددة، لا ينفد أبدًا جديدها مع كثرة النظر فيها، والوعي بأن لكل حرف في القرآن الكريم وظيفة ومدلولًا في تزكية النفس والعمران الإنساني. وتكفي الإشارة هنا إلى حرف الكاف الوارد في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]. فالبون شاسع بين هذا النص القرآني، وبين عبارة (ليس مثله شيء). فالأخيرة تنفي وجود المثل المكافئ التام للمماثلة فحسب.أما الأولى فإن الكاف فيها تنفي أن يكون هناك ما يشبه أن يكون مثلًا للَّه، فضلًا عن استحالة أن يكون له مثل على الحقيقة، من باب التنبيه على الأعلى بالأدنى. فالكاف وحدها جعلتنا أمام مدلول قرآني مفاده: أن مثله تعالى لا يكون له مثل. فمن كانت له تلك الصفات الحسنى، والمثل الأعلى، لا يمكن أن يكون له شبيه، ولا أن يتسع الوجود لاثنين من جنسه. وبذا يتقرر التوحيد في أنقى معانيه، باستحالة إمكانية التعدد في ذاتها بصرف النظر عن آثارها. وفي المقابل يتأسس الكمال الإضافي الناقص الخاص بالإنسان على فكرة التعدد والاشتراك والتماثل، حيث يقوم عالم المخلوقات على الأزواج المتشابهة. وهكذا يتأسس مفهوم الوحدانية، ومفهوم التسبيح المشترك بين المخلوقات في المقابل[١].

ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّانِي

محاكاة مضامين الخُلق النبوي في التنشئة

من أهم سبل تحديد معالم نموذج للتنشئة يحاكي الهدْي القرآني، النظر في خُلق نبينا محمد ﷺ، بما أنه كان قرآنًا يمشي على الأرض، وكان خُلقه القرآن. **ومن معالم هذا النموذج:**

(١) انظر في التفصيلات: د. محمد عبد اللَّه دراز: النبأ العظيم، مرجع سابق، ص١٩٦ – ٢١٠.

أولًا: حفظ اللسان:

من مقتضى التأسي بالنبي ﷺ إمساك الذات الإنسانية لسانها، بضبط ما يصدر عنها من قول بين دفتين: ما هو توفيقي مستنبطٌ من فهم في كلام اللَّه، وتأمل في دقائق الكون، وما هو توقيفي متلقى من الوحي بمعناه لا بنصه. ومدارات دور المتأسي، بالتالي، في هذا الصدد، تشمل: البلاغ والبيان والتفسير، والوعي والحفظ والتطبيق، واعتبار نفسه أول المسؤولين.

ثانيًا: التيسير قدر المستطاع:

ثاني معالم هذا النموذج النبوي، الجدير بالمحاكاة في عملية التنشئة، البحث الدءوب في فضاء التخيير الذي يمكن أن يأنسه الإنسان من ظاهر النص القرآني، بهدف التيسير والرحمة. ومن الأمثلة ذات الدلالة هنا: أن الرسول ﷺ لمَّا آنس درجة ما من التخيير في الصلاة على عبد اللَّه بن أُبيٍّ المتيقن بكونه رأس النفاق آنئذ، صلى عليه وكفنه في ثوبه، وأعلن أنه لو وَجَدَ سبيلًا للاستغفار له ليشفع له عند اللَّه لفعل. ولم يكفّ عن الصلاة على من كشف الوحي له عن نفاقهم إلا بعد النهي القاطع المانع. ويؤسس هذا النموذج لقاعدة مهمة في التنشئة، مفادها: سلوك طريق الكرم والرحمة، ما لم يوجد دليل قاطع على المنع. فالرسول أسس لمفهوم مراعاة واجب العبودية الخالصة للَّه، ومعنى البشرية الرحيمة والرفق في معاملة الكائنات الأخرى، مع اعتبار أن الأعمال بالنيات، وأن محط الحساب هو النية المكتسبة والعزيمة المستقرة المؤسَّسَة على الاختيار.

ثالثًا: تلمس أسباب الألفة:

المَعْلم الثالث لهذا النموذج، هو: السعي إلى التمكين لأسباب التأليف بين القلوب، داخل الأنساق العمرانية الإنسانية وفيما بينها. ومن الأمثلة ذات الدلالة الجلية في هذا الصدد: السلوك النبوي في صلح الحديبية الذي بلغ سنام الطابع الجامع، المتمحور حول التأليف بين القلوب. فالمعروف أن الإسلام ينهى عن المبادأة بقتال في الحرم، ولكنه لا يحظر الرد على العدوان بالمثل فيه. ومن الأمور ذات الدلالة: أن ناقة رسول اللَّه ﷺ كانت هي المخلوق الذي استشف الرسول ﷺ من سلوكه أنه من غير المأذون له أن يدخل هو وأصحابه الحرم في ذلك العام مقاتلين،لا بادئين، ولا مكافئين. وكان ذلك كافيًا لسعيه لدخول مكة من طريق الصلح، وإعلانه استعداده لإعطائهم أية شروط يطلبونها، ما دام عنوانها هو تعظيم حرمات اللَّه.

رابعًا: تحاشي شخصنة الذم والمدح:

المعلم الرابع لهذا النموذج هو: النصيحة غير المباشرة قدر الإمكان. فالرسول كان

يستعيض عن توجيه اللوم لشخص بعينه، بعبارة مثل: ما بال أقوام. ويصب في ذات المعين: التنشئة على النفور من إصدار أحكام على أشخاص محددين تتعلق بمآلهم عند لقاء اللَّه تعالى. فحين شهدت صحابية هي أم العلاء لصحابي جليل هو عثمان بن مظعون، عندما أدركه الموت أن اللَّه أكرمه، نبه النبي ﷺ الأمة إلى أن ذلك الصحابي قد جاءه اليقين، وأن الرسول ﷺ يرجو له الخير، ومع ذلك، فإن القاعدة الأساسية، الأَوْلى بالاتباع هي: وجوب عدم تزكية أحد على اللَّه، اهتداءً بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦].

ومن المفاتيح المهمة التي يقدمها ابن القيم المعمقة لهذا المبدأ تنبيهه إلى: ضرورة عدم الاغترار بتسمية كثير من المفسرين شخصًا بعينه، في تعاملهم مع المواضع التي ورد فيها لفظ (الإنسان) في القرآن الكريم، كزعمهم أن المراد به هو: الوليد بن المغيرة، أو أبو جهل، أو عقبة بن أبي معيط. فالقرآن كما يقول ابن القيم، بحق، أجلُّ من ذلك. فمفهوم الإنسان فيه هو: الإنسان من حيث هو، من غير اختصاص بواحد بعينه. والحق مغاير للوهم الذي وقع فيه فريق من المفسرين في حمل كل عام في القرآن على خاص[١]. ويتناسج هذا المفهوم بقوة مع مفهوم الحرية. فما دام الإسلام، والكون يقومان على: الحق، فإن منظومة القيم الإسلامية وفي مقدمتها الحرية التوحيدية، تتأسس على الحق كناظم لها. ولما كان أساس التكليف الإنساني هو الحرية والإرادة، فإن صلة الحرية بالحق على صعيد السلوك الإنساني تصير بمثابة علاقة ترادف. فالحرية هي الحق، والعكس صحيح. والحق عميق في تصميم الوجود، وفي تدبيره، وفي مصيره هو وما فيه ومن فيه. والقرآن هو أحد عناصر هذا الحق، ومن وظيفته: الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة، لإزالة كل ما طرأ على التوحيد من شبهات، بوصفه هو الأصل[٢]. والمتأمل في السياق القرآني يلاحظ: أن مادة (حق) وردت (٢٧٠) مرة من بينها (٢٢٧) مرة بلفظ (الحق). ويشمل فضاء هذا المفهوم الإشارة إلى: الخالق ﷻ، وإلى القرآن، وإلى دعوة الحق، وإلى يوم القيامة[٣].

---

(١) د. صبري المتولي: منهج أهل السنة في تفسير القرآن الكريم، دراسة موضوعية لجهود ابن القيم التفسيرية، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ١٩٨٦م، ص١١٧، ١١٨.

(٢) انظر: سيد قطب: مرجع سابق، ٤/ ٢١٥٣، ٢١٥٤، ٢١٨٠.

(٣) محمد فؤاد عبد الباقي: مرجع سابق، ص٢٠٨ – ٢١٢.

خامسًا: التأسي بمكارم الأخلاق:

جوهر هذا المفهوم هو اليقين بأن اللَّه مولى الذين آمنوا. ومن هذا اليقين يصير إسلام النفس وانقيادها لما يريده اللَّه ورسوله منها هو غاية جهاده واجتهاده. فالذات الإنسانية تفتدي نفسها في ظلال التوحيد، بالغيبة عنها في حلاوة شهود منهج اللَّه تعالى، وبشغلها بما يمكن أن نسميه: تفكر الاعتبار، وجوهره هو التفكر في أمور أربعة: سرعة ذهاب الدنيا، في مقابل دوام الدار الآخرة ودوام نعيمها، وعدم إمكانية عد النعم الحسية والمعنوية الدنيوية والأخروية التي أنعم اللَّه بها على البشرية، ووجوب الإبداع والإتقان في التعامل مع هذه النعم، كمطية للسعادة في الدنيا والآخرة.

ومن أهم الأخلاق التي ينبغي التأسي برسول اللَّه فيها، في هذا الصدد: التواضع في مقام التعلم، بما أن الإنسان يظل بحاجة إلى الاستزادة من العلم. وفي قوله تعالى لنبيه ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، الدليل القاطع على أن المرء مهما بلغ من الصلاح، يظل بحاجة إلى الاستزادة من المعرفة باللَّه وللَّه. فهو لا يستغني أبدًا، بذاته، عن ربه، الذي منه نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، وبه الوصول إلى غاية المراد. والتولي عن السير في هذا الطريق، والركون إلى الشهوات يُفضي به إلى الغفلة، في حين يهديه نور التوجه إلى اللَّه، إلى التأهل للدخول في رحاب أنوار المشاهدة « المعبر عنها في قوله تعالى: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

ومن أوسع الأبواب لبلوغ مرتبة سعي النور بين الأيدي والأيمان، التزود من الحظ من أسماء اللَّه الحسنى، على صعيد: ستر العيوب، والعفو، وتحرير النفس مما يقتلها من الغيبة والنميمة والهوى والتجسس على العورات، وتحلية النفس بأسباب القرب من اللَّه تعالى، بالإسلام والإيمان والإحسان، وبالحب في اللَّه وللَّه. وكما أن الأرض لا تستثقل شيئًا على ظهرها، فإن على المؤمن أن يوطن نفسه على الصفاء والتحمل، في علاقته مع من تجمعه معهم وحدة الأصل الإنساني بوجه عام، وفي علاقته مع من تجمعه بهم أخوة النسب وأخوة الدين، بوجه خاص[1].

ومن مكارم الأخلاق النبوية أيضًا، التنشئة على التخلق بالشورى، فلقد احتفى الرسول بالشورى، التي هي كما يبين القرآن الكريم مجبولة في فطرة الإنسان التي فطره اللَّه عليها.

---

(١) انظر هذه المضامين في تفسير سورتي طه والتحريم في الجزء السابع من: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي، المعروف بابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: وحيد قطب، القاهرة: المكتبة التوفيقية، د. ت.

ومما لا تخفى دلالته، أن اللَّه تعالى قرن خلق آدم، بالتشاور في شأنه، مع أنه أغنى الأغنياء عن ذلك، لتوجيه البشر إلى أن التشاور سنة ضرورية فيهم، بما أن مصاحبة الشيء للشيء في أصل تكوينه تَعني فطرته عليه، وبيان أنه من أركان استقامة أمره(١).

والمَعين الذي تنبع منه هذه الخلال، في ضوء هذا النموذج يتمثل في مثلث أضلاعه هي: عملية تنشئة على الإيمان (الامتلاء بالإحساس بقداسة الرسالة الإسلامية وضرورة حملها وتبليغها لبقية البشر في كل زمان ومكان)، والحب (للإنسانية، ولكافة الأسباب التي سخرها اللَّه تعالى للإنسان في السماوات والأرض، والامتلاء بالرغبة في إنقاذ البشرية)، والأمل (اليقين في مستقبل الدعوة وبلوغها أقصى غاياتها، مهما واجهتها من عقبات في لحظة تاريخية ما).

فالإنسان الذي يراد تنشئته على نحو يحاكي رسول اللَّه ﷺ، ويتأسى به هو إنسان تجري تنشئته ليكون صاحب قلب يمتلئ بالإيمان ويطلبه، ويفيض بالرحمة لمن هم على شاكلتـه، وللعالمين كافة، ويداعبه الأمل في أن يعم نور الإسلام الأرض، وأن تشرق الأرض بنور ربها.

ودون دخول في تفصيلات لا يتسع لها المقام، يمكن الإشارة إلى بعض مؤشرات ومعايير التنشئة على شاكلة النموذج المحمدي، بما أنه كان قرآنًا يمشي على الأرض، وكان خلقه القرآن. فشخصية الداعي، ورسم نموذج الأسوة الحسنة هو مفتاح عملية تنشئة تحاكي هذا النموذج. ومن أهم عناصر الفعالية في شخصية نموذج الأسوة في هذا الصدد: اللين للأتباع، والصبر والمصابرة، والتزام غاية ما في الوسع من الصدق في الوسيلة وفي الغاية، والتلطف في الدعوة، والقصد في الحجة، والتعليم بالأسوة، والطهر في السيرة والسريرة، والتأديب باللمحة والنظرة، والتزام الصلابة في الحق وإقامة العدل، والإحسان، والزهد فيما هو في يد الناس(٢).

ومن اللافت للنظر، أن التوجيه القرآني إلى أهمية اللين في العلاقة بين الراعي والرعية، قد جاء في سياق متضمن لمفهوم (الموت في سبيل اللَّه)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾[آل عمران: ١٥٧]. فمغفرة اللَّه ورحمته لا تتحقق بالقتل في سبيل اللَّه فقط، بل بالموت في سبيله أيضًا، وعلى قدم المساواة. ويأتي تقرير ذلك، بعد آيات اشتملت على مظاهر كثيرة من اللين من جانب النبي ﷺ في معاملة الصحابة – رضي اللَّه عنهم –، منها: استشارتهم في الخروج، والنزول

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ٤/ ١٥٠، ١٥١.
(٢) د. محمد عبد اللَّه دراز: دراسات إسلامية...، مرجع سابق، ص٢٩، ٣٠.

على رأيهم، ورحمة اللَّه بهم في أن فطر نبيهم على الرحمة، وتعليمه مع ذلك أن يضم لينه، إلى رحمة اللَّه تعالى بهم. ومصاحبة اللين النبوي لرحمة اللَّه، يستبطن: اللين الذي لا موضع فيه للتفريط في المصلحة، ولا للتساهل في أمر الدين. ويُستفاد من السياق ذاته: التعريض بأن اللين واجب، حتى وإن استدعى الحال الغلظة.

وللين محوران: سعة الخُلق مع أمة الدعوة وإقالة عثراتها، والصفح عن جفاء المشركين، واعتبار جفاء الراعي، وسوء الخُلق، وقسوة القلب بعدم التسامح، مدعاة لتفرق الأمة، مهما كانت شخصية من يتولى أمرها. وللين جناحان لا يطير إلا بهما: العفو عن الأتباع فيما يصدر عنهم من هفوات، ومشاورتهم في الأمر لاستخراج الحق في كل أمر مهم مشكل من شؤون الإنسان في نفسه، والجماعة والأمة، من قبيل تأليف القلوب، وجمع الشمل، وإقامة الحجة، حتى لو كان ولي الأمر هو النبي ﷺ ذاته. فَتَرْكُ التشاور يُعرِّض مصالح الأمة للخطر[1].

خامسًا: استلهام قيم التنشئة الكوثرية:

أعطى اللَّه تعالى رسوله الكوثر. وبالتالي، فإن استلهام هذه القيم يدخل في صميم الأسوة الحسنة به. ولا أساس لعملية تنشئة لا تستند على الوعي بأنماط الذوات الإنسانية، وتنطلق من خريطة سماتها، إلى تعزيز ما يوافق الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها، وتسعى في أسباب تعزيز قدرتها على التخلص مما يناقضها. والقرآن الكريم يرسم معالم متصل الأنماط الإنسانية، ويجلي سماتها، ويبين الطريق إلى الاستقامة، بالوعي بالنماذج الضالة للتفكر في الوقاية من عدواها من جهة، وللتفكر في مساعدة الواقعين في براثنها على التخلص منها، والوعي بالنماذج الراشدة للسير على دربها. **وسنسعى في هذا المبحث، إلى رسم الخطوط العريضة للرؤية القرآنية، لاجتناب التنشئة العوسجية، وللوصال بقيم التنشئة الكوثرية.**

١ - الفرار من التنشئة على الشح:

رأس الشح هو الخصومة مع منهج اللَّه. و يشير القرآن الكريم إلى أن البشر ينقسمون في موقفهم من منهج اللَّه تعالى، إلى أنواع من بينها: الكَنُود لربه، الظالم لنفسه، المقتصد، السابق بالخيرات.

أما الكنود فهو الإنسان القليل الخير، الذي يعد المصائب وينسى النعم، الشبيه بالأرض التي لا تنبت شيئًا نافعًا. وحين يقرر القرآن الكريم هذه السمة، فإنه لا يسعى إلى وصم الإنسان بالانحطاط، وإنما يضع الإنسان السوي الفطرة، أمام صورته المتحولة بفعله، حالة

(١) محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ٣/ ١٣٩ - ١٤٧.

تفريطه في تلك الفطرة التي فطره اللَّه عليها، في سبيل حضه على المقارنة بين: المخلوق الذي يؤدي دوره الذي خلقه اللَّه له على الوجه الأمثل، والمخلوق الذي يضن على نفسه في القيام بهذا الدور.

ويضرب القرآن المثل هنا برسم معالم مقارنة تضع البشرية أمام مشهد للخيل القائمة بدورها على أحسن وجه، في مقابل نوعية من البشر مصابة بشح النفس، ينتظرها في مستقبلها اليقيني مشهد تتعرض فيه لـ: بعثرة ما في القبور، وتحصيل ما في الصدور، والجمع للوقوف بين يدي اللَّه. وفي هذا نوع من التنبيه للإنسان إلى حاجته إلى السعي لملء قلبه بالإيمان، ومحاكاة مخلوقات اللَّه الأخرى، ومنافستها في القيام بدوره الذي خلقه اللَّه له، وتحذيره من أنه لو لم يجند إرادته لمكافحة آفة شح النفس، فإنه معرض للإصابة بها، وعندها يصير قبول الكائنات الأخرى لتسخير اللَّه لها، حجة على الإنسان، وتصير حريته بابًا لرده أسفل سافلين.

فالكُنُود نابعٌ من افتقار الإنسان إلى الميزان، الذي يوضح له سلم أولويات الكدح إلى ربه حتى يلاقيه، وليس نابعًا من إرادة حب الخير عند الإنسان. وبدون الإيمان يظل الإنسان سجينًا لذاته حقيرًا في مطامحه واهتماماته، وفي ثمرة سعيه. والقرآن يسعى هنا بوضوح إلى تحفيز الإنسان على تحطيم قيد كُنُود النفس بالتأمل في فعل الكائنات المسبحة، من جهة واستحضار هول البعث والحشر والحساب أمام اللَّه تعالى، من جهة أخرى[1].

ومن الأساليب القرآنية لتعزيز الدافعية داخل الإنسان للتحرر من الشح، ضرب المثل للإنسان بمواقف غير مرغوبة، للحذر منها، من بينها: الإشارة إلى الحسرة التي تصيب الإنسان عند سلب نعمة عظيمة منه، وهو في أمسِّ الحاجة إليها، حيث يرسم للبشرية في كل زمان ومكان صورة: جنة فيها كافة أسباب النماء، وإنسانًا في شيخوخته، وليس حوله غير ذرية ضعفاء، يخاف عليهم خوف العاجز عن درء الخطر عنهم، ولا يجد فيهم قدرة على الدفاع عنه أو عن أنفسهم، ودمارًا يأتي عليها من أساسها. وفي عمق إثارة الإحساس بأهمية حسن الخاتمة، يأتي السياق القرآني مبينًا أن المخرج من الوقوع في مثل هذا الموقف هو: الإنفاق من الكسب الطيب، وتحاشي الإنفاق من الكسب الخبيث، الذي من شأن الفطرة السليمة أن تتعفف عنه، ما لم تكن في وضعية اضطرار. ولا ريب أن مفهوم الكسب الطيب، لا يقف عند حد بذل المال، بل يمتد لبذل النصيحة في الدين، ولبذل المعرفة المحققة

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ٦/ ٣٩٥٧، ٣٩٥٨.

للتمكين في الأرض. ويجلي القرآن الكريم هذه المعاني، بقوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ويؤكد القرآن الكريم على أن الحرية بمثابة مفتاح لعدم الوقوع في وضعية العمل الحابط هذه، حيث نطالع المقارنة بين العبد المملوك، والمؤمن الذي رزقه اللَّه رزقًا حسنًا. الأول لا يرجى منه أي خير، بعكس الثاني. فالحق يقول: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

وأساس المسئولية هو سخاء النفس الإنسانية بالقيام بما خلقت له، أو بخلها على نفسها بالانشغال عنه بما خلقه اللَّه من أجل تعزيز كمالها وحريتها. ومن هذا المنطلق يرفض ابن القيم الفهم المغلوط لقوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٧]، على أنه سلب فعل الرسول عنه، وهو الوهم الذي بنى عليه البعض مقولة الجبر وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد، ويرى أن ذلك يمثل غلطًا في فهم القرآن، ولو صح لوجب تعميمه في كل الأعمال. فالرسول كان منه مبدأ الرمي، ومن اللَّه كان: الإيصال.

فالأخذ بالسبب هو سنة رسول اللَّه كإمام للمتوكلين، مع الإيمان بأن تحقيق المقصود يظل متوقفًا على إرادة اللَّه تعالى، التي تظل حاكمة للأسباب. ونهاية مدلول نسبة الرمي إلى اللَّه ونفيه عن الرسول، بالتالي هي مجرد: التنشئة على تحاشى الغلو في قيمة السبب. وتندرج هنا قيمة الاستعاذة باللَّه تعالى كمعنى قائم بقلب المؤمن، غير المعنى الذهني، لا تحيط به العبارة، ويشكل أحد أهم أركان تأسيس القابلية لتغيير ما بالنفس في اتجاه مرضاة اللَّه، جوهره هو: الفرار إلى اللَّه تعالى والتحصن به بوصفه العاصم للمستعيذ به من كافة أسباب الخوف.

والإنسان في أمسِّ الحاجة إلى تلك الاستعاذة، بما أن مفهوم (الناس) ذاته مشتق من: النوس، وهو الحركة المتتابعة، الظاهرة والباطنة. ومقتضى الحركة هو: الملابسة لفعل يتعرض فاعله إلى الفرصة والخطر في آن واحد. ومن أهم ما يعزز ثقة الإنسان في نفسه

في ظل هذا الطابع الحركي لمسيرته على الأرض، الحب للَّه، وفي اللَّه. ومفهوم الحب في لغة الضاد هو: الإناء الواسع الممتلئ بما فيه بحيث لا يسع غيره، المتسم بالصفاء والثبات، والعمق، بما أنه يرادف سويداء القلب. ومفهوم الحب في القرآن غزير المعاني والدلالات، وجوهره هو: الرغبة في اللَّه وفيما عند اللَّه. ومن مؤشرات الحب تقديم المعبود والمستعان، حتى على فعل العبادة والاستعانة. والعبادة هي غاية الطاعة، كما أن الحمد من أعلى منازل العبودية للَّه تعالى(١).

ويؤكد القرآن علي جريان سنة اللَّه تعالى في خلقه على التذكير بأيام اللَّه ونعمه، وترتيب المشيئة الإلهية بالبشر على تصرفهم، بحيث تكون تلك المشيئة ترجمة لسلوكهم. فاللَّه لا يغير ما بالناس من نعمة أو بؤس حتى يغيروا مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم. ومن تكريم اللَّه للإنسان أن يكون الإنسان هو أداة التنفيذ لمشيئة اللَّه فيه. ومن قبيل مساعدة الإنسان على التعرف على تغيير ما بالنفس، يأتي تنبيه القرآن الكريم له إلى أن دعوة الحق للَّه وحده، ودعوة غيره لا تثمر في النهاية إلا السراب، مع تعميق هذا المبدأ بأساليب تربوية قرآنية من بينها: توجيه الأسئلة للبيان والإسماع، والاستنكار، وإقامة الحجة، مع طرح الإجابات الصحيحة بأساليب متنوعة، وبما يمكن أن نسميه: السبح اللطيف في بحر المعاني التي تمس صميم القلب الإنساني(٢).

أما الظالم لنفسه فهو المضيع للواجبات المنتهك للحرمات بشتى صور الظلم المحتملة. أما المقتصد فهو المكتفي بالكفاف من فعل الخير، الواقف عند حد فعل الواجبات وترك المحرمات. أما السابق بالخيرات فهو الذي يتقرب إلى اللَّه بالمندوبات مع الواجبات، ويطهر ثوبه، بما يحمله هذا المفهوم من عمق ينطلق به من تطهير الثياب من النجاسة لتصير صالحة للصلاة بها، ليصل به إلى: تطهير القلب من الشرك، والنفس من الذنب، وإصلاح العمل، وابتغاء الخلق الحسن والكسب الطيب، والبيت المطهر، وتربية النساء على الطهر والعفاف. بمعنى آخر تتكامل طهارة الظاهر مع كافة السبل لتحقيق طهارة القلب، بما أن مفهوم تطهير الثوب، يدل بطريق التنبيه واللزوم، وإن لم يتناول باللفظ: طهارة القلب. ومن مقتضى ذلك، النظر في نعم اللَّه ونقمه، واستبصار العبرة التاريخية، واستحضار الرحمة الإلهية في فطرة العباد على الاختلاف في الألسن والألوان والأفهام(٣).

---

(١) صبري المتولي: مرجع سابق، ص١٣٥، ١٣٦، ٢٦٤ – ٢٨١، ٣١٣ – ٣٣٢.

(٢) سيد قطب، ٤/ ٢٠٤٣، ٢٠٤٩، ٢٠٥٠.

(٣) د. صبري المتولي: مرجع سابق، ص ٥٩ – ٦٣. ويمكن الإشارة هنا إلى أن ابن القيم يؤسس لفكرة بناء المفاهيم القرآنية من =

٢ - أبعاد القيم الكوثرية:

سنحاول رصد هذه الأبعاد، بشكل أولي عبر الإشارة إلى أهم سمات منظومة الأخلاق القرآنية، واستقراء مضامين قيم الحرية والعدالة والإحسان في بعض سور القرآن الكريم، مع الاستعانة بما تستدعيه من مجمل السياق القرآني، بوصفه جملة واحدة، بل كلمة واحدة:

- سمات منظومة الأخلاق القرآنية:

أهمل المستشرقون والباحثون الإسلاميون على السواء التأسيس لعلم الأخلاق القرآني، مما أوقع البشرية في فراغ أخلاقي بالغ العمق، على صعيد كلٍّ من: **التأسيس النظري لمنظومة مبادئ الأخلاقية القرآنية**، وصياغة قواعد تفعيلها في واقع البشرية. ولسنا بصدد الدخول في تفصيلات تلك المنظومة، وإنما نحن أمام لمحة خاطفة حول خصائص وسمات الأخلاق القرآنية التي يلزم التركيز عليها في عملية التنشئة السياسية الإنسانية النطاق.

ويمثل القرآن الكريم اللبنة الخاتمة للوحي الإلهي على مدى حياة الإنسان على الأرض، وهى لبنة مصدقة لما قبلها، ومهيمنة عليه، بمعنى أنها حفظت ما سبقها من الصواب، وصارت هي الكلمة التامة المتممة إلى قيام الساعة، وصاغت عبرة الماضي الإنساني في وحدة لا إفراط فيها ولا تفريط. والبحث في هذه المنظومة يقتضي تحليلًا سياقيًّا للنصوص ذات الصلة بالقيم الإسلامية من جهة، والتفاعلات، ودوائر التأثير المتبادل فيما بينها من جهة، والإطار السلوكي الذي ترسمه لمختلف مجالات الحياة، من جهة أخرى. **ومن أهم خصائص هذه المنظومة:**

أ - الوضوح والمرونة المنضبطة: تتسم القيم القرآنية بالوضوح الذي تنتفي معه الضبابية من حيث المبادئ العريضة، وينفسح المجال في نفس الوقت لدرجة كبيرة من الحرية للفرد والجماعة في التكيف والمواءمة واختيار شكل التفعيل، مما يعزز الشخصية الإنسانية. فلا موضع في بناء تلك القيم للإفراط ولا التفريط من حيث كم وكيف القواعد الأخلاقية. وينصب التحذير القرآني في التعامل مع القيم على عدوين اثنين: الانقياد الأعمى، اتباع الهوى دون بصيرة.

= خلال البحث فيما تدل عليه باللفظ وبطريق التنبيه واللزوم، بأساليب من أهمها: تفسير القرآن بالقرآن، وبالسنة، وبأقوال الصحابة والتابعين مع ملاحظة أن أقوالهم تضمنت التعبير عن الشيء بعينه أو بلازمه أو بنظيره، إلى جانب الاستدلال والاستنباط بشواهد لا يعارضها نص صريح، فضلًا عن البحث في الإشارات والفيض القرآني المنضبط بعدم الخروج عن المدلول المباشر للفظ القرآني في لغة القرآن الكريم، واتفاق مضمونه مع شواهد قرآنية أو نبوية صحيحة، أو على الأقل عدم وجود شواهد قرآنية معارضة له. ومن نافلة القول، أن تطبيق هذه المنهاجية يحتاج إلى مفسر مزود بعدة كسبية ووهبية. فكلما زاد نصيب مستخدم هذه المنهاجية من أساسيات العلوم الضرورية، والإلمام بقضايا واقع الأمة، كلما زادت قدرته على التحليل. انظر في تفصيلات ذلك، المرجع السابق، ص٨٨ - ٩٥.

ب - **العمومية المتجاوزة**: رغم أن الفطرة الإنسانية سليمة في أساسها، فإن بقاء استوائها يظل مرهونًا بمنهج من خارجها يحكمها، مصدره هو اللَّه تعالى. وتستوي البشرية في الخضوع لهذا المصدر. بل إن رسول اللَّه ﷺ هو أول خاضع لذلك المنهج بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤].

ومن أهم خصائص الإلزام الأخلاقي في القرآن الكريم، أن الفرد، والجماعة محكومان في كل أحوالهما بالأخلاق. وللتكليف الشرعي طابع فردي وجماعي، ويستوي الجميع أمامه. فما يرتضيه الإنسان لنفسه، يصير واجبًا عليه لغيره. ولا ينفي خصوص السبب عموم الحكم. ولا موضع لِأَنْ يأمرَ الإنسانُ غيرَه بالبر، وينسى نفسه. والحالة الوحيدة التي لا تطبق فيها القاعدة الأخلاقية هي حالة الضرورة المُلجئة. وتختلف الضرورة الأخلاقية عن الضرورة المادية والضرورة المنطقية. فالقانون الأخلاقي يفترض حيازة الإنسان لحرية الاختيار. ومن خلال التفاعل بين المثل الشامل الأعلى، والواقع، تتحدد خريطة سبيل لضمير الإنسان، تجمع بين: ضرورات ثبات السنن الإلهية، وفرص الإبداع الإنساني، بحيث يظل الإنسان صانعًا لقرار في كل لحظة من لحظات حياته، قدر استطاعته، على نحو يكون معه ضميره حاضرًا ومستعدًّا للنصح وللنصيحة، بل يصير بذلك صاحب ضمير، يشرع له وينقله من: المفهوم الأخلاقي، إلى العمل الأخلاقي، الذي لا يحد حريته، بل ينميها، بما أنه يوفر له ما كان سيضيعه من وقت وجهد في التردد، ويحدُّ من فرص وقوعه في الخطأ، ويفسح له مجالًا للبحث في أنسب طرق رعاية الواجب. ومعنى ذلك، أن القواعد الأخلاقية القرآنية لا تمثل قيودًا، بل تمثل قاطرةً لتنمية الحرية الإنسانية، والإبداع في تطبيق تلك القواعد.

جـ - **الجمع بين كونها قيمة بحد ذاتها وأهميتها في العمران الإنساني**: الأخلاق، في المنظور القرآني فردية وجماعية في آن واحد. بل إن القرآن يعامل الجماعة والأمة على أنها بمثابة فرد، لما تمثله من وحدة في الشخصية. وتقوم الأخلاق القرآنية على: قيمة الأخلاق في حد ذاتها، إلى جانب ضرورتها الاجتماعية، واستدعاء العقل الراشد لها. وتكمل ذلك بالاستناد على قاعدة أن المشرع هو اللَّه، وهو أهل التقوى، الذي تمت كلمته صدقًا وعدلًا، بما يستبطنه ذلك من الامتلاء بالحب للَّه، والإيمان بالجزاء على الفعل الأخلاقي.

د - **أخلاق مسببة**: المتأمل في الوصايا القرآنية، يلاحظ بيسر أن معظمها معلل بشكل صريح، إما بمسوغات موقفية، أو ضميرية، أو باعتبارات مآلات الأفعال. ويركز القرآن الكريم في عملية التنشئة على البعد الإنساني في منظومة الجزاء. فمن تنزل القرآن على قلبه ﷺ، وكان هو المتلقي الأول لها، والذي تجسد فيه بحيث كان قرآنًا يمشي على الأرض،

يعلن أنه لا يفرض دعوته بالإكراه، ولا يبتغي عليها أجرًا إلا المودة في القربى، ويثبت له القرآن الكريم أنه ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب، ولا صاحب هوى، ولا مجنون، وإنما هو حامل: نور اليقين، الهادي إلى الصراط المستقيم، المبلغ لخير الحديث، الممثل لأكبر رسالة موافقة للفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها. ومحط دعوته هو: العمل الطيب. فمبتغاه هو: الأحسن والأعدل، وطهارة القلب وانشراح النفوس، والنهي عن الكذب والجهالة والهوى الجامح وإراقة الدم الإنساني بغير حق، وشهادة الزور. وغاية دعوته هي: اقتحام البشرية بكل أنساقها العقبة بجهد فردي وجماعي أخلاقي، عنوانه: الوسطية والتنافس في فعل الخيرات واستعمال الطيبات، والتواصي بالصبر وبالمرحمة، ووصل ما أمر اللَّه به أن يوصل.

ومن شأن تفعيل هذه المبادئ القرآنية في فضاء عملية التنشئة إحداث تحول نوعي في تلك العملية على صعيد المدخلات والمخرجات، على نحو لا يقف عند حد ترشيد معاملة أمة الإجابة لذاتها، بل يرقى إلى مستوى تكريم الإنسان، بما أنه إنسان، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. ذلك أن كل ما ينال من كرامة الإنسان هو بمثابة انحراف عن الصراط المستقيم، وسقوط في دائرة العمى والصمم والجهالة، التي يتدنى معها الإنسان إلى مرتبة أدنى من مرتبة الكلب. والخلق هو صفة في النفس، في جانب القصد والإرادة، لا في جانب العقل والعاطفة. بمعنى آخر يتعلق الخُلق بنوع من الأهداف الإرادية، التي ينشأ عن اختيارها وصف يعود على النفس بأنها: خيِّرة أو شريرة. أما السلوك فهو أسلوب ترجمة الخُلق إلى عمل. ولكي يكون العمل علامة على خلق صاحبه، بما يعني تحويل القيم إلى سلوكيات، يلزم توفر عنصرين: تكرار الأعمال على نسق معين حتى تصير بمثابة عادة مستقرة، وتوفر علامات على أن تلك الأفعال نابعة من النفس، وليست ناتجة على نحو متكلف من مؤثر خارجي. والخلق قد يكون كامنًا، ويحتاج إلى بواعث لظهوره إلى حيز الوجود في عادات مستقرة. والأخلاق فطرية بدرجة ما، ويمكن اكتسابها وفقدها بدرجة ما أيضًا.

هـ - كثيفة المراقبة:

يتبنى المنظور القرآني مفهومًا رحبًا لمراقبة الظروف الموقفية، في تفاعلها مع السلوكيات الإنسانية. فهو يضع المؤمن أمام إحساس بأن اللَّه مطلع على سره وعلانيته، وأن الملائكة الحفظة، والكرام الكاتبين مرافقون له على الدوام. وهذا هو جوهر عملية استحضار الجزاء. وقد يجد المرء نفسه حسب قابليته للمسئولية في مواجهة كافة الظروف الموقفية، **في واحد من أربعة أنواع من الذوات الإنسانية:**

أولها: صنف يجد نفسه في موقف المستحضِر لمعية اللَّه والحفظة، الملتزِم بأمر اللَّه، المستمِد منه لمدد لا ينضب، يتلاشى في ظله الإحساس بالضعف في قيامه بأمره. فهو يشعر بقوة مستمدة من تفكيره الدائم في اللَّه في لحظة العمل، ومن إحساسه بالارتياح وجاذبية الحب، المتأسسة على الإيمان بأن اللَّه يراه، حتى وإن لم يكن هو يراه.

وثانيها: صنف يجد نفسه في موقع الملتزم بأحكام الشريعة، المعرض في نفس الوقت للوقوع في الخطأ، المحتاج إلى من يدفعه عن مواطن الشبهات والمغريات بالخطأ.

وثالثها: صنف يجد نفسه في موقع من يقترب من الخطأ، ويغلب على صحيفة عمله العمل السيئ، ويحتاج إلى المنع، أكثر مما يحتاج إلى الدفع، ويكون في حاجة إلى برهان ربه الذي يغذي فيه الحياء من اللَّه، ليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، ويتذكر الموت والبلى، ويؤثر الآخرة على الأولى.

وفي حين يحتاج الأول إلى التمكين لحاسة الحب في اللَّه والحب للَّه، يحتاج الثاني إلى تعزيز الدافعية للخروج السريع من الخطأ، بينما يحتاج الثالث إلى درجة من الوعي تعزز الإحساس بالحاجة إلى استعادة الفطرة السليمة.

أما الصنف الرابع: فيشمل كل من لم يدخل في الإسلام. ويظل هذا النوع بحاجة إلى استثارة فطرة الإنسان العاقل الكامنة في عمقه، وتنشيطها، والأمل في حسن الخاتمة له، ما دام على قيد الحياة.

ويُستفاد من الطرح السابق: أن المسئولية أبعد ما تكون في المنظور القرآني عن كونها دليلًا لإثبات التهمة والإدانة. إنها بالأحرى، وسيلة لتعزيز القدرة على استعادة الفطرة الصحيحة، واستحضار مآلات الأفعال. ومن هذه المآلات ما يتعلق بالخير الفردي، ومنها ما يتعلق بالخير العام، في العاجلة، وفي الآخرة، مع التربية على اعتبار الجزاء الآجل الأدوم، خير من الجزاء العاجل المنقطع بعد حين.ويؤسس ذلك للتنشئة على الرؤية المستقبلية الواسعة الأفق القادرة على ربط الماضي بالحاضر بالمستقبل، وربط الدنيا بالآخرة. ومن بين ما يشير إليه القرآن الكريم في هذا الصدد، من جزاء معنوي، الحديث عن: حسن المآب، الفوز، العيشة الراضية، الأمن وعدم الخوف، السعادة، انتفاء الحزن والخزي، المقام السعيد، الجنة الراضية، الظل الممدود، الروح والريحان. وينبه القرآن الكريم إلى أن المتع الأخلاقية متدرجة، وفى ذروتها: رضوان من اللَّه أكبر، وفضل من اللَّه ورحمة خير من كل ما تجمع البشرية. ومن الملاحظ أن القرآن الكريم لم ترد به أية إشارة إلى معاشرة الرجال للنساء

في الجنة. فقط يشير إلى حياة جامعة بين الرجال والنساء، عنوانها هو: الحب المتبادل، والطهارة، والإنشاء الجديد، حيث لا تعلم نفس ما أُخفى للصالحين فيها من قرة أعين.

وفي المقابل، يشير القرآن الكريم إلى عقوبات أخلاقية سلبية، تعلو فيها مرة أخرى، العقوبات المعنوية على العقوبات البدنية، حيث يشير القرآن إلى: خيبة الأمل، وحبوط الأعمال، والحرمان من النور، واليأس من - رحمة اللَّه -، والهوان، والخذلان، والنسيان، والخسران، وعدم تفتح أبواب السماء، وحمل الأوزار على الظهر، وعلو الظلمة والغبار، في مقابل الإشارة إلى: النار الحامية الموصدة[1].

و - **موافقة للفطرة وقابلة للاكتساب**: يعتقد فريق من البشر، باستحالة تغيير الأخلاق أو اكتسابها. وحجتهم في ذلك، أنه كما أن الإنسان لا يستطيع تغيير خلقته من الدمامة إلى الوسامة، فإنه لا يستطيع أن يغير فطرته من الشرية إلى الخيرية. وحجة هؤلاء مناقضة لمنظور القرآن الخاص بإمكانية تغيير الإنسان ما بنفسه. كما أن الواقع يرد عليها. فلقد تمكن الإنسان من ترويض الحيوانات والطيور وتغيير طبائعهم. وليس ثمة ما يمنعه من ترويض غرائزه. وكما أن الإنسان يهذب شعره وأظافره، فليس ثمة ما يمنعه من أن يطهر باطنه ويزكيه. ومجال الجهاد الأخلاقي مفتوح أمام الإنسان صاحب الفطرة القابلة للكمال، غير المستجمعة له، إلا بالفعل الإنساني. والمرء لا ينشئ نفسه خَلْقًا آخر، وإنما يهذبها ويعالجها ويزينها. ومع الإنسان من فطرته ما هو بمثابة كلبين: كلب الصيد (المتمثل في غريزة الشهوة، الذي يبعثه في طلب طريدته) وكلب الحراسة (الذي يتمثل في غريزة الغضب، الذي يدفع به اللصوص عن نفسه، وعن من يعولهم). وليس من الحكمة في شيء أن يقتل الإنسان، أيًّا من كلبيه هذين. فقط، عليه أن يُعَلم كلب الصيد أن لا يتعقب ما لم يأذن اللَّه له بصيده، ولا يأكل مما أمسكه عليه إلا بذكر اسم اللَّه عليه، وأن يُعَلم كلب الحراسة، أن لا ينبح إلا في وجه الطغيان والظلم.

والطباع نوعان: سجايا فطرية قاصرة على نفس صاحبها، لا تدعوه إلى فعل الخير ولا لفعل الشر، وهي بمثابة قوة كامنة، لا قيمة لها إلا بتفعيلها. وسجايا حافزة للإنسان لفعل الخير أو لفعل الشر. ويجب التمييز في نطاق الأخيرة بين الإيحاء، وبين قبول الإيحاء. الأخير فقط هو المؤسس للمسؤولية، والذي على أساسه، يتنصل الشيطان، في نهاية المطاف من مسئولية الإفساد الإنساني في الأرض، ويحملها على الذوات الإنسانية التي قبلت من قبلُ مختارةً ما أوحى به إليها من زخرف القول غرورًا. وفى بيان ذلك، نقرأ قول اللَّه تعالى:

---

(١) د. محمد عبد اللَّه دراز: دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، تعريب وتحقيق وتعليق: د. عبد الصبور شاهين، مراجعة: د. السيد محمد بدوى، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقد تؤدي العوائد الشخصية والوراثية، وأعراف المجتمع إلى تولد عادات مستقرة في سلوك الإنسان غير معبرة عن الطبع الحقيقي الكامن في جوهره، ومن شأن عملية تنشئة تحرك وعيه بطابعه الإيجابي المغاير لذلك الذي حركته العادات والتقاليد فيه، أن ينفسح المجال للتمكين لقابليته للتغيير بالتربية والتهذيب، عبر جهاد النفس الذي يحيي فيه الحرص على ما ينفعه، واستبعاد الإحساس بالعجز، عبر الاستعانة باللَّه تعالى.

ز - **واسعة الأفق في نظرتها للواقع**: يشمل مفهوم الواقع - في ظل هذه المنظومة - فضاء الماضي والحاضر والمستقبل، على صعيد ما هو كائن، وما كان، وما سيكون، من مبادئ ومعانٍ وأنماط سلوكية. والإنسان على نفسه بصيرة، حيث يتمتع كل إنسان بحاسة التمييز بين الخير والشر. ويحتاج الإنسان إلى المنهج الإلهي ليحسم النقاط التي لا تمثل شرًّا محضًا، ولا خيرًا محضًا، وتنطمس فيها معالم تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود. فمهمة الرسل هي إتمام مكارم الأخلاق، ورسم طريق الهدى في ترتيب الأولويات حينما تتزاحم وتتعارض. ومن هنا فإن الوحي يضيف إلى النور العقلي، ما يتممه، بحيث يصير المرء مستعينًا بنور على نور. ولا يُغْفِل هذا المنظور عقلَ الإنسان ووجدانه، بل يتخذهما شهيدين لما جاء به الوحي.

فالقرآن يقرر أن البشر فُطروا على التوحيد، ولديهم بصيرة كاشفة، إلى حد أن الحق يقول: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الطور: ٣٢]، معتبرًا عدم إعمال العقول في الحكم على الأمور، مدخلًا للإصابة بالطغيان. والنور القرآني لا يلغي النور العقلي، بل يغذيه ويكمله، ويحميه من الوهم والشبهة، ويسد دائرة ما لا دخل للعقل فيه بإطلاق كالعبادات. فنور الفطرة ونور الوحي يتكاملان، في شريعة لا موضع فيها للإكراه، ولا للتغيير إلا من أعماق الضمير الإنساني، الذي يلازم الإنسان في دنياه وآخرته، مصداقًا لقول اللَّه تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣].

ح - **متسامية في تصورها لمنظومة الجزاء**: فكل أشكال الجزاء، في منظورها، لا تعدو أن تكون مظاهر لرضا اللَّه أو سخطه، كخلاصة لقيمة الفعل الإنساني، واللَّه يقول: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود: ٨٦]. فالفضيلة قيمة بحد ذاتها.

وذروة التربية الإنسانية هي: الإخلاص في ابتغاء وجه اللَّه. ومدار التربية في منظورها هو: التصدي بفعل إنساني إرادي للمؤثرات السلبية على سلوك النشء، وفي مقدمتها: البيئة الفاسدة، والأعراف الفاسدة، والقدوة الضارة. وعلى الأرضية التي تتطهر من هذه الموانع، يجري التأسيس للتربية على وحدة الغاية، والتوفيق بين وسائل بلوغها، وإعلاء صرح المعنى المشترك الذي جاءت به كافة الأديان، بما أن الإسلام هو دين اللَّه، من بداية الكون إلى نهايته.

ومن الشواهد على هذا الجذر الجامع بين البشر، يأتي تحديد مهمة الرسل بالبلاغ الذي لا إكراه فيه ولا معه، وتفويض أمر العقيدة للَّه تعالى، وحظر مناوشة المخالف أو التضييق عليه في أمور الدنيا، والأمر بالبر إليه والعدل فيه، ما لم يبتغ الفتنة في الدين، وبذل غاية الجهد من أجل تحاشي الحرب، والجنوح للسلم حالة جنوح الخصم لها، والالتزام بمبدأ عدم الاعتداء في حالة الحرب، وبالإحسان في إنهاء آثارها.

والرمز الذي أقامه النبي ﷺ في حسم الخلاف بشأن وضع الحجر الأسود، وفي الاشتراك في حلف الفضول، يتعانق مع رمز الجمعة والجامع، ومع الرجاء الذي يؤسسه القرآن الكريم، في إمكانية تبدل العداوة إلى محبة، بين أمة الإجابة والمبتغين للفتنة، في قوله تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الممتحنة: ٧]، مما يبرهن على أن عنوان الدعوة الإسلامية هو: الوئام الإنساني. فالمسلم لم يحمل السلاح أبدًا ليفرض عقيدته، إذ هو مأمور بحراسة قاعدة: لا إكراه في الدين. وخبرة الحديبية تؤكد أن الإسلام يدعو إلى تفضيل الصلح التفاوضي المجحف في شروطه، على الحرب، صيانةً للأرواح والمال وكرامة الإنسان، وصلة الرحم. كما تؤسس تلك الخبرة لأخلاقية عدم التوقف عند الشكليات في العمل الصالح، وللالتزام الصارم بالعقود[1].

ٱلۡمَبۡحَثُ ٱلثَّالِثُ
الأطر المنهجية للأسوة الحسنة

يقف مقصود هذا المبحث عند مجرد الإشارة إلى خطوط عريضة، لأطر منهجية للتعامل

(١) وواقع الأمر، أن الكثير من المفاهيم والمبادئ سالفة الذكر، راحت ضحية للتعليم القشري المستند على حواشي المتأخرين، والذي تولدت عنه أعراف وعادات سقيمة، استحكمت في الأمة في لحظة ضعفها، واشتبهت عليها، ووقعت معها في التطفيف، بإهمال آيات اللَّه في الأنفس والآفاق. د. محمد عبد اللَّه دراز، دراسات إسلامية... مرجع سابق، ص ٨٨ – ١٨١.

مع القرآن، وكتب الحديث، والسيرة، وامتلاك مهارة انتقاء مجموعة من أصح الأحاديث المتواترة، والبحث في حقولها الدلالية ومضامينها السياسية، وتفعيلها، كأحد متطلبات الأسوة الحسنة بالقرآن والنبي ﷺ في حقل التنشئة السياسية، سواء على صعيد عملية التنشئة، أو تأسيس علم التنشئة الإنسانية.

ولقد شيدت الجماعة البحثية الإسلامية المعاصرة، مجموعة من الأطر المنهجية، بجهود بحثية فردية وجماعية، تدعو هذه الدراسة إلى تعميقها وإشاعة المعرفة بها في أوساط الجماعة العلمية، للتأسيس عليها، في بناء أفق الأسوة الحسنة بالقرآن والسنة النبوية، والقراءة الصحيحة لعطائهما، كأحد المداخل المهمة للتنشئة السياسية الإسلامية. ومن نافلة القول الإشارة إلى أن ريادة القرآن والسنة كمصدرين للأسوة الحسنة في مجال التنشئة الإنسانية، لا ينفي أن الاستفادة منهما تتوقف على مدى امتلاك أسباب القراءة الصحيحة والفهم المستقيم. **وفيما يلي فكرة موجزة عن أبعاد بعض هذه الأُطر، التي لا تزال أولية وبحاجة إلى المزيد من الصقل والتطوير:**

أولًا: منهاجية الإثراء الفطري:

تتأسس هذه المنهاجية على ضرورة مراعاة المخطط لعملية التنشئة السياسية والباحث في حقلها **لمبادئ خمسة**، هي:

١ - الإسلام هو نواة الاعتدال في حالة الاعتلال التي تعاني منها الأمة:

ينطلق منطق هذا المبدأ من حقيقة أن اعتلال الحياة في الأمة بوصفها شبيهةً بالكائن الحي، يدعم بقية من الصحة في بنيانها، مؤسسة على: نواة الشخصية المسلمة، العابدة للَّه، والمتسمة بالتقوى والإحسان، والتي تتخذ من السياسة موقفًا قوامه: الوعي العقلي والقلبي بالتاريخ، والقدرة على النقد، وعلى الرفض، والجمع بين الثقة بالممكنات، والثقة المصيرية الواعية بما يمكن أن نسميه: قراءة القلب التاريخي للأمة، النابذة للقراءة الخارجية، التي تجعل الأمة تدرك أن في قلب كل هزيمة نصرًا، و تمكنها من الرجاء ببصيرة تنفذ إلى العمق الحقيقي للذات، متحررة من كل دواعي اليأس والقنوط من رحمة اللَّه [(١)].

٢ - مركزية مفهوم الأمة الحرة:

الأمة الحرة هي الوجه الآخر للتوحيد، وهي مؤشر تفعيله في العمران الإنساني. و تتسع التنشئة السياسية في ظل هذا المعنى لتشمل: عملية بناء الوعي السياسي المؤسس للإنسانية

(١) د. سيد أحمد عثمان: التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجي، القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٨٩م، ص٨ - ١٧.

الحرة والمحرك لها، على صعيد أمتَيِ الإجابة والدعوة، على الحرية التوحيدية بوصفها ركن الأساس لكلمة سواء بينهما [١].

٣ - تأسيس الوعي على القراء البديلة:

يلزم لتفعيل الأسوة الحسنة في القرآن والأمة، في عملية تنشئة منبثقة من الرؤية الكلية الإسلامية، السعي إلى إبداع، وصقل، وتعميم الوعي، بأدوات القراءة بسم اللَّه، التي تعزز الوعي النقـدي البنَّاء والهادف بالمنطلقات والغايات والأهداف الرئيسة للأمة، والقدرة على الوصف، والتفكيك وإعادة البناء[٢].

ومن المحطات الكبرى لهذه القراءة: تجاوز التعامل الوجداني، ودائرة الخطاب المأزوم، وتأسيس معايير بناء الأجندة البحثية على الوعي بالأجندات المفروضة، والأَوْلى بالدراسة، والوعي بمستويات خريطة بناء المفاهيم من أرضية إسلامية.

وتؤسس هذه القراءة لفقه الفطرة الإنسانية السوية وتساهم في تنمية وعي القائمين على عملية التنشئة، بالإشكاليات الأَوْلى بالدراسة والاهتمام، بما يساهم في تنشئة نوعية منهم جديرة بأن تحمل أمانة هذا الثغر المعرفي. ومن أهم الخطوط الإرشادية التي يجب أن يهتم بها من يطبق هذه المنهاجية، البحث في نطاق: التأسيس لترشيد العلاقة بين الفرد والكون الاجتماعي، في ظل أنساق مجتمعية متشابكة تبدأ بالأسرة، وتنتهي بالأسرة الإنسانية في كل زمان ومكان، والتدقيق في مستويات سلوك الذات الإنسانية في فلكها الاجتماعي والإنساني[٣].

---

(١) د. صلاح الدين أرقه دان: التخلف السياسي في الفكر الإسلامي المعاصر، بيروت: دار النفائس ٢٠٠٢م، ص ١٥، ١٨ - ٤٥، ٨٢، ٨٣، ٢٠٩ - ٢١٦. وانظر في التأسيس الفكري لقيمة: الحرية التوحيدية، د. السيد عمر: التنشئة السياسية لدى مدرسة المنار، مجلة النهضة، القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، يناير ٢٠٠٤م.

(٢) د. سيد أحمد عثمان: التحليل الأخلاقي للمسئولية الاجتماعية، القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٩٦م، ص٤٠ - ٥٩.

(٣) انظر في التفاصيل: د. منى أبو الفضل: خطاب المرأة والنهضة والقراءة: بعض الإيضاحات والإشارات حول المنطلقات المنهجية، ملحق البحث المقدم في مؤتمر: مئوية قاسم أمين وتحرير المرأة، ٢٤ أكتوبر ١٩٩٩م، القاهرة: جمعية دراسات المرأة والحضارة، ص٢ - ٩. وراجع في تفكيك النظريات الاجتماعية المعاصرة، وبناء نظرية اجتماعية إسلامية بديلة، تحقق استعادة وحدة المعرفة المتراحمة، وتعزز مناعة الباحث المسلم ضد (الفتنة بالمنهج) وتمكنه من الحذر من ظاهرة: النفاق المنهجي الصريح أو الضمني الذي قد يأخذ أحد شكليه: النقد على صعيد الخطاب مع التقليد على صعيد الفعل، أو التزام الصمت على الصعيد الفعلي، دراسة لنا تحت النشر: د. السيد عمر، تقويم منهاجية إسلامية المعرفة في ربع قرن، ضمن: تقويم إسلامية المعرفة في ربع قرن، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٥م، والمنهج الذي ترسمه هذه الدراسة لتحقيق تلك المناعة هو العودة إلى مرتكزات (القراءة بسم اللَّه) الأربعة: لماذا تسعى الأمة إلى المعرفة؟ ما المعرفة التي تمكنها من تحقيق ما تسعى إليه؟ ما ضوابط هذا السعي؟ كيف تتصرف في ثمرة المعرفة بعد حيازتها؟ وتستدعي تلك القراءة مثلث: الإخاء الإنساني، التعارف الإنساني، التفعيل الحضاري، وذلك وصولًا إلى: تمكين اللَّه في الأرض للأمة الواحدة الحرة، والتصحيح الحضاري، عبر التوبة النصوح. والسبيل إلى مداومة هذه القراءة هو: =

٤ - التمكين للفطرة الإنسانية السوية:

جوهر وظيفة التنشئة السياسية هو: التبصرة بأن من يتوقف يتقهقر، وجوهر رسالة الإنسان هو: استشراف آفاق الكمال الذاتي والجماعي عبر استحضار خصائص الفطرة الإنسانية.

ومقتضى مراعاة هذه الوظيفة هو: التركيز في التخطيط للتنشئة السياسية على: خصائص الإنسان الرباني في مقابل خصائص الإنسان الطبيعي كما تُصَوره الاقترابات الغربية. فالسؤال المفتاحي الذي يجب أن يثيره الباحث في حقل التنشئة السياسية من منظور إسلامي يتعلق بـ: قابليات الفطرة الإنسانية البدنية والمعرفية والتعاطفية والأخلاقية والجمالية والدينية، وأهم خصائص الاستعداد الفطري لدى الإنسان، على صعيد التزكية والإيثار والعمران، وموقع قابليات التدين كناظم لما عداها من القابليات، وآليات وسبل الوعي بها وتعزيزها، وتمثلها.

وتحتاج القراءة الصحيحة للقابليات الإنسانية، إلى تحرير العقل الإسلامي من أربعة اقترابات معاصرة مريضة: الاقتراب البيولوجي، واقتراب النسبية، والاقتراب الآلي، والنزعة الاختزالية، والتركيز على أبعاد توجهات الإنسان في تفاعله مع ذاته ومع الوجود المحيط به، على مدارج تبدأ بـ: الدهشة الناجمة عن انفعاله بالظواهر، لتمر بـ: التساؤل الباحث عن إجابة منظمة، ثُم: الاستكشاف الذي يمثل محاولة للفهم المنهجي للظواهر المراد تحليلها، حيث يتحرى الباحث الخضوع لمنطق الظاهرة بهدف تحليلها وتفسيرها وتقويمها، وضبطها والتنبؤ بها، وصولًا إلى: نظرة الاستغراق، التي يتعانق الباحث في رحابها مع الثمرة التي أنتجها بحثه، و يسعى من خلالها إلى الترشيد السياسي.

ومما ينبغي التركيز عليه على مستويات: التساؤل والاستكشاف والاستغراق، البحثُ عن موجِّهات إثراء الفطرة الإنسانية السوية، وبالأخص: البحث في خلاصة التجارب التربوية، والحكمة والبصيرة الحدثية للأمم عبر الزمان والمكان، والوعي بأنه لا حتمية ولا نهائية في العلم، والتدقيق في سبل وآليات صيانة الفطرة، والإعداد للأمومة وللأبوة وللأخوة، والتعمق في محددات صيانة الفطرة في إطار الأسرة، ثم في الأطر المجتمعية الأخرى،

= مداومة الطواف حول نواة المنهاجية الإسلامية الصحيحة، وكعبتها وهي: المعايرة بالناظم التوحيدي الجامع.. وقارن مع مرتكزات النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم، والتي يحددها د. محمد دراز بـ: الإلزام والمسئولية عن اختيار، والجزاء، والنية، والجهد الإنساني بمستوييه: جهد المدافعة، والجهد المبدع، د. محمد دراز، دستور الأخلاق في القرآن الكريم، تعريب وتحقيق وتعليق: د. عبد الصبور شاهين، مراجعة د. السيد محمد بدوى، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م، ص ٥٨٦، ٦٣١ - ٦٧٦.

كدور التعليم والعبادة، ووسائل الإعلام والمنتديات، والمعالم الأساسية لموازين حرية الإنسان على الصعيد البيولوجي، والإدراكي، والبدني، والوجداني، والأخلاقي، والميزان الديني المتعلق بالحرية التوحيدية، الممثل لميزان العدل بينها.

٥ - امتلاك الضمير الواعي:

بؤرة هذا المبدأ، هي استعادة الوعي بالأصول المرجعية للنظام المعرفي الإسلامي. فالفصل بين الدين والدنيا ليس هو أصل الأشياء. وموضوع الهوية الحضارية يجب أن يكون معيارًا للسلوك وليس موضوعًا له. وعلى الباحث أن يستخدم الضمير الحاضر، وينبذ الحديث عن نفسه بضمير الغائب، وعليه أن يعاير العملية البحثية برمتها بالسياق الكلي الحضاري الإسلامي، وأن يتجنب السقوط في القراءات المريضة.

ومفتاح امتلاك هذا الوعي هو: التحرر الفكري والنفسي من هيمنة الاستئساد الحسي في مناهج البحث العلمي الراهنة ذات التوجه الغربي، واستبدالها بمحاولة للتحليل السياسي الرصين المتأني المنظم لبيئة الظاهرة الإنسانية. فالعمل البحثي عملية كشفية تتجاوز وصف الظاهر المحسوس إلى العمق. وهو عملية تصورية تقوم على نشاط ذهني خالص من جانب الباحث. وهو عملية متأنية، بما أن العجلة تنفي الصدق عنه. وهو عملية منظمة تصدر عن خطة ومنهج يرافقها في كل مراحلها. وهو أخيرًا عملية كاشفة ذات طابع إبداعي على صعيد بنية الظاهرة ووظيفتها ومعناها.

ويقوم الباحث في ظل هذه المبادئ الخمسة، بتنقية التنشئة السياسية الإسلامية من العناصر الدخيلة عليها، واستكشاف مفتاح تماسك بنيتها، في ضوء ما بينها من علاقات متعددة المستويات، مع التدقيق في هرم تراتبية تلك المستويات المتدرجة من المستوى الأعمق وهو أساس البنية، مرورًا بالأوسط وهو ظاهرها، وصولًا إلى الأعلى وهو مثال كمالها الذي تتجه بحركتها نحوه، بتعميق الحس بالوجهة والقصد والرؤية المستقبلية والضمير التحليلي المتجاوز لما هو كائن، والصبر التحليلي، والتدقيق في خصائص الأمة وملامح منظومة قيمها، على مستوى المبادئ، وعلى مستوى الممارسة السياسية، وعلى مستوى العبرة المستفادة، للتعامل مع تلك المستويات المترابطة، وتلمس الأدوات والأساليب البحثية اللائقة بكل مستوى، بحيث يخضع الباحث لمنطق الظاهرة التي يبحثها، ويتجنب لَيَّ عنقها، ويدعها تنطق بمدلولاتها وتكشف عن أسرارها[١].

(١) سيد أحمد عثمان: التحليل الأخلاقي للمسئولية الاجتماعية، القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٩٦م، مرجع سابق، ص٤٠ - ٥٩.

ثانيًا: منهاجية تحليل القيم:

قدم أستاذنا الراحل العلامة حامد ربيع، منهاجية تأسيسية لتحليل القيم السياسية، التي هي قطب الرحى في عملية التنشئة السياسية. وأفرخت مدرسته الفكرية العديد من الاقترابات النابعة من تلك المنهاجية، والمنفتحة في ذات الوقت على العديد من المحاولات الأخرى الرامية إلى بناء منهاجية إسلامية بديلة للتحليل السياسي. ودون دخول في تفصيلات لا يتسع لها المقام، **يمكننا الإشارة إلى أهم معالم هذه المنهاجية، والاقترابات البحثية المنبثقة منها، كما يلي:**

أ - بناء مفهوم القيم:

يتأسس هذا الخط التوجيهي على التحرك على محاور أربعة في بناء مفهوم القيم الوثيق الصلة بعملية التنشئة السياسية: بناء المفهوم في اللغة (العربية واللغات الأخرى التي يستطيع الباحث البحث بها)، وفي الاصطلاح (وبالأخص في النسق المعرفي الغربي، ونظيره الإسلامي)، وفي الشرع (من خلال محاور الرؤية المعيارية الإسلامية للقيم السياسية بأبعادها الخمسة: العقيدة السياسية، والتخطيط السياسي، الفكر والنشاط السياسي، عملية التنبؤ السياسي، عملية الترشيد السياسي)، وعلى الصعيد الإجرائي بالتمييز بين وضعيات ثلاث للقيم السياسية (القيمة كمبدأ ناظم للوجود السياسي، والقيمة كنظام متجسد في أعراف وأطر مؤسسية، والقيمة كتطور سياسي ناتج عن التفاعل بين الوضعيتين السالفتي الذكر)، والوعي بحاجة التحليل السياسي للقيم إلى المنهاجية التجريبية على صعيد الوصف، على صعيد بناء منظومة القيم، وشبكة العلاقات بينها، والتنبؤ السياسي، وإلى المنهاجية الكفاحية المجسدة لحمل الباحث لهموم أمته، واعتبار العلم وسيلة لغاية، هي في المطاف الأخير: عزتها وكرامتها والتمكين لها، فيما يتعلق بسبل ترشيد تعاطي الواقع السياسي مع منظومة القيم الإسلامية[1].

ب - منهاجية الأنساق المتقابلة:

أسست أستاذتي الدكتورة منى أبو الفضل، أحد أهم رموز الجيل الأول من تلاميذ مدرسة حامد ربيع، تلك المنهاجية، وأقامت - بامتلاكها ناصية بها عبر التعامل البحثي المباشر مع النسقين المعرفيين الغربي والإسلامي، أو بالأحرى مع ما تسميه: النسق المتذبذب، والنسق التوحيدي - البرهانَ على الحاجة إلى نظرية اجتماعية بديلة.

---

(١) انظر: د. حامد ربيع: أبحاث في النظرية السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٧٠م.

ودون دخول في تفصيلات لا يتسع لها المقام، يمكن القول بأن هذه المنهاجية تقوم على التحليل السياسي المقارن للرؤية الكلية الإسلامية، في مقابل الرؤية الكلية الغربية على صعيد الوصف والتفكيك، ورصد شبكة العلاقات، وبناء الفرضيات العلمية، واختبارها في معمل الحاضر والماضي، وتأسيس قواعد سياسية لا زمانية ولا مكانية، يمكن في ضوئها طرح موجِّهات ترشيدية للظاهرة السياسية بكافة أبعادها، ومن بينها البعد الخاص بالتنشئة السياسية، وإعادة الاعتبار لعلم السياسة، والقراءة المنهجية للفكر الإنساني بكل روافده[١].

وتؤسس هذه المنهاجية لقدرات النقد الذاتي البنَّاء لحالة المنهاجية في واقعنا المعاصر، وتصب في مَعينها محاولاتٌ عديدة جادة ترمي إلى: التخلص من الجانب الميت في الفقه الإسلامي، وتجاوز حالة عدم التوازن في اهتمام كتب المنهاجية الإسلامية بمعرفة مصادر البحث وكيفيته وشروطه، وغربلة السنة النبوية، وتطبيق منهج التعديل والتجريح على الحوادث التاريخية، وإعادة النظر في أولويات كليات الشريعة بحيث تركز على نظام الجماعة، ومعالجة الإشكاليات التي تؤدي إلى العجز عن تأسيس قاعدة معرفية تناطح نظيرتها الغربية في حقل المنهج، وبالأخص الإشكاليات المتعلقة بتفسير القرآن وعلاقته بالعلم الحديث، ومناهج وطرق تدريس علوم الشريعة الراهنة، والتعامل مع التراث، والثنائية التعليمية المستدعية للمنهجية الغربية، والحاجة لإمكانية ربط العلوم الاجتماعية بالإطار الحضاري الإسلامي، وتداعيات مقولة تناهي النصوص وعدم تناهي الحوادث المولِّدة لحالة التيه في فضاء منهاجية إسلامية المعرفة، التي تصل إلى حد وضعها في دائرة المتغيرات، والتأسيس لأخلاقيات المنهج الإسلامي في البحث، وبناء الرؤية الشاملة لما قبل المنهج، واستكشاف هرم مصادر التنظير الإسلامي عن وعي بخصائص الخطاب القرآني في عملية بناء المنهاجية الإسلامية، وأسس إحياء الفكر المؤسسي المجتمعي، والنهوض الحضاري والعقدي، والوعي بضوابط التعامل مع السنة النبوية، واستلهام وظيفة نظرية المعرفة كمرآة للوعي الجمعي على صعيد العقيدة والمواقف السياسية والهوية المشتركة، وامتلاك متطلبات

(١) ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى مراجع عديدة من أهمها: د. سيف الدين عبد الفتاح: مدخل القيم: الإشكالية ومحاولة التأصيل، المسلم المعاصر، أغسطس ١٩٩٨م، يناير ١٩٩٩م، د. منى عبد المنعم أبو الفضل: نحو منهاجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م، د. إسماعيل الفاروقي: صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨٩م، د. إبراهيم عبد الرحمن رجب: منهج التوجيه الإسلامي للعلوم الاجتماعية، المسلم المعاصر، مايو ١٩٩٦م، د. منى أبو الفضل: الأمة القطب، نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م، د. محمد محمد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١م.

الوعي بطبيعة الإشكاليات المعاصرة، ومتطلبات منهج تطبيق الشريعة عليها، وفهم التراث الإسلامي من داخله، مع الوعي بضوابط إعادة غربلته، وإعادة قراءة المفكرين المسلمين من داخل المنظومة الإسلامية ذاتها، وربط العلوم الاجتماعية بالإطار الحضاري الإسلامي، واستعادة وحدة المعرفة، والتخلص من حالة الانفتاح على الآخر من موقع الانبهار به، والازدواج التعليمي المفرِّخ لفقدان الوعي بالهوية، والوعي بضرورة إعادة الالتقاء والتلاحم بين كافة المشارب الفكرية الإسلامية، والتكامل بين ما أفرزته العقلية المسلمة من مناهج تشمل المنهج الأصولي، ونظريات علم أصول الفقه[١].

ثالثًا: منهاجية التحليل الاستقرائي السياقي للقرآن الكريم:

جوهر هذه المنهاجية هو تجاوز التعامل مع آيات القرآن الكريم باعتبار كل منها وحدة تحليلية قائمة بذاتها، على غرار ما عرفته معظم التفاسير القرآنية التي بين أيدينا، والتعامل مع القرآن الكريم على أنه بمثابة جملة واحدة، بل كلمة واحدة، يجب في حالة بناء المفاهيم السياسية، والتأسيس لبناء منظومة القيم، ورسم معالم التنشئة السياسية، من مرجعيته – النظرُ في السياق القريب لمادة المفهوم أو القيمة، وفى سياق القرآن كله، والتركيز على الكليات من أجل استخلاص السنن السياسية اللازمانية واللامكانية الضابطة لكافة أبعاد ظاهرة العمران الإنساني[٢].

رابعًا: الوعي بدلالات مصطلحات علماء الحديث النبوي:

المصدر الأهم للعجز عن تفعيل السنة النبوية الصحيحة في عملية بعث حسي ومعنوي

---

(١) بين أستاذنا الدكتور علي جمعة: أساسيات ثماني نظريات مهمة، منها هي: نظرية الحكم عند الأصوليين، ونظرية الحجية، ونظرية الثبوت، ونظرية الدلالة، ونظرية القطعية والظنية، ونظرية الإلحاق، ونظرية الاستدلال، ونظرية الإفتاء، انظر: د. علي جمعة: الطريق إلى التراث، القاهرة، نهضة مصر للترجمة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

(٢) انظر محاولة لتطبيق هذا الاقتراب في: د. السيد عمر: الأنا والآخر في المنظور القرآني، مشروع: التأصيل النظري للدراسات الحضارية، العلاقة بين الثقافة والحضارة والدين، برنامج حوار الحضارات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٤م، ونود القول بأن رائد هذه المنهاجية هو أستاذنا الدكتور محمد عبد اللَّه دراز. انظر: د. محمد عبد اللَّه دراز: النبأ العظيم، مرجع سابق.

وقام الباحث بتطبيق هذه المنهاجية في دراسات أخرى عن التنشئة السياسية والوالدية في المنظور الإسلامي. وتتعانق هذه المنهاجية مع كل من: اقتراب المقاصد الشرعية، واقتراب التحليل النفسي، انظر: د. سيف الدين عبد الفتاح، مدخل القيم الإشكالية ومحاولة التأصيل، المسلم المعاصر، أغسطس ١٩٩٨م، يناير ١٩٩٩م، د. سيف الدين عبد الفتاح: المدخل النفسي في تحليل الأسرة: محددات التنشئة الاجتماعية والسياسية، ضمن: مؤتمر الأسرة في المجتمع: تشخيص للمشكلات واستكشاف سياسات المواجهة، القاهرة، كلية آداب عين شمس، مركز الدراسات المعرفية ٢٠٠٤م. وترتبط هذه المنهاجية أيضًا بمنهاجية التحليل النفسي المفهومي لبناء الصورة الإدراكية، واقتراب بناء الدور السياسي لشتى الأنساق السياسية، وركائز المناعة الحضارية، والتحليل السياسي الكيفي المقارن للمضمون. انظر: محاولة لتطبيق هذه المنهاجية في: د. السيد عمر: منهج القيم والأخلاق بين الوضعية والمعيارية، ضمن مؤتمر آفاق الإصلاح التربوي في مصر، كلية التربية، جامعة المنصورة، مركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٤م.

لمفهوم الأمة الواحدة، واستعادة تنشئة أجيال الأمة على هويته الجامعة، هو عدم تعميم المعرفة بمفاتيح موازين التثبت من صحة الحديث، والوقوف على وزنه النسبي بين نظائره من جهة، وفى سياق مجمل الأحاديث النبوية من جهة ثانية، وفي السياق الكلي للقرآن الكريم، بوصفه الناظم الأسمى المصدق والمهيمن، على كل ما عداه. ويتصدر المفاتيح الواجب تعميم المعرفة بها، مفهوم: الأخبار المتواترة، ومصادر البحث عنها، والوقوف على مضامينها السياسية دون إفراط أو تفريط.

ويراد بهذا المفهوم: الخبر الذي ترويه جماعة، الذي يفيد العلم بنفسه دون أن يحتاج إلى قرائن، ويشمل ما وصلنا عن رسول اللَّه تعالى اتصالًا لا شبهة فيه، عن طريق من يقع العلم بخبرهم. وانقسم علماء الحديث، في تحديد فضاء هذا المفهوم، إلى فريقين، قصر أولهما الخبر المتواتر على ما رواه عشرة من الصحابة أو أكثر، في حين رأي الفريق الثاني عدم اختصاصه بعدد من الرواة.

والمتواتر ينقسم إلى: المتواتر اللفظي (الذي اتفق ألفاظ الرواة فيه)، والمتواتر المعنوي (الذي اختلفت فيه ألفاظ الرواة، ويمثل المتواتر المشترك بينهم فيه، تواترًا من جهة ما). ومن حيث الإسناد ينقسم المتواتر إلى أربعة أنواع: المسند (وهو الذي يرويه من أول الإسناد إلى آخره جماعة من المستحيل أن يجمعوا على الكذب. وهذا هو تواتر المحدثين)، وتواتر الطبقة (بمعنى تلقي الكافة عن الكافة على شاكلة تواتر القرآن الكريم)، وتواتر العمل (بمعنى أن يعمل بالحديث النبوي في كل قرن من عند النبي حتى الآن جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب أو الخطأ) وتواتر القدر المشترك (وهو التواتر المعنوي، الذي تختلف فيه ألفاظ الرواة، ويجتمعون، في نفس الوقت، على معنى مشترك). ومن أمثلة الأول حديث: « من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار ». ولا يُعرف حديث آخر أجمع على روايته: العشرة المبشرون بالجنة، وزهاء مائتين من الصحابة غير هذا الحديث.

ولهذا الحديث مضامين سياسية بالغة الأهمية. فهو يشير على نحو قاطع إلى احتمال الكذب على رسول اللَّه عن عمد، بما يقتضيه ذلك من ضرورة التدقيق في التثبت من صحة الحديث. وفضلًا عن ذلك، فإنه يومئ بشكل غير مباشر إلى إمكانية الوقوع في الكذب غير المتعمد على الرسول من جراء الغفلة أو السهو، أو سوء الفهم. ويؤشر ذلك كله على ضرورة التمحيص، بالنظر فيما يقدم إلى الأمة على أنه من الحديث النبوي دراية ورواية، ورده إلى مجمل الأحاديث النبوية الصحيحة من جهة، وإلى القرآن الكريم بوصفه الكتاب المصدق للوحي الإلهي كله والمهيمن عليه، من جهة أخرى.

ومن أهم الأحاديث النبوية وثيقة الصلة بالانفتاح المنضبط على القرآن والسنة النبوية في عملية التنشئة السياسية، والتي غدت من المعلوم من الدين بالضـرورة، لتواترها من حيث السند، ومن حيث العمل بها، والاتفاق على المعنى المشترك المتضمن فيها، إلى جانب الحديث سالف الذكر، ذلك الحديث الذي يدعو فيه رسول اللَّه لمن يسمع مقالته، ويعيها، ثم يؤديها إلى من لم يسمعها، ويكون بذلك بمثابة حامل فقه إلى غيره. فالرسول يقول: « **نضر اللَّه امرأً سمع مقالتي فوعاها، فأداها إلى من لم يسمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه غير فقيه** ». ومن بين الزيادات المهمة التي وردت في بعض طرق هذا الحديث الذي جاء ضمن خطبة نبوية في مسجد الخيف: دعوة الأمة إلى إخلاص العمل للَّه ولزوم الجماعة[١].

ومن بين هذه النوعية من الأحاديث النبوية المتواترة أيضًا، ذلك الحديث الذي يرتب عصمة الدم والمال على النطق بكلمة التوحيد، مع عدم التنقيب عن الباطن الذي لا يطلع عليه إلا اللَّه. ومنها ما يربط تعريف المسلم نفسه بأن يسلم المسلمون من لسانه ويده، وما يربط الإيمان بالحياء وحسن الخلق. ويتجاور في حديث واحد عدم قبول اللَّه تعالى الصلاة بغير طهور، مع عدم قبوله للصدقة من غلول.

ومن تلك الأحاديث ما يحث الأمة على التبكير في السعي في الأرض، واعتبار البدء من الفجر في طلب الرزق مدعاة لأجر أعظم. ومنها ما يحث على مراعاة عدم الإضرار بالجماعة في مجالسها ومحافلها العامة، حتى بمجرد رائحة الثوم والبصل. ومنها ما يشير إلى أن البشر شهداء اللَّه في الأرض على الحي والميت معًا، وما يدعو إلى الأمانة في المشورة، وعدم التهوين من المعروف، والتحلي بالرحمة، ونبذ الهجر، والغش، والتحلي بالحق والدفاع عنه ومراعاة عدم الاعتداء في السلم والحرب معًا، وتحاشي الظلم بكل أشكاله[٢].

ومن جهة أخرى، ثمة أحاديث قدسية ذات مضامين سياسية ثرية، يمكن استلهامها في نوعية من التنشئة تتغذى على دعوتها إلى: الرحمة، و تحاشي سب الزمن، والإنفاق في سبيل اللَّه، ومساعدة المعسر، واتقاء النار ولو بشـق تمرة، والحث على الصلح ونبذ الشحناء والغدر،

---

(١) جلال الدين السيوطي، قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة، تحقيق: خليل محيي الدين، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٥م، ص٥ – ٣٠. ولعدم تضخيم الهوامش، رأينا عدم الإشارة إلى تخريج هذه الأحاديث، لكونها وردت ضمن المتواتر الذي اختاره الإمام السيوطي، ومعظمها ورد في عدة مصادر من كتب الحديث، يمكن لمن يريد الاستزادة الرجوع إليها.

(٢) ويمكن رسم خرائط لحقوق الأمم وواجباتها انطلاقًا من جملة هذه الأحاديث، وإعداد مساقات تدريسية ضمن مشروع التنشئة السياسية استنادًا إليها. انظر: جلال الدين السيوطي، مرجع سابق، ص٢٨ – ٢٩٦.

وإعطاء الأجير حقه، وألا يحقر الإنسان نفسه بأن يكتم الحق خشية الناس، وعلى تكريسها لتكريم اللَّه للإنسان، إلى حد اعتبار عيادة المريض، وإطعام الجائع، وسقاية الظمآن، بمثابة أفعال لوجه اللَّه تعالى[1].

خامسًا: تصنيف الأحاديث النبوية الصحيحة وإخضاعها للتحليل السياقي الكلي المقارن:

ثمة مراجع مهمة يمكن الاستعانة بها في التعرف على الأحاديث الصحيحة، والإلمام بطرف من فقه إنزالها على واقع الأمة. ومن المصادر، التي تصلح للاستفادة المباشرة منها، ولمحاكاتها في هذا المقام التي لم يقف مؤلفوها عند مجرد جمع الأحاديث النبوية الصحيحة، بل تخطوا ذلك إلى تصنيفها حسب المجالات التي تهدي إليها المحاولة الرائدة التي قام بها الألباني، **وخرج منها بتصنيف الأحاديث الصحيحة في الفئات التالية:**

أ - اصطناع المال:

جمع الألباني هنا أحاديث نبوية صحيحة تحث على الزرع والغرس، وتنبه إلى أن ذلك يكون بابًا من أبواب الصدقة لفاعله، بقدر استفادة الإنسان أو الطير أو الأنعام به، مع التأكيد على أن من يغرس ما يُنتفع به بعد موته يجري عليه أجره. واستدعى في مقام البحث في فضاء تفعيلها، الأسوة بالصحابة. ومن معالم القدوة التي أرساها الفاروق عمر بن الخطاب، الكتابة إلى من تقدم بهم العمر من الصحابة، يحثهم على إصلاح ما رزقهم اللَّه رغم دنو أجلهم. بل إن عمر ﷺ تجاوز الكتابة والنصيحة، إلى المشاركة بيده في مساعدة صحابي مسنٍّ، في غرس أرضه بالنخيل، معلنًا بتلك المناسبة أن الاحتراف، يعد بمثابة: سعي في سبيل اللَّه، طالما يتحرر من الغلو ومن التكالب على الدنيا.

واحتفى الصحابة أيضًا بتربية النشء على الرفق بالحيوان، والنهي عن اتخاذها كراسي، بمعنى ضرورة النزول عن ظهرها فيما لو أراد راكبها أن يتوقف ليتحدث إلى غيره، امتثالًا لأحاديث نبوية تدعو إلى تقوى اللَّه في البهائم بركوبها صالحة، وأكلها سالمة، والإحسان إليها في حياتها وعند ذبحها، وعدم فجيعتها في أولادها، وعدم تحميلها ما لا تطيق، واعتبار ذلك جزءًا من الرعاية التي يُسأل عنها الإنسان. وفي هذا السياق يأتي قول أبي الدرداء مخاطبًا بعيره حين حضرته الوفاة: أرجو ألا تخاصمني عند ربي، فإني

(١) انظر نماذج لذلك في: دينيس جونسون ديفيز: الأربعون القدسية، ترجمة د. عز الدين إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص٤١ - ١٢٩.

لم أكن أحمل عليك إلا ما تطيق. ومن النماذج أيضًا، الأمر الذي أصدره عمر بن عبد العزيز لغلامه حين أتاه ذات يوم بأجر يفوق الذي كان يحصله من استخدام فرس له، أن: أرحه ثلاثة أيام، فقد أتعبتَه.

ب - تقديم دفع المفسدة على جلب المنفعة:

من الأحاديث التي تؤسس لهذا المبدأ، قوله ﷺ: « **لولا أن قومك حديثو عهد بشِرْكٍ لهدمت الكعبة وأعدتها على قواعد إبراهيم** ». ومن فقه هذا الحديث أن الإصلاح ينبغي تأجيله إذا كانت المفسدة التي ستترتب عليه أكبر من المصلحة التي سيحققها.

جـ - التكافل في مواجهة الظروف الطارئة:

يؤسس لذلك الإخاء الذي أقامه الرسول بالمدينة عقب هجرته إليها، إلى جانب توجيهه للمهاجرين والأنصار إلى أن يضم الواحد منهم إليه اثنين أو ثلاثة، ممن لا مال لهم ولا عشيرة، وسلوكياتُ الصحابة في مواجهة مجاعة عام الرمادة على عهد عمر بن الخطاب.

د - الرحمة والسمع الواعي:

ثمة أحاديث نبوية تجعل الرحمة للغير سببًا لتحصيلها للنفس، كما تجعل المغفرة لهم سببًا لمغفرة اللَّه تعالى، وتحذر من الإصرار على الخطأ، ومن السماع الذي لا يُفضي إلى الوعي، وتدعو إلى العفو عن الخدم على نحو متكرر، على أساس أن جوهر الرسالة هو الرحمة، وأفضل الجهاد هو كلمة العدل عند السلطان الجائر، وعلامة إرادة اللَّه الخير بمن يتولى أمر الأمة، أن يشخص له وزيرًا صالحًا، يذكِّره إذا نسي، ويعينه إذا تذكر[1].

سادسًا: الاتباع لا التقليد في محراب العلم:

يولي الإسلام اهتمامًا كبيرًا ببيان أن التقليد غير المتبصر واحد من أهم أسباب هلاك الأمة، وأن الاتباع لأهل الفضل، من أئمة العلم وأساطينه السابقين، ينبغي أن يرتكز على الإحسان، بمعنى بذل كل الجهد الممكن لفهم حقيقة أقوالهم وأفعالهم، ومعايرتها بالقرآن وبالسنة الصحيحة، وهو ما لا يستطيعه إلا إنسان صاحب إرادة حرة، وعقلية متفتحة، تتلمس العلم والتعلم بلا انقطاع، ولا تتحرج من العودة إلى الحق فيما لو تبين لها أنها كانت قد أخطأت، وتجتهد لمعرفة الحق دون أن تربطه بكثرة أو بقلة، ولا بأس في هذا السياق من

(١) انظر هذه النماذج في: محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، بيروت: المكتب الإسلامي ١٩٨٥م، ١/ ١١ - ٦٩، ٥٥٦، ٥٥٧، ٧٩١ - ٨٠٦.

الإشارة إلى دلالة تنبيه الرسول ﷺ، إلى إمكانية التغرير به هو نفسه، عبر البلاغة والبيان في عرض الحجج[١].

وكل قول يقبل الرد طالما لم يثبت أنه قول رسول اللَّه ﷺ، وينبغي التحرر هنا من المفاهيم التي لا يستقيم بناؤها، مثل مفهوم (حديث موضوع)، فكونه موضوعًا ينفي كونه حديثًا من الأساس. وبالمثل ينبغي هجر مفهوم (حديث موقوف). فكون الحديث غير مرفوع إلى النبي ﷺ لا يجعله أهلًا لِأَنْ يُنسبَ إليه، كما ينبغي التحرز من عملية تحويل المعنى، في متون الأحاديث التي رويت في الأصل بمعناها.

ومن مقتضيات الاتباع في البحث عن الحقيقة وتفعيلها وتمثلها، الوعي بالحاجة إلى اجتهاد متواصل، من جانب جماعة متخصصة منفتحة على روافد المعرفة. ومن بين أوجه اللبس التي تعلقت بمفهوم الاجتهاد في القرآن الكريم، عدم التنبه إلى أن الفعل (لوجدوا) يدل على أن مصدر الاختلاف هو: الفهم الإنساني للقرآن، وليس نص القرآن ذاته، في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

والسبيل المنطقي الوحيد لضبط هذا الفهم هو: الاجتهاد الجماعي المتواصل، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، الذي يشير إلى ضرورة تفرغ طائفة من الأمة للعلم، لتتولى بدورها تعليم من خرجوا للجهاد لدى عودتهم. فالاجتهاد قسيم الجهاد في عملية تنشئة الأمة. والنفرة الجماعية المخطَّطة البداية والنهاية، هي ناظم من يتفرغون للعلم، في كونٍ محكومٍ بسنن ثابتة،ومؤسَّس على الحركة، لا سبيل لفقهه إلا بالسير في طلب العبرة والحكمة، عبر الزمان والمكان. ومن المضامين السياسية الجديرة بالتنويه عليها هنا: ضرورة الخروج المخطط لطائفة في طلب العلم الذي ليس عند الأمة، والاستفادة المخططة أيضًا مما تعود به، والتمحيص المتواصل لقطوفها.

والطائفة تشير إلى القلة، وقد تنحصر في شخص واحد، فيما لو كان كافيًا لنقل العلم. والمستوى الذي يطلبه القرآن من العلم، هو بلوغ التوحيد الخالص، وهو مستوى يتخطى الشهادة إلى درجة اليقين، ويستوجب بالتالي رد الأمر إلى اللَّه ورسوله، وإلى القادرين على الاستنباط، في ضوء اختلاف قدرة البشر على الاستنباط من جهة، واختلافهم في العقائد والمذاهب بحكم طبيعتهم، من جهة أخرى. والأُمة بذلك مطالبة بتربية الوعي على

(١) انظر د. عبد القادر حسين: الرسول واعظًا بليغًا، القاهرة، مكتب أوزيريس ١٩٩٥م، ص٢٤ – ٢٨.

الاجتهاد، بتعهد الإحساس بالنعم الإلهية، والدراسة المنهجية للسنن الكونية، والتقوى كأساس للعلاقة بين الإنسان والكون، والتوثيق والتحقيق من أجل البناء والارتقاء. والنقد هو منهاج الأئمة(١).

ومن أهم ما تحتاجه الأمة في هذا الصدد المراجعة العلمية للفكر الإسلامي بوصفه فكرًا إنسانيًّا غير معصوم، بهدف تمكين الباحثين من العودة إلى القرآن والسنة النبوية، متحررين من الصوارف التي تسربت إلى كتب التفسير، في صورة مباحث لغوية، وإسرائيليات، ومقولات ليس وراءها عمل، بل لها تأثيرها السلبي على روح الأمة، كالحديث عن الزهد ومقت الحياة الدنيا، وأشراط الساعة والمسيخ الدجال والمسيح المنتظر ويأجوج ومأجوج، ودعوى النسخ في القرآن الكريم(٢).

ويحتاج ترشيد عملية التنشئة الإنسانية إلى تأسيسها على علم صحيح، بالاسترشاد بالقواعد الأصولية، التي تمثل خلاصة فكر السلف، مع التسليم بالطبع بحاجتها إلى المراجعة والضبط، وإعادة البناء، كخبرة يجري التأسيس عليها وتجاوزها، ولا يجوز الانحصار في نطاقها. ومن هذه القواعد: تقديم درء المفسدة على تحقيق المصلحة عند استحالة الجمع بينهما، بما أن اللَّه تعالى قد أمرنا بالطاعة قدر الاستطاعة، وربط قيمة الوسيلة إلى الطاعة، بقيمة المقصد الذي تحققه. فالوسيلة إلى صلاة الجمعة تفوق الوسيلة إلى الصلوات الأخرى. والوسيلة إلى الجهاد تفوق الوسيلة للسعي للجمعة. والوسيلة إلى معرفة اللَّه تعالى تتصدر كافة الوسائل

---

(١) قارن مع: د. إسماعيل منصور، تبصير الأمة بحقيقة السنة، دراسة أصولية شاملة لبيان القيمة الحقيقية للسنة، القاهرة: النسر الذهبي للطباعة، ١٩٩٥م، ١/ ٤٤ – ٦٥، ٧٩ – ١٣٧، ٢٢٠ – ٢٢٢. ومن المصادر المهمة التي تجلي مفهوم السنة التشريعية، وتبين معالم الهدي النبوي، في سبل ربطها بالتربية، وتعين في تأصيل هذه المبادئ المنهجية، د. يوسف القرضاوي، السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٧م، ص٧٣ – ١٣٦، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي: التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير، تعليق وشرح: صلاح محمد محمد عويضة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ص١١ – ١٩.

(٢) للتوسع في معرفة هذه الصوارف، والقواعد المنهاجية الرائدة التي وضعها الإمام محمد عبده في مقدمة المنار للتخلص منها ولم تفعَّل بالقدر الذي تستحقه من جانب الباحثين حتى الآن، على قدر علمنا، انظر: د. السيد عمر: التنشئة السياسية لدى مدرسة المنار، مجلة النهضة، القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، يناير ٢٠٠٤م.

ومفهوم الآية في القرآن هو: البرهان والحجة والأمارة، وليس ما درج عليه التفكير من اعتبارها الشطر الواقع بين النجوم، فهذا من وضع الناس. وتبرهن الدراسة على أن مقولة النسخ فيما تعارفنا عليه بآيات القرآن الكريم لا أساس له من الصحة. انظر: د. مصطفى بو هندي، نحن والقرآن، مقدمات في أصول التدبر، دراسة منهجية نقدية في علم التفسير، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢م، ص٧٥ – ١١١. وتنبه هذه الدراسة أيضًا إلى ضرورة التثبت في الأخذ من كتب التفسير والمغازي والملاحم، وتفرق بين: التفسير النبوي للقرآن، وبين: البيان النبوي للقرآن. فمهمة الرسول هي البيان لا التفسير. وجوهر البيان هو: قراءته على الناس على مكث، تزكية الناس بالقرآن، الجهاد به، الدعوة إليه، القضاء به، الإنذار والبشارة به، الرد على الشبهات، بيان ما اختلفت فيه الأمم الأخرى وما أخفته من الكتاب، تنزيل القرآن سلوكًا وأفعالًا في واقع الناس، المرجع السابق، ص١٤٠ – ١٤٣.

في القيمة، وعلى النقيض من ذلك، فإن أرذل وسيلة هي تلك التي تؤدى إلى أرذل مقصد، وهو الشرك. ومفهوم الخير يشمل كل ما من شأنه: جلب المصلحة ودرء المفسدة، في حين يشمل مفهوم الشر، كل ما من شأنه: جلب المفسدة ودرء المصلحة[١].

* * *
* *
*

(١) انظر في تفصيلات هذه القاعدة: د. عبد اللَّه بن إبراهيم الوهيبي: العز بن عبد السلام حياته وآثاره ومنهجه في التفسير، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٩٧٩م، ص١٣٨، ١٣٩. وثمة بمعنى الوصول إلى عمق الآيات القرآنية وإلى نسيجها عبر التأمل في النشاط الوجداني بكل صوره على صعيد: الاعتقاد، والانفعال والانقياد. إلا أن الاستناد إلى هذا الأسلوب ينبغي أن يتم بشكل منضبط، وبحذر شديد، لعدم تحميل النص القرآني ما لا يحتمل. انظر: د. عفت الشرقاوي: محاضرات في الاتجاهات الحديثة في مذاهب التفسير، دون تاريخ، ودون ناشر، ودون تاريخ نشر، ص٨٣ – ٨٦.

obeikan.com

الفَصْلُ الثَّالِثُ

مقومات بناء علم التنشئة السياسية الإسلامية

في ضوء الطرح السابق لغزارة مضامين مفهوم التنشئة السياسية في القرآن الكريم والسنة النبوية، سوف نسعى في هذا الفصل إلى النظر في وعائين جامعين لمجموعة من المقومات المتفاعلة، التي تشكل في ضوء قراءتنا الأولية لآفاق هذا المفهوم، ركائز لتحديد معالم بنية علم التنشئة السياسية الإسلامية. وتشمل هذه المقومات: التنشئة على أركان الإسلام فرادى ومتفاعلة، والتنشئة على التدبر في القرآن وفي الكون، وسنخصص مبحثًا لكل منهما.

ٱلْمَبْحَثُ ٱلْأَوَّلُ

التنشئة على أركان الإسلام

تتحمل أركان الإسلام بمضامين سياسية بالغة الأهمية، يمكن بالتأكيد عليها في بحوث التنشئة، وفي عملية التنشئة – رسمُ معالم بديل سياسي للعمران الإنساني الرشيد. وتصب أركان الإسلام جميعًا في دائرة تعزيز حرية الذوات الإنسانية، التي تمثل في ضوء معطيات الفصلين السابقين، نواة منظومة القيم الإسلامية، التي ينصب علم التنشئة السياسية الإسلامية على إعادة بنائها وتفعيلها، وتأمين أسباب انتقالها من جيل إلى آخر، على نحو يكفل إحياء الأمة وتحقيق صفتها كخير أمة أخرجت للناس بتحقق شرط خيريتها،المتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان باللَّه.

ومن الشواهد على المكانة الرفيعة للحرية التوحيدية في أركان الإسلام، أن الركن الأول للإسلام يبدأ بكلمة (لا)، ويطلب من البشر الشهادة بذلك قولًا وفعلًا، واضعًا بذلك البشرية أمام تكليف شامل بوضع برنامج يهدم كل الآلهة المزيفة التي تُعبد من دون اللَّه، سواء كانت تلك الآلهة داخل كيان الإنسان، أو حوله، متجسدة في حب الذات، والرياء والمداهنة والغش والكبر، إلى غير ذلك من الشركاء. وهذه التزكية بمثابة عملية تنشئة لا يمكن أن يقوم بها الإنسان في عزلة عن غيره من البشر، أو بمنأى عن النعم التي سخرها اللَّه للبشرية، وأشار إليها في القرآن الكريم، بتعبير آخر: فإن تلك التزكية يجب أن تكون بمثابة تشكيل للإنسان الرباني في أرض الواقع، في حياة كاملة دائمة. ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟

﴿ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. وتلعب العبادات دورًا مهمًّا، بوصفها كعمل متكرر وسيلة لتحقيق غايتين في آن واحد: الإعلان عن الهوية، والطَّرق المتكرر على باب النفس الإنسانية، لدفعها إلى الشعور، المؤدي إلى الحث على الفعل، ثم إلى دوام الالتزام به.

وإذا كانت التنشئة في ظل الطرح السابق بمثابة عملية بناء للذات الإنسانية الحرة، فإن القرآن الكريم يؤكد على أن التزكية إذا بقيت حبيسة القلب، ولم تخرج إلى الواقع الحي المعاش، وتتفاعل معه، فإن عملية اكتساب المناعة ضد ذهنية العبيد لن تتحقق. بمعنى آخر، فإن التدافع هو الشرط الوجودي للحرية، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وجوهر الحرية هو الوعي بها وامتلاكها، وتجسيدها في قبول الآخر المختلف. فلا حرية، في حقيقة الأمر، إلا إذا انتفى الإكراه في الدين، حتى في مواجهة الفرد لنفسه. وتقتضي الحرية، بذلك التدافع في مواجهة استعباد الشهوات للإنسان، واستبداد النمط الفرعوني والقاروني والإسرائيلي بالأفراد وبالأمم والجماعات. فالإنسان يحتاج لبناء ذاته الحرة الواعية المختارة إلى امتلاك أسباب القدرة على ضبط نفسه أولًا. فبامتلاك النفس يمكن قبول الآخر، والعدل، بل والإحسان في العلاقة معه، وحب الخير له على ذات درجة حب النفس.

فالعبادات تنطلق من أعمال الجوارح، إلى تربية عادات سلوكية ومذاقات قلبية، بغرس القيم الرفيعة في صميم النفس. والبعد الجماعي في الزكاة بالغ الوضوح. فالزكاة في جوهرها آلية لتعزيز حرية الإنسان وكرامته، بتوفير الكفاية لمن يعملون عليها، والمساهمة في إزالة الفقر والمسكنة، والإعانة على عتق النسمة بالانفراد بعتقها، وفك الرقبة بالمساهمة في تحريرها، وفك الأسرى، ومساعدة الغارم الذي تهدده ديونه بالسجن، ومساعدة المتحمل في عملية الصلح والبر فيما لو كان ذلك يجحف بماله، ومؤازرة من يتعرض لفاقة أو جائحة يقينية، فضلًا عن تعزيز مساعي البر في سبيل اللَّه، ومساندة ابن السبيل الذي انقطعت به الأسباب حتى لا يدخل تحت منة أحد.

ويمكن للإنسان أن يلمس في الزكاة نوعًا من التخلي عن جزء من ذاته للآخر، واقتحام العقبة عبر بوابة السعي في الأرض، لتأكيد حرية الذات وحرية الآخر، وتجاوز النظرة الأُحادية للإنسان، والسعي إلى تشكيل أنصاف دوائر تتلاقى على الدوام، على شاكلة الطواف حول الكعبة. ووراء تلك المضامين جميعًا آفاق بالغة العمق في معالجة الهوى، والتأسيس للنفس اللوامة، والنفس المطمئنة، وتربية الضمير الإنساني، والتمكين لأعمال القلوب.

وتعبر الصلاة التي هي في جوهرها عماد الدين، عن موقف إسلامي من الكون، وعن الطريقة التي يريد الإسلام أن تتشكل الرؤية الكونية للعالم من مَعينها. ومن الدلالات الأساسية التي تنشئ فريضة الصلاة الأمة عليها، البرهنة بشكل بالغ التكرار، على أن حياة الإنسان مرهونة بالجمع بين مقومات مادية وجسدية، وغذاء روحي. فالصلاة ترتبط بالنية، وبستر العورة وبالطهارة، وبقراءة ما تيسر من القرآن. والعروة التي تربط إقامة الصلاة، بإيتاء الزكاة بالغة الإحكام، في السياق القرآني. وتتعين بذلك الشفرة الإسلامية في الوسطية الجامعة بين المادة والروح. وارتباط الصلاة بالقبلة، إلى جانب فريضة الحج، يؤشران بوضوح على أهمية السير التاريخي في الأرض، واستشراف الماضي والحاضر والمستقبل بذهنية جامعة، تتكاتف في ظلها الفطرة السليمة والحواس، مع العون الإلهي، في إقامة شرع اللَّه على الأرض.

وفاتحة الكتاب جزء لا يتجزأ من فريضة الصلاة، وهي تغذي الإنسان على نحو يتكرر بعدد ركعات صلاته المفروضة والنافلة، بما يمكن وصفه بالنواة الأساسية للمقاصد الكلية للقرآن الكريم. وتتمثل تلك المقاصد في: معرفة الحق، ومعرفة الخير، على صعيد المقاصد النظرية، وصولًا إلى تقديس الحق واعتناقه، وفعل الخير والتزامه على صعيد المقاصد العملية.

ويتمثل المقصد النظري الأساسي للقرآن الكريم في تبصرة الإنسان، بوصفه حامل الأمانة عن اختيار، بالحقيقة العليا التي يمكنه – بالمعرفة بها – العروج إلى الحقائق الأخرى. وتتمثل تلك الحقيقة في: تحقيق المعرفة باللَّه وصفاته، كمدخل أساسي للتفاعل مع آيات اللَّه في الكون، والتعاطي مع مختلف الظواهر النفسية والكونية الخارجة عن إرادة كافة الكائنات من جهة، ومع السنن الكونية التي لا تتبدل ولا تتغير، والتي من شأن اكتشافها تحقيق القدرة على القيام بمهام الأمانة التي حمَّلها اللَّه للإنسان في هذا العالم.

ويقدم القرآن الكريم للإنسان ما يساعده على رؤية صنع اللَّه في ملكه وملكوته، ليس في اللحظة الحاضرة فحسب، بل على مدى متصل يمتد من بداية الوجود إلى الآخرة، ويشمل كل ما يتصل بالأنفس والآفاق والفعل الإنساني عبر الزمان والمكان. والأصل النظري الأول في هذا الصدد هو: معرفة اللَّه تعالى، وهو الذي يثمر الأصل العملي الأول، والمتمثل في: توقير اللَّه تعالى.

وفاتحة الكتاب تُجْمِل هذين الأصلين، محددةً جوهر الأول في: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤]، ومحددةً جوهر الثاني في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وضمن هذين الأصلين، تتحدد المقومات الذرية للعقيدة القرآنية، المتمثلة في: التوحيد، والنبوة، والجزاء.

فركن المبدأ هو: رب العالمين البارئ لكل شيء، والراعي له في كل أحواله، والمربي له بشتى أنواع التربية الظاهرة والباطنة، والذي هو المصدر الوحيد للرحمة. فرحمته وسعت كل شيء. ولله تعالى رحمتان، أولاهما: وسعت كل شيء بما في ذلك الإنسانية في كل زمان ومكان، بنعمة الحياة ومتطلباتها، وبجعل كل نوع من الأحياء أمة، مثل النوع الإنساني. وأنعم اللَّه على الثقلين بنعمة الهداية الفكرية، والهداية السماوية بإرسال الرسل إلى كل الأمم. أما الثانية: فتتعلق بالاصطفاء والتوفيق إلى الصراط المستقيم. وعلى هاتين الرحمتين يقوم ركن النبوات، التي تتمثل في الرحمة العامة لأمة الدعوة، والرحمة الخاصة للمرسلين ومن اهتدى بهم. ويتمثل ركن المعارف والجزاء في قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ مبينًا لحقيقة أنه إليه وحده تصير الأمور، وبيده وحده يتقرر المصير الأخير للكون وما فيه.

وما دام اللَّه متفردًا بالخلق، وبتعهد الخلق، وبامتلاك خزائن الرحمة والنعمة كلها، وبالمآل، فإنه لا يشاركه أحد في الجدارة بالتوقير والحب، في الزمان كله والمكان كله. ومن هذا المنبع يتولد جذر حرية الإنسان التوحيدية، حيث تنظر الذات الإنسانية الفردية والجماعية الموصولة به، إلى ماضيها حيث لم تكن شيئًا مذكورًا، وإلى حاضرها متقلبة في نعمة اللَّه، وإلى مستقبلها القريب في رحاب الحب والرجاء، وإلى مستقبلها البعيد في رحاب الرغبة في الفوز بحسن الخاتمة ورضا اللَّه.

وامتلاء الإنسان بهذه النظرة المستغرقة للزمان كله، تفضي إلى نتيجة أساسية، هي: اضمحلال كل شيء في الوجود في عينه، والارتفاع بهامته فوق العالم كله، متحولًا بوجهته إلى المنبع الأول والأخير لكل قوة ولكل رحمة في الوجود. ويؤدي تحقيق ذلك إلى سعةٍ في الأفق، وامتلاك حقيقي للحرية والكرامة. فالتوحيد هو معراج التكريم الإنساني.

ومن مؤشرات كرامة الإنسان في سورة الفاتحة، نفي الفردية عنه. فهو دائمًا عابد ضمن الإنسانية العابدة. بيان ذلك: أن الحق ﷻ يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾. فالعبد لا يقول حتى وهو يصلي منفردًا (إياك أعبد)، بل يتمثل نفسه لبنة في صرح أمة الإجابة العابدة للَّه تعالى، في كل زمان ومكان. وهو في أخذه بالأسباب، يدرك دائمًا أن تلك الأسباب مردها إلى اللَّه تعالى، فهو المصدر الوحيد بالأصالة للاستعانة، وما عداه مجرد روافد نابعة وتابعة. وصرف قلوب البشر لمساندة عابد ما، إنما يتم بتوفيق اللَّه تعالى، وإتيان تلك المعونة لثمرتها لا يتحقق إلا بتوفيق اللَّه تعالى.

وبالجمع بين ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، يتم إبطال الشرك كله على صعيدي العبادة

لغير اللَّه، والاستعانة والاستشفاع بما لم يأذن به اللَّه من جهة، وإبطال العقائد المتطرفة برمتها، وفي مقدمتها: عقيدة الجبر، النافية لمسئولية الإنسان عن فعله وقوله، وعقيدة الاختيار المحض المجرد عن ضوابط. ونقطة الاستواء هنا هي: العبادة أولًا بوصفها بمثابة التأدية للواجب، ثم الاستعانة ثانيًا، بوصفها بمثابة المطالبة بالحق. والإنسان يجمع بين كونه كائنًا روحيًّا، وكونه صاحب جسد له احتياجات. ومن هذا المنطلق فإن الإنسان عبد للَّه تعالى، وخليفة في الأرض مسئول عن عبادة اللَّه تعالى، وعن إقامة الخلافة. ويقدم القرآن الكريم للإنسان زادًا وفيرًا على صعيد: بناء نماذج الأعمال الإنسانية في كل العصور، وعلى صعيد بيان صدى تلك المعرفة، وثمرة تحريكها لعزيمة الإنسانية في كل زمان ومكان.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، بما أن التنشئة عمل إنساني، ويجري التفكير هنا في ترشيدها عبر النماذج القرآنية والسنن التي تكشف عنها، هو: كيف يعرض القرآن الكريم على بني الإنسان صور العمل الإنساني؟

يعرض القرآن الكريم صور العمل الإنساني بمنهج مزدوج يجمع بين: بيان القيم الذاتية، والقيم العرضية للأخلاق والسلوك الإنساني. فعلى صعيد القيم الذاتية: يخاطب القرآن الكريم ضمير الإنسان من مدخل: جمال الفضيلة، وقبح الرذيلة. أما على صعيد القيم العرضية فإنه يخاطب العاطفة مرغبًا في الفضيلة، منفرًا من الرذيلة، من مدخل الحديث عن: المصلحة الحقيقية، وضرب الأمثال، ورواية السير الكاشفة عن عواقب السلوك الإنساني في العاجل والآجل.

وتجمع فاتحة الكتاب هذين المنهجين في كلمتين اثنتين: بيان القيمة الذاتية لطريق الفضيلة الموصوف بالاعتدال، في طلب الهداية إلى (الصراط المستقيم)، ثم تبين ما في هذا الطريق من ثمار، في مقدمتها: تحقيق نعمة اللَّه تعالى، وتجنب غضبه، وتعمق هذا المفهوم بالإشارة إلى نماذج تاريخية تشمل: الاستقامة، واستدعاء الغضب الإلهي، والوقوع في الضلالة، واضعة بذلك معيارًا، ومؤشرًا لنوعين من الطرق المنحرفة: الانحراف المتعمد، والانحراف عن طيش وجهل. والانحراف عن عمد يستدعي الوزر، في حين يستدعي الانحراف عن جهلٍ العذرَ، في حين تستحق الاستقامة الأجر المبرور. ويشمل هذا الوضع الشأن الإنساني كله على صعيد: الاعتقاد والإخبار والفتوى والتعليم، والرأي، والحكم والقضاء. فإذا حكم الإنسان بالحق عن معرفة استحق الجنة، وإذا حكم بخلاف الحق الذي يعرفه استحق النار، وإذا قضى في شأن الناس بجهل استحق النار حتى إن صادف الصواب.

وخلاصة القول: أن سورة الفاتحة تتضمن معالم خريطة للتنشئة القرآنية، وتمثل نواة للقرآن الكريم، تجعلها جديرة بأن تسمى: أم الكتاب. وتكشف الموازنة بين أسلوب الخطاب في فاتحة الكتاب، وأسلوب الخطاب في بقية كتاب اللَّه تعالى، عن خصوصيتها فيما يتعلق بالتأسيس للحرية الإنسانية. فالملاحظ أن تلك السورة تنفرد من بين كل سور القرآن الكريم، في كون الخطاب فيها يرد على لسان البشرية المؤمنة،وليس على لسان الحق ﷻ.

وتعبر هذه السورة بذلك عن حركة إنسانية جماعية حرة متطلعة إلى اللَّه تعالى، في حين تعبر سائر السور القرآنية الأخرى عن الحركة المقابلة، وفحواها: الرد على الحركة الإنسانية المتجهة إلى اللَّه تعالى، بحركة الرحمة المرسلة من السماء إلى الأرض. وبتعبير آخر، يمكننا أن نتصور أن القرآن الكريم في جملته يمثل مناجاة ثنائية، طرفها الأول هو الفاتحة، التي تمثل سؤالًا جوهره: هو طلب الهدى من اللَّه تعالى، وطرفه الثاني هو بقية القرآن، الذي يمثل جوابًا على هذا السؤال جوهره هو: بيان الهدى المطلوب، كما يتجلى ذلك من بداية سورة البقرة.

ومن الدلالات السياسية المهمة التي يمكن استخلاصها من هذه النظرة على صعيد التنشئة السياسية الدلالات التالية:

أولًا: الفاتحة تجعل القرآن الكريم مطلوبًا من جانب الأمة التي أعلنت عن حاجتها إليه: ولو كان القرآن خاليًا من الفاتحة، لكان طارئًا على البشرية، يعرض نفسه، أو يفرض نفسه، أو يطرح ذاته كمنحة. وعزة القرآن الكريم المعبر عنها صراحة في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١]، تستدعي أن يكون في موضع المطلوب لا الطالب. والحرية كنواة لجوهر الذات الإنسانية، تقتضي هي الأخرى، أن لا يُحْمَل على شيء إلا بإرادته. فالإنسان مجبول على الزهد فيما لم يطلبه.

والفاتحة بمثابة قرار جماعي تعلن به أمة الإجابة عن حاجتها إلى القرآن، وتتضرع إلى اللَّه تعالى مطالبة به. وجوهر القرآن كله بعد الفاتحة هو: الاستجابة الإلهية لهذا الطلب الإنساني. وبهذا يأتي القرآن على ظمأ من طالبيه فيكون شفاءً لعلتهم، وتظل له مكانة القداسة، بما أنه أكرم على نفسه وعلى الناس، من أن يتعرض للمعرضين عنه، أو يلزم الكارهين له. ومن ثَمَّ تأتي حفاوته البالغة بحرية الإنسان في عبادة اللَّه تعالى.

ثانيًا: كون القرآن الكريم لم يلزم البشرية إلا بما طالبت به والتزمته: يجعله أقطع للحجة، وأنفى للمعاذير، فيما لو قورن بكتب سماوية نزلت دفعة واحدة، وأُلزمت أمة الإجابة بها، برفع الطور على رؤوسهم، كما يعبر عنه النص القرآني بخصوص اليهود ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]. فالقرآن هو كتاب رفع الإصر والأغلال عن البشرية، وهو إعلان الحرية الإنسانية التوحيدية الخالصة، إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

ثالثًا: لم تطلب أمة الإجابة دستورًا، يضعه لها بشر أيًّا كان مستوى صلاحهم، بل طلبت دستورًا من لدن رب العالمين، بما أنه هو المصدر الأوحد للمعرفة بسر الإنسان وعلانيته، وبأنسب السبل لتربيته، وبما أنه هو المصدر الأول للعطف الشامل على مطالب البشر، وإليه مصيرهم. ويمكن استشفاف وعي الفطرة الصحيحة التي فطر اللَّه الناس عليها حين وضعت الأمة المؤمنة إطارًا للتشريع الذي تطلبه، حتى وهي تخاطب ربها، فأعلنت عن حاجتها إلى العدل القاطع، والصراط المستقيم، وعن نفورها من نماذج تاريخية للضلال، والانحراف عن عمد.

رابعًا: يكشف الاتجاه الذي اتخذه خطاب الأمة المؤمنة في سورة الفاتحة عن عمق الحرية التوحيدية التي تنطلق من سنن اللَّه تعالى التي لا تتبدل ولا تتغير، والتي تأبى الحركة الإنسانية على مستوى القشرة السطحية دون الحفر الموصل إلى العمق، المتخطي لاعتبارات الزمان والمكان، حتى لدى تعامل الإنسان مع موقف زماني ومكاني محدد. ولعل ذلك يوضح الفرق بين ما ظهر على أنه نجاح على غير الحقيقة في فتوحات الإسكندر الأكبر، وفعل الفتح الإسلامي في البلاد التي رُزقت به. ففي حالات الفتح غير الإسلامي، انتهى الأمر إلى اعتناق الفاتحين لديانات وأعراف البلاد المفتوحة، ونال الغزو من فطرة الشعوب التي نُكبت به، وعصف بعلاقتها بالدين خارج العالم الإسلامي، في حين لم تفلح مساعي الاستعمار الأوروبي لعالمنا الإسلامي، رغم استمرارها، وكثافتها، في الظفر بأكثر من القشرة الخارجية لحياة الأمة الإسلامية، ولا تزال قدرة أمتنا على البراءة من الخبث الاستعماري الأوربي قائمة، تحتاج فقط إلى الوعي بإمكانياتها الكامنة والمهدرة، وتفعيلها. وعلى العكس من ذلك استطاع الفتح الإسلامي أن يغير التركيبة الحضارية للعالم الإسلامي بشكل يتسم بالثبات. فرسالة الإسلام استطاعت بحق أن تنشئ، ما يمكن وصفه بـ (خَلق آخر) في نصف الكرة الأرضية، حيث نجحت في تنشئة أمة واحدة في أقل من قرن، متجسدة في أمة لها وطن واحد، وإله واحد، وقبلة واحدة، وقانون واحد، ولسان واحد هو: اللسان القرآني. ورغم أن هذه الأمة تتلقى معاول الهدم من الأعـداء، وتعاني من عوامل التحلل من جانب الأبناء، فإن قدرتها على الصمود لا تزال منقطعة النظير. والسر وراء ذلك هو كون الإسلام رسالة مطلوبة لا مفروضة[١].

(١) د. محمد عبد اللَّه دراز: نخبة الأزهار وروضة الأفكار، تحقيق: عبد اللَّه إبراهيم الأنصاري، الدوحة، مطابع قطر الوطنية، ١٩٧٩م.

فرسالة الإسلام تدعو إلى نفسها بنفسها. ولنورها خصوصية، متضمنة في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]. فزيت هذه الرسالة يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، بما أنها رسالة نزيهة القصد، مجردة عن كل غرض، لا تطلب ممن يهتدي بها أجرًا، وإنما تمنحه الأجر، وهي رسالة الكرامة الإنسانية والنور والعدل والإحسان والرشد. وعنوانها هو: اجتماع إنساني صالح، يُطلب في ظله من كل إنسان على وجه الأرض بصفته الفردية، وبصفته لبنة في أنساق الإنسانية المختلفة، أن يقدم واجبين: كف الأذى، وبذل الندى.

ويرسم القرآن الكريم معالم الطريق إلى تحقيق هذين الشرطين، ببيان وسائل التخلص من: داء الفساد والإفساد، ومرض الإهمال والتقصير. وفي حين ابتدع العقل الإنساني سبلًا لتحقيق البراءة من هذين الداءين، عبر العقوبات الرادعة الوقائية، والجوائز التشجيعية للمحسن، فإن هذا العلاج أخفق في ضوء الخبرة التاريخية في إزالة الداء. وغاية ما حققه هو: تخفيف وطأة الداء في الظاهر، وظل هناك مجرمون مطمئنون إلى الإفلات من العقاب، وأبرياء في السجون، ومحسنون في زوايا النسيان والحرمان.

وجرت العادة على إتيان السلطة البيوت من غير أبوابها، والحفاوة بمعالجة السطح لا باقتلاع جذر الداء. ولمَّا كان هذا العلاج يأتي من خارج نفس الإنسان، فإن العقل الباطن يظل مكبوتًا إلى أن يجد الفرصة للتمرد على هذا القيد الذي يُفرض عليه من خارجه. وحتى في الحالات التي يصل فيها القمع إلى استئصال الجريمة، فإن ذلك يتم على حساب كرامة الإنسان، وتتبع عوراته، وتغييب أخلاقيات الستر، وإخضاع الإنسان لاعتبارات الخوف والطمع، التي هي أقرب إلى فطرة الحيوان منها إلى فطرة الإنسان المكرم.

ولا يعني ذلك الدعوة إلى إلغاء قوانين العقوبات، ولا إلى إبطال سُنَّة الجوائز للمحسنين، ولا إلى نبذ أسلوب الترغيب والترهيب من طرائق التربية والتنشئة. فنحن نعي أن كافة الشرائع السماوية لم تهجر هذه الأساليب بشكل مطلق. إلا أن التدقيق فيما هو تحت القشرة الخارجية، يكشف عن اختلاف نوعي بين استخدام الشرائع السماوية لهذه الأساليب، وبين تأسيسها عبر سلطة تشريعية تفصل بين الدين والسياسة.

فالشرائع السماوية اعتبرت تلك الأساليب بمثابة علاج استثنائي لعناصر تعاني من انحراف

في الفطرة، ولم تقرر أبدًا صلاحية تلك الوسائل لمجمل بني الإنسان. فسائر البشر فُطروا في المنظور القرآني على التوحيد، وفطرتهم مرنة وقابلة للتطور والترقي، وينبغي التعويل على تربيتها، وعلى تعميق ما تتصف به من خصال كريمة. بتعبير آخر، فإنه كما يحتاج الجسد إلى غذاء وإلى تربية بدنية، فإن روح الإنسان تحتاج إلى تغذيتها من طفولتها بغذاء معنوي يليق بإنسانيتها، وإمدادها بما يعوض ما تفقده من هذا الغذاء عبر أطوار نموها، بعلاج رقيق هادئ، يستهدف تحقيق التغيير من داخل الإنسان، وتحويل ما هو معوج من نزعاته وأهدافه، إلى ما يوافق تكريمه وحريته. ومع تعدد أشكال هذا العلاج، وتشعب مسالكه، فإنه يظل قابلًا لما يمكن التعبير عنه بجملة موجزة: إيقاظ الإحساس بالمسئولية في ضميره.

وجوهر هذا الغذاء والعلاج هو: إشعار كل من يعمل عملًا، وكل من ينوي أن يُقبل على عمل ما، بأمور ثلاثة: أن عمله منظور إليه ومعدود له أو عليه، وأن كل حركة وكل سكون منه محسوب ومسموع ومنظور وموضع مساءلة، وصقل القناعة الداخلية لديه بقيمة هذه المحاسبة في موقف عظيم تهابه النفوس، وتخشى ما قد يُسفر عنه من لوم وتثريب، حتى لو لم يكن وراء ذلك عقوبة ولا مثوبة.

خامسًا: كثافة السلطة المحاسبة: انقسم العقل الإنساني إلى ثلاث شعب، في تحديد السلطة المخولة بحساب الذوات الإنسانية. فثمة من رأوْا أن الإنسان يُحاسب أمام ضميره الفردي، وثمة من قالوا بأنه يُحاسب أمام الأمة. وثمة من قالوا أنه يُحاسب أمام اللَّه وحده. وانطلاقًا من ذلك دعا الفريق الأول إلى التركيز في عملية التنشئة على التربية الأخلاقية، في حين رأى الفريق الثاني التأكيد على تربية الوجدان الاجتماعي، في حين دعا الفريق الأخير إلى التركيز على تربية الشعور الديني. وحده القرآن الذي رأى أن أي تنشئة لا تعتمد على تلك الشُّعب الثلاث مجتمعة، لن تُؤْتي أُكُلها. فالتربية يجب أن تكون جامعة للضمير الفردي والوجدان الاجتماعي والشعور الديني في آن واحد، من أجل تنشئة جيل: يعرف الحق ويتمسك به، ويعرف الباطل ويحذر منه، ويعمل من أجل الحق وبالحق.

سادسًا: السياق القرآني كما تؤشر سورة الفاتحة يستبطن الدعوة إلى تجاوز العدل إلى مستوى الفضل والإحسان، على صعيد التعامل مع الآخر، وقبول العدل في تعامل الآخر مع الأنا. والمتأمل في تصنيف البشر حسب موقفهم من العدل والفضل، يمكنه أن يميز بين ثلاثة أصناف: دعاة الأثرة (المحبون للأخذ عن العطاء)، ودعاة الإيثار (المحبون للبذل أكثر من حبهم للأخذ)، ودعاة المعادلة والمبادلة (الذين يقابلون الحسنة بالحسنة والسيئة بالسيئة).

- **والصنف الأول**: يتسم بخصال خمس: الحرص على حفظ ما في اليد، والتطلع إلى أخذ ما في يد الغير، الحرص على أن يَظْلم قبل أن يُعتدى عليه، وتجاوز الحد في استيفاء الحق وفي الانتقام، والسعي إلى أن يكون هو الرابح، ولو كانت الوسيلة هي الإثم والعدوان.

- **أما الصنف الثاني**: فإن عنوانه هو الميل إلى العفو والصفح، أكثر من ميله إلى الانتقام، ويتسم في معاملته لغيره بسخاء النفس بحيث يحب أن يعطي أكثر مما يأخذ.

- **أما الصنف الثالث**، فلا يعطي إلا بقدر ما يأخذ. وهو بالتالي يحيا في دائرة العدل في مواجهة أهل العدل، ويتجاوزها إلى دائرة الإحسان في دائرة أهل الإحسان.

ومن الملاحظ أن الخطاب القرآني ممتلئ بذم الصنف الأول وتحذيره، والتحذير من القرب منه ومن محاكاته. أما من يقدم العدل وحده، فإن القرآن يعتبره غير صاحب فضل. فالإيثار هو نقطة الفضيلة. والاستئثار هو نقطة الرذيلة. والمقاصة الدقيقة بين الحقوق والواجبات هي نقطة الصفر المرخص بها بلا ثواب ولا عقاب.

ومن النماذج القرآنية المبينة لذلك قول اللَّه تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٨، ١٤٩]. فالبدء بالإساءة يستوجب غضب اللَّه. ويأتي استثناء من أساء في القول ردًّا على مظلمة وقعت عليه من عداد المغضوب عليهم، ولكن دون ثناء عليه من اللَّه. أما حين يأتي الحديث عن العفو عن الإساءة، فإن الآية تبين أن ذلك بمثابة التخلق بصفة من صفات اللَّه تعالى. ويتضح ذلك المعنى بكل جلاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]. وداخل هذا السياق يقرر القرآن الكريم: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. فالأخذ بغير حق رذيلة. وبذل ما هو أكثر من الحق فضيلة. أما نقطة الوسط وهي التوبة من ذلك، فتأتي دون ترغيب ولا ترهيب.

إلا أن ثمة حالة واحدة يُعتبر فيها العدل فضيلة في المنظور القرآني. ويصير المطلوب هو إحقاق الحق. وهذه الحالة هي: مقام الحكم. ففي مقام المعاملة يدعو القرآن الكريم إلى العفو وكرم الأخلاق، وليس إلى مجرد تقديم الحق. ويدعو في هذا السياق إلى النهي عن الفحش والغلظة واللغو، ويأمر بالعفو عن الأذى والمغفرة، والرد على السيئة بالتي هي أحسن، واحتمال الأذى، وبذل الأكثر، وأخذ الأقل. أما في مقام الحكم الذي يقوم فيه طرف ثالث بالفصل بين طرفي خصومة، فإن المطلوب يصير هو العدل. والإيثار في هذه الحالة

هو الظلم بعينه. ففي سورة النساء، يأتي مدح العدل في الحكم بين الناس،حيث يقول اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء: ٥٨].

سابعًا: التربية بعبرة سيرة الأولين: يقدم القرآن الكريم فيضًا من القصص الحق الكاشف عن العبرة والسنن الكونية، التي يمكن توظيفها في عملية التنشئة الإنسانية. ومن بين النماذج التي يمكن الإشارة إليها هنا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]. فلقد وردت دعوة القرآن أمة الإجابة إلى يوم القيامة إلى تلمس: معية الصادقين عقب تصوير عاقبة: أزمة ناجمة عن التمسك بالصدق، في مقابل تمكن غير الصادقين من الفرار المؤقت من المسئولية عن سوء فعلهم عبر الكذب والنفاق. ويجلي القرآن هنا وقائع الأزمة التي تعرض لها الثلاثة الذين تخلفوا بلا عذر عن غزوة تبوك، وآثروا التزام الصدق حين سألهم الرسول ﷺ عن مبرر تخلفهم. فلقد ترتب في البداية، على التزام الصدق، صدور أمر من الرسول ﷺ إلى المجتمع، بما فيه زوجات هؤلاء باجتنابهم. وأسفر ذلك عن إحساس أولئك الثلاثة بالوحشة، وتلمس أسباب التوبة من اللَّه تعالى. فكانت بداية هذا الموقف زلة، تبعها التزام بالصدق، وتولد عن ذلك أزمة ضاقت بها الأرض بما رحبت عليهم، وكان آخرها توبة نصوحًا مصحوبة بوصفهم بالصادقين، ودعوة أمة الإجابة عبر كل زمان ومكان إلى تلمس معيتهم. وهكذا كانت الشجاعة في قول الحق هي الطريق إلى سمو المكانة في نهاية المطاف، بعكس قول الزور الذي تمكن به مَنْ تَخَلَّفَ من المنافقين عن تلك الغزوة من الاعتذار عند رسول اللَّه ﷺ، مع تفويض أمرهم إلى اللَّه، تأسيسًا على أن للأمة الظاهر، واللَّه يتولى السرائر. وتضمنت الآية الكريمة في دعوتها إلى تقوى اللَّه، تنبيهًا إلى ضرورة الاحتراز من الوقوع في الخطأ، وبنت على ذلك وصية إضافية فحواها: ضرورة الحذر من أن يجمع الإنسان على نفسه، حين يلم بذنب، بين: جريمة التقصير في الفعل، وجريمة الكذب في القول.

ثامنًا: كرامة الذات الإنسانية: يقرر الإسلام كرامة مثلثة للشخصية الإنسانية، أضلاعها هي: العصمة، والعزة، والاستحقاق. فالإنسان مكرم بما أنه إنسان، بدليل قول اللَّه تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وتتعمق هذه الكرامة برافد العزة بدخول الذات الإنسانية ضمن أمة الإجابة، لقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

[المنافقون: ٨]، وتستمد كرامة الإنسان عمقًا آخر: بالتزام المكْرَم بإنسانيته، العزيز بالانتماء لأمة الإجابة، بتحري موافقة عمله وسيرته لطبيعته المكرمة وعقيدته الصحيحة، لقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

بيد أن الكرامة المستمدة من طبيعة الإنسان هي أقدم الكرامات وأوسعها وأدومها. وهي منحة ربانية للإنسان، حتى وهو جنين في بطن أمه. هي بتعبير آخر، سياج من الصيانة للإنسان في كل مجالات المقاصد الخمسة للشريعة: الدين والنفس والعقل والمال والنسل، عبر كافة أطوار حياته. وبهذه الحصانة يحمي الإسلام الإنسان، سواء كان من أوليائه أو من أعدائه، في حياتـه وبعد مماته، حيث يحرم انتهاك كرامته، حيًّا وميتًا، بحظر العدوان، والظلم، والتشويه والتمثيل.

ولا حاجة إلى التذكرة هنا بأن تقرير الكرامة كحق وتوضيح معالمها شيء، وشعور الإنسان بالكرامة بالفعل شيء آخر. فالقرآن الكريم يمهد الطرق لتوليد الإحساس لدى الإنسان بعدم التفريط في كرامته، ويحرضه على الدفاع عنها، والتضحية بكل نفيس من أجلها. آية ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

- **ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الكرامة التي يقررها القرآن للذات الإنسانية:** الكرامة الإنسانية (ببعدها الدفاعي السلبي الخارجي، بإنشاء أُطر لصيانة الحرية والعصمة، وببعدها الإيجابي بتوليد نظرة الإنسان إلى نفسه ككائن مكرم متساوٍ مع غيره من البشر، وكل ما في البر والبحر والهواء مسخر لهم معًا، بما يترتب على ذلك من وعي بالذات، نابع من إحساس كل إنسان بأن رأسه مساوية لرأس أي إنسان آخر)، والكرامة الإيمانية (النابعة من كرامة الحرية والعزة، التي تأبى على صاحبها أن يَذل لأي مخلوق غيره أيًّا كان، بما أن عقيدته تتأسس على كونه عبدًا للَّه وحده) والكرامة السلوكية (كرامة العمل الصالح، المصلـح، المتقن، المتحلي بالإخلاص والتقوى، التي يتزود به الإنسان في كدحه الدائم، للوصول إلى معارج الرضا الإلهي).

ومن الأساليب التي يحمي بها القرآن، الكرامة الإنسانية بمختلف صورها المذكورة، دعوته إلى: الإعراض عن اللغو وعن السخرية من أعمال الآخرين أو أشخاصهم، وعن استهجان ما يعتبر خصالًا خلقية في الآخرين بلا إرادة منهم، كاللون والقصر وضعف البنية، على سبيل المثال. ومن الأساليب القرآنية للتنشئة على التحرر من هذه الخصال، وتعزيز

الحصانة ضد القابلية للإصابة بها، دعوة الإنسان بالحُجة تارة، وباسم الإيمان تارة أخرى، وباسم الحس والوجدان الإنساني تارة ثالثة، إلى التحرر من تلك الرذائل. ومما جاء في القرآن الكريم في هذا الصدد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

ومن المداخل القرآنية أيضًا لحماية كرامة الإنسان، نحت أساليب ثلاثة لإزالة الرق، الذي سوَّى بينه وبين الموت المعنوي للإنسان. وهذه الوسائل هي: تنشئة حواجز حول تلك الظاهرة، من شأنها محاصرتها ومنع انتشار آثارها المدمرة للعمارة الإنسانية إلى خارجها، وإبداع مفاتيح لأبواب الهروب منها، وتقرير منظومة حقوق لمن يقدر له البقاء في أسرها، عنوانها: المساواة بينه وبين سيده في المأكل والملبس والمشرب والمسكن، وعدم تحميله ما يفوق استطاعته.

والمتأمل في السياق القرآني، يلاحظ أن الإسلام أقام طوقًا حول فضاء الرق، يكفل ضموره وزواله، بأساليب من بينها: منع استرقاق الأحرار، بهدر كافة الأسباب التي اتخذت قبل البعثة المحمدية لتبرير استعباد الإنسان للإنسان كالخطف والسلب والعجز عن الوفاء بالدين والسرقة والتغلب في الحرب، وتحكم رب الأسرة في مقدرات أفرادها. ومن هذه الأساليب أيضًا الإرشاد إلى منع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا في حالةِ الاضطرارِ وخوفِ العنت كسبيل لتجفيف منابع استمرار ظاهرة الرق. ولم يترك القرآن غير نافذة صغيرة لإمكانية المعاملة بالمثل فيما يتعلق بالأسرى، مع التأكيد على أن حق الأسير هو الحرية من باب المَنّ أو الفداء، بعد أن تضع الحرب أوزارها.

ونظر القرآن إلى استرقاق الإنسان على أنه مرادف لقتل الإنسان، معتبرًا الحرية أمرًا مساويًا للحياة ذاتها. ومن ثَمّ جعل تحرير الرقبة كفارة للقتل الخطأ، وفتح أبوابًا واسعةً لإخراج الرقيق إلى فضاء الحرية، من بينها تقرير: المكاتبة وتشريع الكفارات، وتخصيص سهم في بيت المال لفداء الأسرى، وكفالة حق المعاملة الكريمة على قدم المساواة، لمن لم يصلوا بعد إلى رحاب الحرية في مواجهة من يستعبدونهم[1].

ويشكل مفهوم الحج بدوره مَعينًا ثريًّا بالدلالات والمضامين المرتبطة بالتنشئة، تتصدرها دلالة بعثة الرسول ﷺ في مكة المكرمة، وسط نواة للأمة المتلقية للدعوة، عميقة الإحساس

(١) د. محمد عبد اللَّه دراز: نخبة الأزهار...، مرجع سابق، ص٥٠ – ٧٢.

بالحرية. ففي تلك البيئة، تجسدت الحرية والفطرة بأسمى معانيها، حيث نجد أرضًا لم تدنسها على مدى التاريخ، قبل ذلك، أقـدام الفاتحين، واستعصى الإنسان المقيم فيها على أي غاصب، انطلاقًا من مقاومة فطرية لديه. وجاء الإسلام ليُحوِّل هذه النواة من: أيام الجاهلية وحَميتها إلى: أيام اللَّه وحمية الحق، فحملت تلك النواة الحرة، الإسلام كدعوة إلى الحرية إلى العالمين[1].

وتتأكد عناية الإسلام بالبعد الجمعي في الشعائر الإسلامية، كأحد وسائل تكريس مفهوم الأمة الواحدة، في فريضة الحج. ولو كان الحج فريضة يراد بها أن يزكي المرء نفسه بصفته الفردية فحسب، لَمَا كان هناك أي معنى لتحديد مكان وزمان واحد لأداء تلك الفريضة. وجوهر الدلالة السياسية الإنسانية لمفهوم الحج في عملية التنشئة هو: التربية على التجمع والتكتل، المجسد للجسد الواحد، على محك وحدة العقيدة والشريعة ووحدة القبلة. فمكة بموقعها الوسط وبشعيرة الحج السنوية فيها بمثابة وسيلة لخلق إحساس بالوطن الجامع بين المسلمين على اختلاف أقطارهم وأنسابهم وألوانهم.

ويتبين هنا الفرق الواضح بين العمرة التي يمكن أن تفرغ ذمة الفرد من أدائها منفردًا في أي وقت، بوصفها عبادة روحية فردية كمعظم النوافل، وبين الحج كركن يرمي إلى التربية على مفهوم الجماعة، واستحضار روحها والسعي إلى بنائها.

فالبعد الجمعي، واستشعار روح الجماعة، بمثابة ركن ركين في فريضة الحج. ووجود مكة في سُرة الأرض يساهم إلى حد بعيد في تحقيق التعارف بين الشعوب، وإتاحة الفرصة للتنسيق والاقتباس، والتدريب العملي على التعايش مع شتى الفوارق الشكلية، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بأنه: شهود منافع للناس، ومن أهم هذه المنافع: الارتقاء على القوميات المنفصلة، والفرعيات المنعزلة.

وينضبط أمر شد الرحال إلى الحرم بالاستطاعة، وبمراعاة عدم التسوية بين دوائر المسؤولية، حيث يُعتبر الإنسان مسؤولًا عن من يعولهم، ومحققًا لأجر القرابة والصدقة بمد يد العون إلى أولي الأرحام. ويصل تأكيد الإسلام على سمو مقام السعي في تحقيق حد الكفاية للنفس ولمن تعول، إلى حد تقديمه على اثنين من أركان الإسلام. فلا صدقة ولا زكاة إلا عن ظهر غنى. ولاحج إلا عن استطاعة. والسعي إلى تحصيل الكفاية فرض على الدوام، يصل إلى حد التكليف برعاية حق الذرية في تركها غنية لا تتكفف الناس، في حين أن القرب

(١) د. محمد عبد اللَّه دراز: نخبة الأزهار...، مرجع سابق، ص١٤١ - ١٥٠.

من الحرم بالحج والعمرة، لا يقع في مقام الفريضة إلا مرة واحدة. وبالعكس، يصاحب مفهوم القرب المعنوي من الحرم الأمة على الدوام بالقِبلة والصلاة.

وينحصر مفهوم الكنز غير المستطاب في ضوء مضامين ارتباط مفهوم الحرم بالكفاية والتكافل والقيام باستحقاقات التمكين، في المال الذي لم تؤدَّ زكاته، وهو ما يجرى إمساكه مما هو فوق الحاجة في حالة الجوائح التي تلمُّ بالأمة. ففي المال زكاة، وفيه حقوق عارضة، كَفَكِّ الأسير وإطعام الجائع. وخير ما يكنزه المرء هو: اللسان الذاكر والمرأة الصالحة. ويقابله الإنفاق في المعاصي المتضمن للعصيان بالإنفاق وبالتناول، ولا يدخل في الكنز ما تم ادخاره لسداد قرض أو لإعداد العدة للإنفاق في سبيل اللَّه. وفي ضوء ذلك تتجلى درجة التكريم التي كانت تحظى بها المرأة، بإطلاق مفهوم: الحرم والحريم والحرمة، عليها، قبل التشويـه الذي لحق بها واستبدلها بما هو أدنى من قبيل: النوع.

ومن أوسع أبواب إعادة الاعتبار لمفهوم التنشئة السياسية الإسلامية، والتحرك من جديد على طريق استعادة وحدة الأمة، التفكير الجاد في التخطيط لاستعادة البعد الغائب، في تعاطي الأمة مع الإمكانيات التربوية الكامنة في شعيرة الحج، في واقعها الحاضر، المتمثل في توظيف تلك الشعيرة في التنشئة على الانفتاح على الحكمة أيًّا كان رافدها، والتعارف بين الشعوب، والتدريب على التسامح تجاه الفوارق الشكلية، وعلى شهود منافع للأمة في الاقتصاد والسياسة وكل دروب الحياة، بحيث يصير الحج عروة إنسانية جامعة. وفي هذا الإطار ذاته، تشمل عملية التنشئة توجيه النشء لاستحضار المضامين السياسية لزيارة المدينة المنورة، وزيارة قبر الرسول ﷺ، بأمور من قبيل تذكر ما قام به الرسول ﷺ في هذه المواطن من بيان وتربية للأمة، وقيادة لها، وجمع للمال وإنفاقه، وجهاد بالقرآن.

ومن أهم الحلقات المفقودة في الأنظمة الاجتماعية في العالم الإسلامي في لحظة الوهن الراهنة، غياب دور المجتمع، وضمور الوعي بالقيمة المعنوية لموقف الجماعة. وأسفر ذلك عن وجود بيئة مريضة، خالية من مقومات التحصين والتحذير والشهادة. ومن أهم ما تحتاج إليه الأمة في هذا الصدد: إعادة الوعي بفضاء مفهوم ربطه القرآنُ بالحج، هو: تقوى القلوب. وجوهر هذا المفهوم، هو الصبر والمصابرة، في القيام بواجب النصيحة، ورعاية ضمير الأمة، بالفعل لا بالقول وحده، وتذكير الناسي، وتنبيه الغافل، وإشعار المُصِر المعاند بالعزلة والإعراض إلى أن يفيء إلى أمر اللَّه.

ومن أساليب التنشئة المستوحاة من فريضة الصيام: توظيف الفضاء المعرفي للمفاهيم المتعلقة بها. ويمكن التمثيل بنموذج لتوظيف مفهوم (الهلال)، بما أنه هو العلامة الفارقة التي بها يتحدد الصيام، ويتحدد الفطر. فالهلال يشير إلى حركة الانضمام والإحاطة، التي تنشط في اتجاه التحول عبر الزمن إلى دائرة، وهو يؤشر بذلك على أن الخَلْق والأمر بيد اللَّه تعالى، وينبغي من ثَمَّ أن تتوجه الوجوه إليه جميعًا، وأن تترسم أمة الإجابة صورة الهلال في حياتها. وهو بذلك بمثابة داعٍ للأمة، بشكل يتكرر مع توالي الشهور، إلى: اتخاذ أسباب التواصل بين أطرافها، بما أنها أمة واحدة، ينبغي أن تتلاحم صفوفها، وتستوي، وتصير يدًا على مِنْ هم سواها. ومن الأسئلة التي يمكن أن يثيرها الإنسان مع نفسه باستلهام دلالة الهلال: المقارنة بين حالة بيوت اللَّه تعالى في رمضان وفي الأشهر الأخرى، والنظر فيما يحدث في أندية المسلمين من غِيبَة، وما يعتري أسواقهم من مراء وغش. وتوظيف الهلال على هذا النحو، يجعله بمثابة آية للأمة لاستبدال الشك باليقين واستحضار حقيقة الاستغفار والتوبة، والتربية على صبر الحر المختار، وعلى السعي إلى فتح مسالك الروح، وإسكات صوت الهوى، والتخلق بسلوكيات الانطلاق الروحي عبر: التكبير والدعاء وتدارس القرآن والقيام إيمانًا واحتسابًا للَّه[١].

ويكشف إمعان النظر في الطبيعة الاجتماعية لفريضة الصيام، والطبيعة الاجتماعية الأخلاقية لفريضة الزكاة، والصدقات، عن أن أركان الإسلام ذات طرفين: طرف يربط الإنسان بربه ويقوده على طريق المحبة للَّه، وطرف يربطه بإخوانه، ويربيه على: المحبة في اللَّه.

ويمكن توظيف مفهوم العيد في التنشئة على المعاني الإنسانية المتمثلة في: الفرح باقتحام العقبة، والتربية على الوحدة والمساواة، بمنأى عن التزمت الروحي، وعن أغلال المادة، بالدخول في رحاب الصدقة والتكبير واللعب المباح، والتأكيد على المعنى الاجتماعي الإنساني في زكاة الفطر وأضحية عيد الأضحى من جهة، وتفعيل الوحدة بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة على الصعيد الروحي والجغرافي معًا[٢].

---

(١) د. محمد عبد اللَّه دراز: نخبة الأزهار...، مرجع سابق، ص١٥٥ – ١٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٦، ٢٠٢.

المَبْحَثُ الثَّانِي
التنشئة على التدبر

جوهر التنشئة السياسية الرشيدة هو حسن التدبر في الوجود كله، ويراد به: بلوغ عاقبة حسنة، بالعمل عن روية. وذروة سنامه هي: تدبر القرآن، بمعنى: تفهمه والتفكر فيه، على نحو يكفل حسن العاقبة. **ومن أهم معالم الطريق إلى ذلك:**

أولًا: الانفتاح العقلي والقلبي:

لا موضع لتدبر القرآن كناظم لتدبر الوجود كله بقلب عليه قفل، ولا بتعامل سطحي. فالقرآن كتاب حياة، وهو بمثابة صياغة لقوانين الوجود الإنساني اللا زمانية واللا مكانية. وهو تبيان لكل شيء. وحظوظ البشر من فهمه وتدبره على مراتب ودرجات. والأمة حين تتخذه إمامًا، فإنها تستطيع أن تحدث التغيير الإيجابي. وشرط ذلك هو: الفهم الصحيح له. فالقرآن نزل كبرنامج للإصلاح، ولاستبدال واقع صالح بواقع فاسد. وهو لم يتحدث عن عالم الغيب المستور لذاته، بل لخدمة عالم الشهادة. ومن الخطأ بالتالي أن نحوِّله من كتاب حياة ودليل حركة، إلى كتاب غيبي، منفصم عن الواقع الحياتي المحسوس، وعن صياغة حاضر البشرية ومستقبلها.

والمدخل المجسد لهذا الانفتاح هو: التدبر في القرآن الكريم من مدخل ربطه بالحياة، وربط الحياة به على مستوى الذات الفردية والجماعة والمجتمع والأمة، والانشغال بالتعرف على معالم المنهج القرآني في التغيير الاجتماعي، وإبداع أسباب تكفل الحياة في ظل القرآن.

ثانيًا: السير على سبيل الكوثر:

ترسم سورة الكوثر التي هي أقصر سور القرآن الكريم، ولا تتعدى كلماتها العشر كلمات، والتي تتخذ من مفهوم (الكوثر) نواة لها، شروط استحقاق الذات الإنسانية الكوثر، ومضامينه، ولبابها هو:الأسوة بالنبي ﷺ. والعرب يسمون كل شيء كثير في العدد والقوة والخطر، كوثرًا. والإعطاء هو إيصال الشيء إلى الآخذ له، على وجه التمليك، أو على وجه الاستخلاف. ويستبطن التعبير بلفظ الجمع في مصدر العطاء الكوثري: الطابع الجامع للخير الكثير، الموعود به لمن يقتدي بذلك النموذج النبوي.

وحين نتتبع ما ذكره المفسرون لمفهوم (الكوثر) نجد روافد كثيرة له من قبيل: الخير الكثير، نهر في الجنة، خير عظيم معطى للرسول ﷺ، حوض النبي ﷺ في أرض المحشر،

كثرة نسل أمة محمد ﷺ، علماء أمته، القرآن، التوحيد، العلم والحكمة، تيسير القرآن، التخفيف ورفع الإصر والأغلال، الإسلام، المقام المحمود، الشفاعة، النصر على الأعداء. ويأتي ذلك كله في الرد على اتهام قريش للرسول ﷺ بأنه (أبتر) بما أنه – بموازين أيام الجاهلية – لا ولد له من بعده. **وتتحدد شروط حصول الإنسانية على الكوثر الرباني بـ:**

١ – شكر النعمة بعبادة اللَّه، ونفع البشر:

رافق إعطاء اللَّه رسوله ﷺ الكوثر، طلب ربه منه شكرًا يضاهي هذا الخير العميم، عبر الصلاة، التي من مضامينها الخشوع للَّه والتمجيد والرحمة، والذبح للَّه. ومن الأمور ذات الدلالة المهمة هنا أن الصلاة والنحر هما لرب محمد ﷺ. والتربية هي إنشاء الشيء حالًا فحالًا، حتى الوصول به إلى حد التمام. والمتكفل بذلك هو: الرب، المربي المنعم المصلح. ووسيلتا التربية هما: العبادة البدنية، والعبادة المالية، كعلامة على التوحيد الخالص للَّه. والشانئ هو: المبغض. والأبتر هو: من ينقطع ذكره من الخير لانقطاع عقبه، وانقطاعه عن قومه.

٢ – الوعي بقابلية مقاييس البشر للخطأ:

لما كان محمد ﷺ لم ينقطع ذكره بفقدان نسله، بل رفع له اللَّه ذكره، في حين قطع ذكر من يبغضه، فإن ذلك يقوم دليلًا على: قابلية المقاييس البشرية للخطأ. فالعبرة بموازين: أيام اللَّه. ومفتاح الوقاية من البتر هو: هجر موازين أيام الجاهلية. فلا مستقبل لأية ذات إنسانية تستشرف مستقبلها بميزان أيام الجاهلية. وذكر الشانئ بالصفة وليس بالاسم يجعله يتناول كل من كان في مثل حاله في البغي والحسد. والصيغة التي جاءت بها هذه السورة تحصر (البتر) في (الشانئ)، في مقابل (الكوثر). فالأبتر هو المنقطع عن كل خير.

٣ – التغيير المنضبط:

تقدم سورة الكوثر وفق هذا التأسيس نموذجًا لهداية البشرية على طريق التغيير السوي. والصورة التي تطرحها هنا هي مواجهة بين الصفوة الإسلامية الأولى، الحائزة لـ: برنامج للتغيير القرآني، وقيادة للتغيير، وجمهور مؤمن بالتغيير، في مقابل: أعداء للتغيير يستخدمون أساليب الدعاية المغرضة، بهدف التشكيك في مستقبل قيادة التغيير القرآني، ممثلة في شخص النبي ﷺ. وبين هاتين القوتين البشريتين، يأتي الدفاع الرباني عن قيادة التغيير وبرنامجها. **وتتحرك عملية التغيير في اتجاهين:**

– **من القاعدة إلى القمة**، في عملية ربط للحاضر بالمستقبل، وتزويد الأمة ببرنامج للفعل الإنساني في الأرض المحقق للخير الكثير في الدنيا والآخرة، عبر الأخذ بالأسباب المحققة

للفوز في الدنيا والآخرة. ويأتي هنا التعديل الرباني لمقياس المنفعة عند الإنسان، بحيث ترتبط بمرضاة اللَّه تعالى، لا بالمال والولد. ومن المضامين السياسية الكامنة، التي يمكن استلهامها في تعزيز التنشئة السياسية بها، من وفاة كافة أبناء الرسول الذكور في حياته، والتحاق آخر بناته به بعد شهور معدودات، تعليم النشء أمرين أساسيين: وجوب تجاوز الإنسان الانشغال بما حُرم منه من متاع الدنيا، بالانطلاق إلى آفاق ساحة الانتفاع بما أعطاه اللَّه له، وتثبيت مبدأ جديد لنظام الحكم الإسلامي، بحيث يقوم على الأهلية والكفاءة، لا على الوراثة.

- **أما الاتجاه الثاني لحركة التغيير المتحرك من أعلى إلى أسفل**، فعنوانه هو: العطاء الإلهي على مستوى العلاقة بين الأمة وقيادتها، في مقابل مطالبة الأمة بأن تقدم ما في وسعها من عطاء مادي وإنساني، يتبلور في سلوك تعبدي، وفي سلوك عملي لصالح بني الإنسان، ويتخذ من تزكية المال والنفس عنوانًا له في مواجهة الحرب الإعلامية والنفسية.

فعملية التغيير القرآني تضعنا أمام: برنامج للتغيير، وقيادة، وجمهور مؤمنين بالتغيير وعاملين له، في مواجهة واقع صراعي من جانب المستفيدين من الوضع القائم، الساعين إلى تفتيت وحدة الصف الإسلامي المؤمن بالمنهج القرآني في التغيير. ويقود الفريق الأخير معركته عبر حملة تشويش على مستقبل القيادة، رمزها هو (الأبتر). وغاية هذه الحملة هي: ترويج مقولة حتمية السقوط المستقبلي للمشروع الإسلامي. ويجيء الرد القرآني على نحو يدعم ثقة القاعدة بالقيادة، حيث تولى الرد عنها ربها ﷻ، بوعد مستقبلي لا حدود له. ولم يرد هذا الوعد بلا تكليف للأمة، في المقابل، بأن تبذل كل ما في وسعها من أجل استحقاقه، حيث ترتب عليه وجوب الطاعة البدنية والمالية، بما يستدعيه ذلك من تحديد للأهداف، ولوسائل الوصول إليها، ولآليات التنفيذ. وتحدد الهدف الأساسي للأمة بـ: الأخذ بالأسباب لتحقيق الخير الكثير والوصول إليه، وتجسيده بكافة الأشكال المشروعة الممكنة.

ويرشد السياق القرآني هنا إلى أن جوهر فلاح عملية التنشئة هو: تجسيد الخير الكثير على المستوى الدنيوي بتحقيق التناغم بين القيادة والقاعدة على صعيد الحاضر والمستقبل، على ركيزة بناء الوعي بمنظومة القيم الإسلامية، واستلهام القدوة النبوية، وتصحيح النظرة الجاهلية التي تقصر الأبتر على من لا عقب له من الذكور، والتحصين ضد الدعاية السلبية الرامية إلى الوهن النفسي.

ومفتاح تحقيق هذا الهدف هو: تعديل مقياس المنفعة الإنسانية، وتحرير الإنسان من القياس المادي النفعي الدنيوي لصالح الإيثار، والمقام المحمود في الآخرة. ومطية بلوغ

ذلك هي الاستزادة الدائمة من العلم الصحيح النافع،الكاشف عن آيات اللَّه في الآفاق وفي النفس بما أن العلم هو أساس التمكين، وهو بطبيعته كوثري العائد، طالما كان ضابطه هو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وعبر امتلاك الأمة لهذا المفتاح، ورعايتها لتلك المطية حق رعايتها، يغدو بوسعها أن ترسم على المستوى السياسي ما يمكن أن نسميه: بخرائط الحياة الطيبة، التي تضع بها الإصر والأغلال عن الأسرة الإنسانية، وتكفل تحقيق الخير الكثير واستدامته بالإحسان والعدل، بما أن الظلم ظلمات.

ولا جدوى من خرائط لا تتنزل على واقع الأمة، بتخطيط محكم، لا يعرف العشوائية في الحركة. ففي مقابل العطاء بغير حساب، يتعين القيام بالواجب على نحو مخطط يشمل السعي إلى إسعاد البشرية برمتها، قدر الطاقة. وكوثر الرسول، بذلك، هو: أمة تحقق شرط اللَّه فيها، حيث يقول اللَّه تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وتضع هذه الخرائط، الذوات الإنسانية الفردية والجماعية، في كل زمان ومكان أمام الاختيار من بين نموذجين للحياة في أرض اللَّه: (السخي الكوثري) في مقابل (البخيل العوسجي). ومن مدخل حث الإنسان على محاكاة أرض اللَّه، التي منها خلق، وعليها يعيش، ومنها يتغذى، في الموازنة بين السخاء والبخل، ينفتح باب بالغ الاتساع، لتحصيل الرشد، وللارتقاء بنوعية الحياة. ولَمَّا كان الإنسان يوزن بمحصلة المقاصة بين أفعاله الصالحة والطالحة، فإن الحركة تظل هي الجسر الواصل بين الجسد والروح. ولَمَّا كان أصل النطفة من الغذاء، فإن أجسادنا وذريتنا لا تزال تُخلق من تراب بشكل غير مباشر. والإنسان له فعل وإرادة في اختيار طينته وطينة ذريته، وهو مدعو إلى ابتغاء النبل المعنوي، وتحاشي القسوة والأذى المعنوي، وتحري الأرحام الصالحة للنطف، بما أن العامل الوراثي له أثره الكبير على الإنسان. كما أن الإنسان مطالب بعملية التغيير للعادات والتقاليد المكتسبة، عبر التفاعل مع الأشياء والأحداث والأشخاص. وهو في عملية التحول والارتقاء على مدارج الرقي الإنساني، يكتسب خصال الرحمة والمحبة، وتتولد فيه الشخصية الكوثرية. وهو في المقابل حين يتحرك على دركات الشح بالتعامل السلبي مع الموجودات يتحجر قلبه، ويصاب بالبخل، واللامبالاة بأمر الإنسانية.

ومن بين المضامين السياسية المهمة في الرد الإلهي على تهمة (الأبتر) المتولدة من رحم أيام الجاهلية التوجيه إلى: معالجة المناخ الممتلئ بالبغضاء والعدوان المادي

والمعنوي، بالصلاة التي تختزن كل معاني السمو بالانفتاح على اللَّه تعالى، بما يعنيه ذلك من رحابة في الأفق، وانفتاح على الحياة بكاملها، والتحول عن الانشغال بالأمور التافهة، إلى الانشغال بالمهام الأولى بالاهتمام. فالصلاة ذات بعد تربوي تعبوي، في مواجهة النفس الأمارة بالسوء، والعدو الخارجي، وهي عنوان التحول من انقطاع الخير، الناجم عن أيام الجاهلية، إلى رحاب الكوثر الناجم عن التوحيد.

أما البعد الثاني من برنامج المواجهة المتمثل في النحر من أجل اللَّه تعالى، فيتضمن تعبيرًا عمليًّا مجسدًا لروح التضحية، وعلامة على الخروج من دائرة التقوقع على الذات، إلى دائرة تعزيز حرية الإنسان، وتحريره من الحاجة، وتوحيد التوجه والاتجاه بالتوجه إلى القبلة في الصلاة، وإلى اللَّه تعالى في النحر. والكعبة رمز للخير كله وهي عنوان للتواصل، ولعزة المؤمن بالخضوع للَّه وحده. واستقبالها يمثل بؤرة للجمع بين روافد الانتشار الكوثري للخير الإنساني، على مدارج الكدح إلى اللَّه تعالى واستحضار المصير إليه.

ويتشابك مفهوم النحر ذاته، مع الصلاة من زاوية: ابتغاء العزة عبر العبادة. ومن مضامين توجيه الرسول إلى الصلاة قبل النحر، الإشارة إلى أن الصلاة هي الأصل لكونها تتضمن تكبير اللَّه تعالى كشعار للتحرير، والخضوع القولي والعملي للَّه تعالى. والنحر واحد من علامات الصدق في الصلاة. وإذا كان السجود هو الرمز لغاية القرب من اللَّه، وغاية التواضع له، فإن تكبيرة الإحرام ترمز إلى الانفتاح على عملية تربوية تعبوية إيجابية، يجري فيها التسليم للَّه واستحضار النية لوحدانية اللَّه تعالى. وتجسد صيغة (اللَّه أكبر) الإيمان باستصغار ما عداه، واستحضار لذة مناجاته. والأذان ذاته يتضمن التربية على التسليم بأن للَّه الخلق والأمر.

ويوضح النحر أن ثمة علاقة متبادلة بين تزكية النفس وتزكية المال. فما لم يكن هناك استعداد لدى النفس للتزكية، فإن تأثير النحر على داخل الإنسان وخارجه لا يتحقق. والزكاة في جوهرها: آلية نماء للمال، وتطهير للنفس. وتضييع الزكاة يؤدي إلى تضييع المال ومنع البركة. والتربية على البذل المعنوي والمادي هي مفتاح تحصيل الكوثر بتتابع النعم دون الإصابة بالبطر والترف.

ويرقَى التخلقُ بالكوثرية بخير أمة أخرجت للناس عن دركات الرد على الدعايات الهدامة بمثلها إلى رحاب مواجهتها بـ: المبادرة بالفعل البنَّاء، بتطوير العلاقة مع الخَلق عبر الارتباط بالخالق، ومحاكاة العطاء الكوثري بالفعل في الحياة، من أجل إمدادها بالسخاء، وبتر جذور الشح وتبعاته، بتعزيز قابليات التدافع الإنساني، والعزوف عن الرد عن الأساليب اللا إنسانية بمثلها، والانطلاق من الواقع القائم لتحقيق الأمل المنشود. فالسورة الكريمة تزلزل

المفهوم الجاهلي لـ (الشخص الأبتر)، مبينة أن الذكور لا يشكلون قيمة اجتماعية بحد ذاتهم، إلا وَفْق المنظور الجاهلي. أما الأبتر في ميزان اللَّه تعالى فهو: من لا يفعل الخيرات. والكوثري هو من يصلي وينحر للَّه تعالى. وهكذا يقابل القرآن بين مفهومي: مجتمع البتر، ومجتمع الكوثرية، ويرشد الأمة إلى: الزهد في الأعمال البتراء (فهي من شأن الكارهين للحق والحقيقة)، والانشغال بالأعمال الكوثرية (لأنها عنوان النبي ﷺ ومن يقتدي به).

وهكذا تؤسس هذه السورة بكلماتها العشر، لتصور شامل لمواجهة الدعاية المشككة في القيادة، وبيان معالم الطريق إلى الرقي المعنوي على الخصم، وتطوير الطاقة الموهوبة للأمة بالعمل للَّه تعالى ولصالح الإنسانية على منهج اللَّه تعالى، كأساس للامتداد الزماني والمكاني للخير في الدنيا والآخرة[1].

٤ - الحذر من عاقبة التلهي بالتكاثر:

تحذر سورةُ التكاثر الإنسانيةَ من عاقبة المتكاثرين بعددهم، المنخرطين فيما لا يجدي من أعمال، المنشغلين بها عن ما هو أهم. فالسورة تنعي حال قوم جمعوا المال من غير حله، واكتنزوه إلى أن دخلوا قبورهم، وتلهوا بذلك عن أمر دينهم، وما يتعلق بحاضرهم ومستقبلهم، بما لا طائل وراءه بالمباهاة بكثرة المال والعدد، إلى حد التكاثر بعدد الأحياء والموتى.

ولم ترد في القرآن الكريم لفظة (زرتم) إلا في هذه السورة. ومن الدلالات الحسية لهذا المفهوم: الميل والاعوجاج، ومن دلالاتها حين ترتبط بالموت، الإشارة إلى البعث. فالزائر منصرف غير مقيم. وورود مفهوم المقابر بدل القبور، يتلاءم معنويًّا مع التكاثر إلى حد التفاخر بالموتى، والدفن في القبور بعد ضياع العمر في اللَّهو بالتكاثر دون تنبه واعتبار.

وتوجه السورة، الجماعة البشرية، بعد ذلك بأسلوب الردع والزجر، إلى ضرورة الاهتمام بالمستقبل البعيد، والاحتفاء بالعلم على مستوى إدراك الكليات، والتماس إدراك الأشياء على حقيقتها، وتجاوز حالة الغفلة العقيمة، والتنبيه عن طريق التكرار إلى ضرورة تحاشي أن يظل الإنسان على غفلته إلى لحظة الاحتضار ودخول القبر، مع بيان أن المستقبل يتضمن بلوغ علم اليقين عند البعث والنشور. بل إن الإنسان ينتظره في المستقبل، التحول على متصل اليقين من: علم اليقين، إلى عين اليقين، إلى حق اليقين، مما يوجب استحضار المصير إلى اللَّه تعالى، والجزاء على الطاعة والمعصية، والسؤال عن أسباب النعيم التي

(١) علي حسن طه: أبعاد التنزيل، سورة الكوثر، سورة التكاثر، سورة الماعون، الهرمل، دار الرسول الأكرم ١٩٩، ص١٣ - ١٩٢.

أتيحت للإنسان في الدنيا فيما لو لم يستخدمها. وفى حين ورد مفهوم (النعمة) في القرآن الكريم تسعًا وأربعين مرة، في معرض الإشارة إلى ما أنعم اللَّه به على عباده في الدنيا، فإن مفهوم (النعيم) لم يرد إلا فيما يخص الآخرة، في آية التكاثر التي نحن بصدد البحث في مضامينها ودلالاتها.

ويفتح الحقل الدلالي للمفاهيم الأساسية الواردة في هذه السورة الكريمة آفاقًا رحبة، لاستخلاص خطوط عريضة لمخطط لعملية تنشئة سياسية، تكفل تحرير أمتنا من حالة الوهن الراهنة، الناجمة عن محاكاتها لسنن من كانوا قبلها بحذافيرها، والخروج من جحر الضب الذي أدمنتْ منذ قرون عديدة دخوله وراءهم. ويرسم هذا الحقل الدلالي معالم عملية تخلية صادقة كاشفة تضع الأمة الإسلامية أمام صورتها الواقعية عبر استعادة وعيها بعبرة ذلك السلوك، وبمآل الأمم التي تُسِنه، والتي تحاكيه.

ويتمثل مفتاح هذه العملية، في تحريك القابلية للتغيير بتكريس إيحاءات نفسية (بالغوص في عمق النفس البشرية المنحرفة عن الفطرة السوية، لإظهار سلبياتها كمقدمة ضرورية لتحريرها والارتقاء بمدى استعدادها للتربية على تأسيس الأعمال على الكيف لا على الكم، والانطلاق من التغيير النفسي الداخلي للجماعة إلى تغيير واقعها الخارجي)، وإيحاءات تنظيمية (من أهمها التأسيس لرؤية للحياة تقوم على: نبذ اللَّهو، والتنبيه إلى أن التكاثر سبيل للتشرذم، وتضييع للعمر فيما لا طائل منه. وبالتالي، فإن تخطيط الحياة، واعتبار الثروة وسيلة وليست غاية، والتصرف المسئول تجاه ما سخره اللَّه للإنسان للقيام بالخلافة في الأرض، هو شرط النعيم في الآخرة. فالتكاثر بالأموال يُفضي إلى السعي إلى تحصيلها بطرق غير مشروعة، والانشغال بهاجس الاستزادة منها عن ابتغاء مرضاة اللَّه، مما يُفضي إلى جمود المشاعر الإنسانية، وجعل المال دُولَة بين الأغنياء، وحرمان الأغلبية من حد الكفاية).

ومن الإيحاءات النفسية لمفهوم (زيارة المقابر) الإيحاء للإنسان بأن الموت هو مصيره الحتمي. وهو قد يدفع الإنسان إلى اليأس تارة، وإلى الصراع تارة أخرى. ولا سبيل إلى التوازن النفسي في التعامل معه إلا الإيمان. ومن هذه الإيحاءات أيضًا أن قيمة الشيء تقدر بدوامه، وأن التفاعل بين شعوري الموت والحياة، يمكن أن يكون له تأثير تصحيحي، فيما لو ارتبط بترسيخ حاسة استحضار الثواب والعقاب. فهو في هذه الحالة يوجه العقل الإنساني للتفكير في البعث والحساب، وضرورة تحديد الوجهة في التعامل مع معطيات الحياة، باعتبار القبر مناظرًا لمحطة توقيف وتحقيق، واستحضار مضامين دفن الأموات، بما يرتبط بها من ضرورات صحية، بمضامين مواراة السوءات، والتفكير المستقبلي الذي لا يضيع الفرصة،

ويهتم بالتخطيط للمستقبل على نحو يفتح آفاقًا جديدة لتوظيف العبرة والطموح، ويمحو الفواصل بين الحاضر والمستقبل، من أجل زيادة معرفة الإنسان بالسنن، ورسم معالم خط ارتقائي للعمل الإنساني، يُخرجه من حالة الغفلة إلى حالة الشهود، ويوجهه إلى التربية الفردية والجماعية، التي تؤمن بأن نعيم الآخرة مترتب على حسن الاستفادة من نعم الدنيا[1].

وتكشف سورة التكاثر، على نحو ما بينا، أن من طبيعة الإنسان النزوع إلى التلهي بما لا طائل من ورائه، في حالة افتقاده للمنهج الإلهي. والوعي بهذه الحقيقة هو مفتاح عملية الترويض الإنساني للارتقاء، بما يجعله لا ينجذب إلى المادية الأرضية، وإنما يتجاوزها إلى رحاب النعيم واليقين بالنعيم. وبتعبير آخر، يدفع الوعي بآفاق سلبيات نموذج الأمة البشرية المتلهية بالتكاثر حتى يأتيها أجلها، الأمة الساعية إلى الصلاح والإصلاح في الأرض، إلى الحذر من: قبر التطلعات في مقبرة الهوى واللهو، الذي يعوقها عن القيام بوظائف بانية للحياة، وتلمس أسباب الخروج من الحياة القشرية التافهة، إلى رحاب مشروع حضاري، تصل به إلى الحياة الطيبة، وحسن الخاتمة، بما أن علة خلق اللَّه الحياةَ والموتَ لكل المخلوقات، بما فيها الأمم الإنسانية، هي: الابتلاء بالتسابق في الخيرات، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

وتفتح هذه السورة الكريمة مغاليقَ واحدٍ من أخطر أبواب فساد العمران الإنساني، وهو: تسليم الأمة زمامها للملأ. فملأ أية أمة هم قاطرة إلهائها بالتكاثر، إنْ هي رضيت بطاعتهم بلا ضوابط تكفل بقاء كلمة الفصل مملوكة لها. والبون شاسع بين دور الملأ في عملية الإلهاء هذه، وبين دور أمة قائمة بالحق، لا يعلو أحد فيها على الحساب، وتتعاظم مستويات المحاسبة والدقة في موازينها، في مواجهة أولي الأمر، والمتحملين للأمانات، وحاشية ذوي النفوذ والسلطان، وتتحرر من التلهي بالتكاثر وتتحاشَى آثاره، وفي مقدمتها: حياة الترف، والأنانية، والآثار السلبية لتعميق الفروق بين الأثرياء المتكاثرين والفقراء بالتخطيط لبرامج من شأنها: أن تربي الصدقات، وتهتم بالنوعية وليس بمطلق العدد، وتنظم موارد الأمة في كل أحوالها.

وإذا كانت زيارة القبر واجبة، فإن ذلك يستدعي التحضير لها، والنظر إلى الآخرة كدار مستقر، والمقارنة بين الخلود الأخروي، ومدة إقامتنا في عالم الدنيا، في ظلال التعبير عن الإقامة بالقبر إلى يوم القيامة بـ: الزيارة. ويصير السؤال الأم للذات الإنسانية الفردية

(١) علي حسن طه: أبعاد التنزيل، مرجع سابق، ص٢١٩ – ٣١٩.

والجماعية التي تتم تنشئتها من مدخل الاسترشاد بمفهوم (زيارة المقابر) هو: ما الزاد الذي يمكن به المرور المسئول من الدنيا إلى الآخرة؟. ويربطنا تذكر الموت بمبدأ الثواب والعقاب. ويولِّد التفكر بالخلود والفناء الرغبةَ في الارتقاء والتخلص من السلبيات. ويصير لبُّ مفهوم (الموت المعنوي للجماعة المنظمة)، في ظل هذا التصور هو: التراخي عن أداء الواجب.

وتكشف بعض مقولات السلف، عن عمق مفهومي الحياة والموت في القرآن. من ذلك مثلًا: ربط عبد القادر الجيلاني مفهوم الموت بالمعصية، ومفهوم الحياة بالطاعة، حيث يقول: أول من مات من الخلق هو إبليس. مات بالمعصية. فالمؤمن حي وغير المؤمن ميت. ويربط بهذا المعنى بين: الصلاح والحياة، وبين الفساد والموت، ويتحدث من هذا المنطلق عن: موتى القلوب، الذين ينخرطون في طلب الدنيا، ويجعلون القرآن حجة عليهم، ويقفون منه عند حد العلم دون العمل، فيصير نصيبهم منه بمثابة القشور، ويعتبر ما لا نفع فيه كالعدم، كما يعتبر أن كل ما لا يثمر، ويمتلك القابلية للتجديد، في حكم العدم[١].

ويكشف الجيلاني من جهة أخرى عن معنى إيجابي لنوعية من الموت، تتمثل فيما يسميه: موت الخواص، وهو: الموت عن الخلق في الجملة. ويربط بين هذا المفهوم وبين مفهوم الحياة بتعريف الحياة بأنها: وضع الإنسان كل شيء في موضعه، حتى يصير له هو موضع عند اللَّه، وطوي ديوان العلم، للاشتغال بنشر ديوان: العمل للَّه تعالى. وفي المقابل يُعرّف موت القلوب: بأنه الغفلة عن ذكر اللَّه تعالى. ويحدد أربعة أشياء لتحقيق حياة القلب: النظر في النعمة، وصيانة الكرامة، والتفرغ للطاعة، وترك ما يشغل الإنسان عن اللَّه. ويحذِّر من أنه إن لم تعمل الأمة بالقرآن، فإن اللَّه يمسخ قلبها. ويصل إلى القول بأن: الموت نوعان: موت العوام، وهو الموت المعهود، وموت الخواص، وهو إحياء القلب بموت الهوى والعادة[٢].

ويصب مصدر آخر، في مَعين بيان سعة فضاء مفهوم (الحياة)، في مقابل مفهوم (الموت)، حيث يشمل مفهوم الحياة: كون الشيء بحيث تترتب عليه الآثار المطلوبة منه. فحياة الأرض، هي: كونها نابتة مخضرة، وموتها هو: جدبها. وحياة الكلمة، هي: كونها تؤثر التأثير المطلوب في السامع، وحياة الإنسان، هي: كونه متمتعًا بالفطرة الإنسانية السليمة، والعقل السليم. وخروج الحي من الميت، والعكس، يختلف حسب اختلاف حظ الكائن من الحياة والموت. ويدخل فيه خروج الإنسان الصالح، من الإنسان الطالح. فمفهوم

(١) انظر: عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٩٩٨م، ص١٤ – ٢٠، ص٣٤ – ٣٦.
(٢) المرجع السابق، ص١٩٠، ٢٠٦، ٢٤٩ ، ٢٧٦، ٣٦١.

إخراج الحي من الميت، يتمحور حول: إخراج الإنسان الحي بمقتضيات السعادة الإنسانية، من الإنسان الميت الذي لا سعادة له [١].

ومن نماذج السبح اللطيف في فضاء المفاهيم القرآنية، تلك الإشارة إلى مشهد الخيل القائمة بدورها الذي خلقها اللَّه للقيام به على خير وجه، في مقابل نفس إنسانية مصابة بالشح، بينما تنتظرها في مستقبلها لحظة: بَعْثَرَةِ القبور، وتحصيل ما في الصدور. والبخل هنا تمثيل لحقيقة وضعية الإنسان حين يخلو قلبه من الإيمان. وغاية القرآن ليست الانتقاص من الإنسان، وإنما دفعه إلى تجنيد إرادته لتحصين نفسه من الإصابة بالكنود. فالكنود ليس طبيعة للإنسان، وإنما هو نتيجة لعدم أخذه بأسباب الكدح على طريق الاستقامة. والقرآن هنا ينبه إلى تذكير الإنسان بنعم اللَّه تعالى، وبقدرة الإنسان على الاستفادة منها، أو إهدارها[٢].

والوعي الإنساني بمضامين مفهوم (زيارة القبور) وبارتباط وضعية الذات الإنسانية الفردية والجمعية فيها بما قدمت وأخرت، يعزز تمسكها بالحرية، واستعصائها على القابلية للإصابة بمتوالية الذل. فالذل يؤدي إلى الضعف، فالتفرق، فالتباعد، فالتحاسد، فالاستئثار الداخلي، فانقلاب الموازين، فتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم. والتفكير في المصير يحرر الإنسان من: طول الأمل، ونسيان الأجل، وسوء العمل، ويوجهه إلى البحث الجاد الواعي في التعامل المسئول في الحياة الدنيا، واستحضار الحقائق المستقبلية والتصرف على أساسها، بما أن كل آت قريب، بما يعنيه ذلك من: الحياة في الحاضر من أجل المستقبل. وفي ظل هذه الرؤية يتحول الموت نفسه إلى منبع للحياة، وبالأحرى، إلى روضة من رياض الجنة، لمن يتمثلون هذا المنهج، وحفرة من حفر النار لمن يغيب عنهم، أو يغيبون عنه[٣].

٥ - اتقاء عاقبة الشح:

تنبه سورة الماعون، إلى خصائص سلبية يجب أن تتحرر منها المجتمعات الإنسانية، في مقدمتها: التكذيب بالدين المتجسد في سلوكيات: دع اليتيم، عدم الحض على طعام المسكين، السهو عن الصلاة، المراءاة فيها، منع الماعون.

---

(١) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، من عمل تلميذه: عطية محمد سالم، تحقيق: هاني الحاج، القاهرة، المكتبة التوفيقية، د. ت، ١٠/ ١٩ - ٢٣، ٥٠ - ٥٣.

(٢) سيد قطب: مرجع سابق، ٦/ ٣٩٥٧ - ٣٩٥٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٨٤ - ٣١٦.

ومن الملاحظ أن الكذب يشمل: الاعتقاد والمقال والفعال. وورود الفعل (يُكذِّب) بصيغة المضارعة، يجعله شاملًا للحاضر والمستقبل. ومن علامات المجتمع المضيع: القسوة والغلظة في مواجهة اليتيم، وعدم حض النفس والغير على إطعام المسكين. فهو مجتمع لا يطعم عند القدرة، بل يبخل حتى بمال غيره، ولا يتحمل تبعة التواصي بالمرحمة، والقيام بحق المساكين. والعبرة بالأفعال، لا بمجرد الأقوال. فسورة الماعون تصف (الساهين عن صلاتهم) بـ (المصلين) بما يؤشر على أنهم رغم تأديتهم لها يتلبسون بالرياء، بدليل منعهم ما يستعار للانتفاع به، مما يدفع حاجةً من حوائج الحياة. وسهوهم هنا إنما هو عن الصلاة، وليس في الصلاة، بمعنى أنهم يتركون مقصودها عن عمد. والعذاب والسخط والقبح هو المصير الذي ينتظرهم، جزاء كونهم يتظاهرون بالإيمان، في حين يكذِّبون بالدين في العمل.

ومن أهم المضامين التي تشير إليها هذه السورة: ارتباط عملية التغيير الاجتماعي بالأساس العقيدي، في ضوء الربط بين البعد الإنساني المعيشي، والصلاة، مع تقديم حق الجماعة على العقيدة المرتبطة باللَّه، بل معايرة تلك العقيدة بتجسيدها في حق الجماعة، في تحديد سلم أولويات الحركة الإنسانية، والربط غير المباشر بين تأمين متطلبات الحياة وعبادة اللَّه، والتغيير من داخل الإنسان. وتبدأ عملية التغيير بتربية الوعي داخل الإنسان بالحاجة إليه، وطرح تصور واضح لِمَا ينبغي التخلص منه من خصال، وما ينبغي بناؤه من قيم لتغيير ما بالنفس، من أجل تغيير ما بالخارج.

وفي هذا السياق تتأسس العقيدة على الربط بين الشعائر والنظام الاجتماعي، مع تقديم حق الفئات الأكثر ضعفًا، والتنبيه على ضرورة التحرر من قسوة القلب، ورسم سلم للأولويات، من شأنه تعزيز دوافع التغيير، والقدرة على الموازنة بين الصواب والخطأ، وتحصين الأمة ضد أعداء التغيير، والعازفين عن التحرك على مسار: النفع للناس. وفي هذا السياق تصير الخدمة العامة ظلًّا للصلاة الصحيحة، بما يعنيه ذلك من أن من لا يفعل الخيرات، فهو مضيع للصلاة؛ لأنه لم يدرك علتها ووظيفتها[١].

ثالثًا: تحرير عائلة مفهوم التنشئة السياسية الإسلامية:

مفهوم التنشئة السياسية الإسلامية مفهوم مظلة يكاد يستدعي كافة المفاهيم القرآنية، من موقع المنظوم بها تارة، كما هو شأنه مع مفهوم الحرية الإنسانية التوحيدية، ومن موقع البحر

(١) سيد قطب: مرجع سابق، ص ٣٥٥ – ٣٩٥.

الجامع لروافدها المتغذي منها والمغذي لها تارة أخرى، كما هو شأنه مع القيم السياسية وثوابت هوية الأمة. ولقد تعرَّض العديدُ من المفاهيم الفرعية المشكِّلة لأسرة هذا المفهوم بمضامينها ودلالاتها القرآنية للتشويه المتعمد، والعفوي، مع تطاول عهد الأمة بالوهن، على نحو أفضى إلى أسر مفهوم التنشئة السياسية الإسلامية ذاته.

وبات فك هذا الأسر مرهونًا بتنقية أسرته من التشويه وإعادة بنائها من مرجعية قرآنية خالصة. ويقف الطموح البحثي بنا في هذا المبحث، عند مجرد الإشارة بشكل خاطف إلى نماذج دالَّة على حاجة أمتنا إلى أن تضع جماعتُها البحثيةُ هذا الاستحقاقَ على رأس قائمة همها البحثي، في ضوء المردود الثمين المرتقب، من مكابدة الاجتهاد في أسباب تحصيل هذا الهدف، الذي بات شرطًا لاستعادة الإنسانية كلها لكرامتها وحريتها بدوره.

ومن بين المفاهيم القرآنية الجديرة بتحريرها، مما لحق بها من تشويه، وإبرازها في عملية التنشئة السياسية:

١ - مفهوم الهبوط الآدمي:

منبع تشويه هذا المفهوم هو الذهول عن حقيقة أن آدم خُلق بالأساس للحياة في الأرض، وأنه لم يهبط إليها بسبب خطيئته الأولى، بل هبط إليها بعد أن تاب اللَّه عليه واجتباه، وأمده بهدى من لدنه. وإعادة بناء هذا المفهوم محورية لتصحيح مفاهيم كثيرة تأسس تشويهها على تشويهه. ويتضمن سياق هذا المفهوم في القرآن الكريم شواهد جمة على تجريد مفهوم الهبوط من أية دلالة تحقيرية للإنسان، حيث يصرح القرآن بأن الحق قد صور الإنسان في أحسن صورة، وبتمايز الإنسان عن أصله الترابي، وقابليته للتوبة والاصطفاء، الدالَّة على ضرورة سعيه إلى الارتقاء، مع عدم الاستهانة بالكون المسخر له الذي هو أداة تسبيحه للَّه وحمده، وتقرير المساواة بين البشر في المسئولية العمرانية والتسبيحية، وتحذيرهم من الشرك باللَّه؛ لأنه يصرفهم عن دواعي العمران. كل هذا ينبغي أن يكون ضابطًا لفهمنا لقوله تعالى: ﴿ **قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ٣٨].

فلقد رافق هذا الأمر إرشاد للإنسان بأنه مكلف بمهمة خُلق لأجلها على صورته، ومُنح فسحة زمنية، للقيام بها، وزُود بمنهج لامتلاك ميزان لتقويم إصابته وخطأه في أدائه لها. فالهبوط المصاحب للاستخلاف، هو بمثابة هبوط في اتجاه توفير الفرصة للإنسان للارتقاء، بفعله الصالح الحر، بما أنه ينزل إلى الأرض ليحقق الارتقاء الإنساني بإرادته، وليحترم

التكافل الإنساني في كل المتاع الأرضي الذي سخره اللَّه للناس كافة، وليقوم بمهمة: التدافع من أجل الخير، والتسابق في الخيرات، والتأسيس للإحسان في الأرض. ويرسم القرآن ضوابط لسعي الذوات الإنسانية، تحثها على التمكين لفطرتها السوية، ولقابليتها على التجديد والبعث، والترقي في الربط بين عالمي الشهادة والغيب، والصبر على المكاره، والرد على الإساءة بالإحسان[1].

٢ - مفهوم الجزية:

جاء النص على الجزية في الآية التاسعة والعشرين من التوبة: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]. وسياق الآية الكريمة يشير إلى أن الجزية ليست في مقابل المخالفة في العقيدة، وإنما هي إجراء في مواجهة المخالف في الأعمال، المتسم بالمعاندة والأنفة، رغم وجود دليل يستوجب تصرفه على نحو مخالف.

والجزيـة متروكة بالتالي للتـقدير السياسي لولاة أمر الأمة وللعـقد السياسي، الذي يبـرمونه مع غير المسلمـين، بدلـيل ما جرى عليه العمل في صدر الإسلام، مـن عدم تحصيلها من العبد وإن كان مقاتلًا، ولا من النساء والذرية والمسنين والرهبان، وأخذها، فحسب من القادر على القتال المقاتل، في حدود ما يتم التصالح عليه، في صور من بينها: المصالحة على الضيافة ثلاثة أيام. واستقرت أعراف السلف الصالح، على رفعها عن من يقبل الاشتراك في المجهود الحربي، مع إشراكه في الغنائم، ورفعها عن من يعجز عن أدائها، مع كفالة حد الكفاية له من بيت مال المسلمين، وعدم تكليف أغنياء المقاتلين غير المسلمين بأدائها عن فقرائهم. ومعنى دفعها عن يد، في ضوء تلك السلوكيات، هو: دفعها عن قدرة، وعن إنعام من المسلمين على خصمهم الذي فاء إلى الصلح. وهي بالتالي عنوان حرية ورشد في التعامل بين الأنا والآخر. بل إن الصحابة وظفوا مفهوم ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٧] في بيان أنهم ليسوا أصحاب يد عليا بهذا العطاء، وتزهيد المسلمين في شراء أراضٍ من أهالي المناطق المفتوحة، بما يعنيه ذلك بشكل غير مباشر من حرص إسلامي

(١) انظر في تفصيلات ذلك: مصطفى جابر فياض العلواني: عالمية الخطاب القرآني، دراسة تحليلية في السور المسبحات الخمس، إشراف: د. التيجاني عبد القادر حامد، د. طه جابر العلواني، د. محمد الحسن بريمة، جامعة الجزيرة: معهد إسلام المعرفة، أغسطس ٢٠٠٤م، ص٤٦ - ٦٠، ٧٢ - ٩٧. وللتدافع مظاهر مادية، كما أن له مظاهر سلمية معنوية، بما أن الأمة مطالبة بأن تكون أمة شاهدة. المرجع السابق، ص١٥٠ - ١٥٣.

على حماية أموال أهالي الأراضي التي دخلها الإسلام، وصيانة مقومات حريتهم[١].

٣ – التسوية بين مفهومي اللعنة والقتل:

كل ذكر للمصدر (قتل) في القرآن هو: لعن.فالقرآن يصل في تكريم الإنسان، من جهة، وتحذيره من جهة أخرى، أن يورد نفسه موارد استحقاق لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، إلى حد تقرير أن الملعون كالمقتول، في قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤]. ولما كان من يقاتله اللَّه يقتله، فإن فحوى القتال هنا: القتل باللعنة. ويمكن سحب هذا المعنى على المواطن القرآنية التي تضمنت دعوة إلى: قتل النفس، على أنها دعوة إلى نقد الذات، والخروج من دائرة خداعها. وفي هذا السياق ذاته، يأتي حديث القرآن عن اعتبار طاعة بني إسرائيل لرهبانهم بلا ضابط، مناظِرة لاتخاذهم أربابًا من دون اللَّه، فيما يؤشر إلى قابلية المؤسسة الدينية للنقد. فرجال الدين غير معصومين[٢].

٤ – مفهوم (الذمة):

من الملاحظات المهمة هنا أن مفهوم (الذمة) الذي يتعرض لعملية تشويه بالغة في العصر الحالي، يعني في الأساس: العهد والضمان، بمعنى استحقاق المتصف به لعهد اللَّه ورسوله والمسلمين، بعدم جواز النقض. ولم يرد هذا المفهوم في القرآن الكريم خاصًّا بغير المسلمين، وإنما ورد في معرض الإشارة إلى ذمة وإرادة عائدة على أمة الإجابة من جانب أمة الدعوة، بمعنى التطلع القرآني لِأَنْ تكون تلك الذمة هي أساس العلاقة بين البشر جميعًا. وورد هذا المفهوم مرتين فقط في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة: ١٠]. ومعنى ذلك، أن المسلمين حين أطلقوها على غيرهم، إنما كانوا يعنون الاعتراف بالتسوية في الحقوق والواجبات بصرف النظر عن الدين، كحق يقدمونه للآخر، ويتطلعون إلى أن يقدمه الآخر إليهم[٣].

---

(١) انظر: أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الريان للتراث، د. ت، ٥/ ٢٩٥٠ – ٢٩٥٥. وانظر أيضًا: د. السيد عمر: الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م، الباب الثالث.

(٢) انظر: أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: مرجع سابق، ص٢٩٥٨ – ٢٩٦٣.

(٣) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، مرجع سابق، ص٢٧٦.

٥ - مفهوم الولاء والبراء:

يحتاج هذا المفهوم إلى مراجعة دقيقة بقراءته في السياق القرآني كله. فالقرآن يأمر أمة الإجابة بالدخول في السِّلم كافة، ويقرر بوضوح لا لَبْس فيه أن السِّلم هو أصل العلاقة مع غير المسلمين، ما داموا لم يسعوا إلى فتنة البشر في دينهم. ويستند التغيير في منظور القرآن إلى ضوابط، يتصدرها: الانطلاق من داخل نفس الملتزم بمنهج اللَّه تعالى، الساعي إلى حماية منجزات الإنسانية، الملتزم بمقومات نصر اللَّه تعالى، وفي مقدمتها: الأمانة وتقوى اللَّه، والبعد عن دائرة العدوان بكل أشكاله، والتزود بالبر والإحسان، مع الصدق في ذلك كله، بامتلاك النية المخلصة للَّه. ويرسم القرآن الكريم معالم لمن لا يستحقون الولاء، تتمثل في: ابتغاء الفتنة، وإظهار السوء والمكر بأمة الإجابة، وبالنفس، والحسد، والتكبر في الأرض، والصد عن الخير، والوقوع في الجهالة والحماقة[١].

٦ - مفهوم الحكم بما أنزل اللَّه:

هذا واحد من أهم المفاهيم التي تحتاج إلى بنائها من السياق القرآني كله، وتبرهن على أن تأسيس فرع معرفي خاص بـ (التنشئة القرآنية) يتوقف على استعادة تحرير المفاهيم الإسلامية. ودون دخول في تفصيلات لا يتسع لها المقام يمكن الإشارة هنا إلى: مفهوم الإسلام بوصفه هو دين اللَّه من بداية الخليقة إلى نهايتها، وتأسيس المفاهيم المتفرعة عنه، وفي مقدمتها: التوحيد، الجهاد، الإيمان، الإنسان، الحكم بما أنزل اللَّه، الطهارة، الحب، العدل، الحق، المساواة، العبادة. فعدم تحرير مثل هذه المفاهيم كان ولا يزال واحدًا من أهم أبواب الفساد في الأرض؛ لأن عدم فهمها على الوجه الصحيح، يؤدي إلى زيغ في العقائد، وانحراف في السلوك[٢].

---

(١) يوسف كمال محمد: العلاقات الدولية (الولاء والبراء) كما تبينه سورتا الأنفال والتوبة، القاهرة، دار القلم، ٢٠٠١م، ص١٣ - ٣٠، ٤٥ - ٤٨. فلا سبيل للبراءة إلا من المعتدي لرد عدوانهم، والعودة إلى حالة السلم. المرجع السابق، ص٩٠ - ٩٢. ويأتي الإذن بمثل هذه البراءة معللًا بكونهم لا يراعون عهدًا ولا خلقًا، ويتسمون بالنفاق، ويشترون بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا، ويسعون إلى الفساد في الأرض. المرجع السابق، ص١٦٠ - ١٧٠. وتحذر سورة براءة من الوقوع في الشبهات، ومن نقض العهد، في سياق واحد. المرجع السابق، ص١٨٠ - ١٨٥.

(٢) وعلى سبيل المثال فإن الخطأ في تعريف مفهوم (النفس الواحدة)، الواردة في سورة الأعراف، الآية ١٨٩، والوقوع في وهم أنها تشير إلى آدم وحواء، جر إلى اتهام آدم بالشرك. وهو ما ينفيه السياق القرآني. فاللذان جعلا للَّه شركاء فيما آتاهما، هما من أبناء آدم بالقطع، ولا يلتفت إلى غير ذلك. كما أن الاكتفاء بشاهد قرآني واحد، يفضي إلى الخلط في المفاهيم. فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وأكل الرسول مع المجذوم، ونهيه في ذات الوقت عن القرب منه،موقفان يحتاج فهمهما كسياق مشترك، إلى رؤية جامعة بين: الإيمان بأن الأسباب لا تفضي إلى نتيجتها إلا بإرادة اللَّه، مع الوعي في ذات الوقت بضرورة الأخذ بالأسباب، إلى جانب التمييز بين ما صدر عن النبي بمقتضى الوحي كتشريع، وما صدر عنه بمقتضى طبيعته وخبرته الإنسانية، وهو ليس تشريعًا.

وفي ذات السياق، تأتي الإشارة إلى أن آيات سورة المائدة، المتعلقة بـ: الحكم بما أنزل اللَّه، أثارت جدلًا لم ينقطع حتى الآن، كلف الأمة الكثير، وأورد عناصر منها موارد التهلكة. فلقد كتب ابن القيم من عدة قرون أن الناس انقسموا إزاء هذه الآيات إلى فريقين: طرف أخرج الحاكم المتلبس بوصف الحكم بغير ما أنزل اللَّه، من الملة دون تفريق بين مدى اتصافه بذلك من مدخل الذهول عن تعدد دركات الكفر والظلم والفسق[١]. ولم يسأل هذا الفريق نفسه سؤالًا محوريًّا: هل ذلك الحاكم جحد شرع اللَّه، وقال بتفضيل شريعة المخلوقين عليه؟ أم أنه أقر بعصمة الشرع مع التقاعس عن التطبيق؟ وما مدى ذلك التقاعس؟ وما هي ملابساته؟ وما هو موقفه ممن يعارضه في رؤيته تلك؟. أما الفريق الثاني، فيرى أن الجاحد لشرع اللَّه، القائل بأن ما ينشئه العقل الإنساني، من تشريعات للعمران الإنساني، بمعزل عن الوحي الإلهي المنزل، أفضل مما جاء به رسل اللَّه، هو وحده القابل لوصف الخارج عن الملة. أما المتبوئون لمواقع أدنى من ذلك في موقفهم من الحكم بما أنزل اللَّه، فواقعون على نقاط أدنى على متصل: الإيمان/ الكفر والظلم والفسق.

وكما يقول ابن القيم فإن الفريق الأول لم يفرق بين الكفر والظلم والفسق على مستوى الاعتقاد، وعلى مستوى العمل، ولم يدرك أن لتلك المفاهيم مراتب لا تستوي في ميزان الحق. وتكشف المقارنة بين أشباه ونظائر هذه المفاهيم الثلاثة في القرآن الكريم أن كفر العمل لا ينفي عن صاحبه صفة الإيمان.

ويبين ابن القيم، في المقابل، أن أعمال الخير تتفاوت في مراتبها. فسقاية الحاج لا تستوي مع الجهاد، رغم ثناء اللَّه على عمارة البيت. والإيمان بدوره له مراتب، فمنه ما هو مانع من الخلود في النار، ومنه ما هو مانع من دخولها بالأساس[٢].

* * *
* *
*

(١) المائدة: ٤٤ – ٤٧.

(٢) د. صبري المتولي: مرجع سابق، ص١٠٤ – ١١٨.

obeikan.com

الفَصْلُ الرَّابِعُ

أركان علم التنشئة السياسية الإسلامية

لعلم التنشئة السياسية الإسلامية ثلاثة أركان، يستحيل تأسيسه إذا فُقد أي منها، وهي: الكلمة السواء، والعدل، والتحرر من هجر القرآن الكريم.وسنخصص مبحثًا لكل ركن منها، نجلي فيه خطوطه العريضة.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

التنشئة على الكلمة السواء

من المفاهيم القرآنية الأولى بإعادة بنائها للتأسيس لعلم التنشئة السياسية الإسلامية، وتصحيح مسار عملية التنشئة في عالمنا الإسلامي، مفهوم (الكلمة السواء). فهذا المفهوم واحد من أهم أعمدة استقامة الحياة على الأرض. وغياب الوعي بفضائه القرآني، هو الجذر الأساسي لعجز أمة الإجابة عن التحول إلى نموذج مجسد للرشد، تحقق به وضعية الأمة القطب، وتنفي حُجة الآخر عليها، وتمد البشرية بمقياس صحيح للعدل والإحسان بين الأمم.

ولا يدعو القرآن أمة الإجابة صراحة إلى المبادرة إلى دعوة أهل الكتاب إلى تلك الكلمة السواء، **بل يبين شروطها، ويرسم السبيل إليها، على النحو التالي:**

أولًا: مضمون الكلمة السواء:

جوهر هذا المضمون هو: تحرير الإنسانية من عبادة غير اللَّه. ويرسم القرآن الكريم معالم الطريق إلى تحقيقها بدعوة تشارك فيها كل ذات إنسانية فردية كانت أم جماعية، حسب استطاعتها وإمكانياتها، في حدود البصيرة التي تحققها بالمعرفة بمنهج اللَّه تعالى. وهي في ذلك ليست داعية إلى نفسها ولا إلى قولها، وإنما هي داعية إلى ربـها. وهي في قيامها بذلك مدعوة من اللَّه تعالى إلى دعوة البشر بالحكمة، بمخاطبتهم بما هو في حدود فهمهم، وتكليمهـم بلسانهم، وأخذهم بالرفـق، والمحافظة على مراتب الأعمال حسب وزنها الشرعي، بالاهتمام بكل شيء بالقدر الذي اهتم القرآن به. فمما ينهى عنه القرآن الكريم الدعوة الجزافية التي لا تحسن ترتيب أولوياتها، ولا تضع كل شيء في موضعه، وتُغرق نفسها، كما تُغرق أمة الدعوة في فرعيات، لا موضع للخوض فيها، قبل أن تصل فيما بينها، ومعها إلى كلمة سواء في الأصول ذاتها.

ويرشد الخطاب القرآني إلى نموذج سياسي في ترتيب العلاقة بين الإنسان وكافة الكائنات، يجمع بين الإيمان بالوحي وإعمال العقل، وبين الروحانية والقيم الأخلاقية والاعتبارات المادية، وبين الاعتزاز بالعقيدة والمثل الأعلى، وعدم تجاهل متطلبات الواقع، والسعي إلى إشاعة التسامح والحب. ويركز على الجدية، مع عدم نسيان حاجة الإنسان إلى الترويح. ويهتم بالمتطلبات المحلية المعاصرة، دون أن ينسى الأصالة والهم الإنساني الجامع. وهو مع استشرافه للمستقبل، لا يتنكر للماضي، ومع انفتاحه على أخلاقيات التيسير والاجتهاد، يحترم الثوابت، ويضع في قمة أولوياته صيانة حق الآخر، وإقامة العدل[١].

ثانيًا: المبادئ المؤسسة للكلمة السواء:

يوجهنا القرآن إلى التأسيس للكلمة السواء، على سبعة مبادئ:

١ - النظر في أسباب بقاء الأمم وزوالها:

يحض القرآن على الوعي بأن سُنة اللَّه في الأمم لا تتبدل. وأن التدبر في تاريخ الإنسانية يُوصل إلى اليقين بأن معاندة منهج اللَّه تعالى، تُفضي إلى هلاك الأمم، وانقطاع نسلها. والقرآن يقول: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ١٢٨]، ويقول أيضًا: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٣١]. فرؤية الآثار، والعلم بالأخبار، هو مفتاح للهداية لقراءة الأمم لمستقبلها.

ويكشف القرآن، أفقًا مستقبليًّا يصل إلى إطلاع البشرية على مضمون وعبرة الحوار بين المؤمنين وأصحاب النار يوم القيامة، مقررًا أن أساس التماس النور هو: الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وأن مدار قتل النفس هو: إهلاكها بالنفاق والشك في أمر الدين والعيش على الأماني. وأن من أهم ما يجب أن يحرص عليه الإنسان، أن يتحاشَى أن يكون فتنة لغيره. فحين يظهر غير المسلم على المسلم نتيجة تقاعس الأخير عن الأخذ بالأسباب، قد يظن الأول أنه على حق، وقد يخلط بين صلاحية منهج اللَّه، وبين عدم تمثل الحامل لمسمَّى المسلم لمقتضيات منهج اللَّه[٢].

---

(١) للتوسع في هذه المعالم الأساسية للخطاب القرآني، التي تدعو هذه الدراسة إلى بناء منهج للتنشئة السياسية يحاكيها ويلتزم بها، يراجع كتاب: د. يوسف القرضاوي: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٤م، ص٥٥ - ١٤٠.

(٢) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٢٤١هـ، ٥/ ١٧٨.

٢ - الدعوة إلى اللَّه والعمل الصالح:

يصل الندب إلى الدعوة إلى اللَّه والعمل الصالح بوصفهما أحسن القول، إلى حد الأمر بالرد على السيئة بالأحسن، وليس بالحسن بتجاوز مجرد العفـو إلى تقديم الخير، بما أن ذلك الدفع قد يكون هو الطريق لحض العدو المشاق إلى تحسين ظاهره، وربما إلى التخلي بالكلية عن عداوته والتحول إلى ولي شفيق. والصبر على جفاء الآخر، والتحلي بخصال الخير وكمال النفس في مواجهته، هو السبيل إلى الحظ العظيم في الميزان القرآني، الذي يحث أتباعه على الاستعاذة باللَّه من شر الشيطان، الذي يدعو الإنسان إلى الانصراف عن الدفع بالتي هي أحسن، سواء كان من شياطين الإنس أو من شياطين الجن، ويزين له الانتقام للنفس، أو حتى الـرد بالمثل. فالمؤمن يجب أن يكون علمًا في الإحسان[١].

٣ - التفكير العميق، والمتكرر في الابتلاء الإلهي للإنسان في خلق الموت والحياة، على محك من هو أحسن عملًا:

فأمة الإجابة تتسابق في الخيرات، وفي إثبات جدارتها برضا اللَّه تعالى. وسورة النور المسماة أيضًا بـ: المنجية والواقية، تبين أن اللَّه قد انفرد بإقامة نظام الموت والحياة، وربط بذلك ميزان أعمال العباد، في مُلك هو له وحده على الحقيقة، وخَلق أسباب الحياة، وأسباب الموت. وجوهرُ التكليف الإلهي للإنسان في مواجهة الابتلاء هو: السعي إلى أسباب الحياة، وفي مقدمتها العمل الصالح، والتخلص من أسباب الموت، بتحقيق دواعي الخلود. ويقتضي ذلك التأمل في خلق السماوات والأرض، وبناء اليقين على نحو متكرر، بعدم وجود فطور في نظامهما، كأساس ركين للبحث في السنن الكونية من جهة، والتسليم بضرورة ملازمة المنهج الإلهي من جهة أخرى، والتخلص من العتو ومن اللجاجة في الخصومة، ومن الاعوجاج في المسيرة[٢].

٤ - الصبر على مقولات الآخر والهجر الجميل:

يتعين، في ضوء هذا المبدأ، من باب أوْلى، الصبر والهجر الجميل في علاقة الأنا المسلم بذاته. ومقتضى الهجر الجميل هو: الإحسان فيه الذي يقف به عند حد ترك المخالطة، مع عدم تخطي ذلك إلى التفكير في الأذى أو في تعميق مشاعر الجفاء، أو التفكير في مكافأة

---

(١) شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، القاهرة: مكتبة دار التراث، د. ت، ٢٣، ٢٤/ ٤ - ١٢، ١٢٢ - ١٢٥.

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨١م، ٢٩/ ٦ - ٤٨.

الآخر بمثل قوله. فالقرآن يرشد إلى واحد من أمرين: مخالطة المخالف والصبر على أذاه، أو ترك المخالف مع الهجر الجميل.

٥ - التنفير من الرد الإنساني على السيئة بالمثل:

في حالة عدم عدوان الآخر على الأنا المسلم وفتنته في دينه، فإن القرآن يشير إلى ترك أمر المكذبين بالدين لغرورهم بسعة حالهم، إلى أن يحكم اللَّه في أمرهم. وتأتي الدعوة إلى الإمهال، رغم الإشارة السابقة إلى الفجور، وإلى الإصرار عليه، استنادًا إلى أن ما عند اللَّه من الجزاء على هذا الفعل هو أشد مما هو في قدرة الإنسان. وفي ذلك سلوى للمسلم عن الرغبة في إنزال العقاب بأخيه الإنسان، كما أن فيه تنبيهًا للإنسان على أن ينشد تعزيز حريته، بعدم الخوف بالأساس، إلا من سخط اللَّه عليه[١]. والفرق واضح بين انتظار أمة الإجابة لنصر اللَّه ورضاه، وانتظار المكذبين لسخط اللَّه تعالى والهلاك[٢].

٦ - الحث على الرد على التحية بأحسن منها:

تأتي هنا الإشارة إلى محورية مفهوم (الصلاة) في شبكة العلاقات الكونية. فصلاة اللَّه على عباده هي: الرحمة، وإثارة الذكر الحسن، وصلاة البشر هي الدعاء، وصلاة الملائكة هي الاستغفار. والجامع بين العناية والدعاء هو: إرادة الخير في الكون[٣]. ومن قبيل التحية بأحسن منها، رد السلام، وتعزيز خلق الشفاعة الحسنة بين الناس. فمن لا يفعل ذلك يصاب بمسخ القلب[٤].

٧ - إنزال القيم الإسلامية على ما بالنفس:

مقتضى العدل هو: استواء السريرة والعلانية، ومقتضى الإحسان: أن تكون سريرة الإنسان خير من علانيته. وجوهر الكلم الطيب هو: الباقيات الصالحات[٥]. ومن أسباب نسيان اللَّه للإنسان، في المقابل فردًا كان أو جماعة: هو نسيان الإنسان لنفسه، ومن قبيل النسيان: الإعراض والغفلة عن معرفة حال النفس، وحال الغير، والتدبر في مآلات أفعال

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، ٢٩/ ٢٦٩ - ٢٧١، ٣٤١، ٣٤٢.

(٢) محمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير للقرآن الكريم، عمان: وزارة التراث القومي الثقافي، ١٩٨٧م، ١٠/ ١٩٤ - ٢٠٤.

(٣) المرجع السابق، ص٢٧٣.

(٤) أبو الحجاج مجاهد بن جبر، تفسير مجاهد، بيروت، المنشورات العلمية، د. ت، ١/ ١٦٧ - ١٧١. ومن قبيل التحية بالتي هي أحسن ترسيخ أعراف تسمح بحرية حركة الإنسان وتزحزحه عما يكره، في مقابل الرد على ذلك بما هو أحسن منه. المرجع السابق، ص٢٣٩ - ٢٤١.

(٥) بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد اللَّه، ابن جماعة، غرر التبيان في من لم يسم في القرآن، دراسة وتحقيق: د. عبد الجواد خلف، بيروت: دار قتيبة، ١٩٩٠م، ص٣٠٤، ٣٧٠، ٣٧١، ٤٣٠ - ٤٣٤.

الأفراد والأمم، واستمراء الغي، بترك العمل بطاعة اللَّه، إلى أن تأتي البينة مع الأجل[١].

٨ - التعرف والتعارف:

الفرق جلي بين هذين المفهومين. الأول: يستبطن جهدًا من طرف، للحصول على معلومات عن طرف آخر. أما الثاني: فهو جهد تفاعلي بين طرفين، يسعى كل منهما إلى معرفة الآخر، والبحث عن قواسم مشتركة معه، انطلاقًا من اعتبار الفطرة الإسلامية بمثابة قاسم مشترك بين كافة الكائنات، وبالأخص بين كافة البشر. فكل ميسر لما خُلق له.

ويدعو القرآن الكريم، البشرية إلى التعارف كأساس لبناء الكلمة السواء بين الشعوب والأمم، حيث ينادي الناس جميعًا، أنْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويوجه الأمة الإسلامية، إلى مطالبة أهل الكتاب بالبحث عن أسباب الارتقاء إلى مستوى كلمة سواء ناظمة لعلاقتهم بها ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

و مفاد ذلك هو الدعوة إلى التعارف بين كافة البشر، وتأسيس العلاقة مع أهل الكتاب على الحرية التوحيدية. ويتضمن ذلك، من باب أوْلى، التكليف بالسعي إلى التعارف والكلمة السواء، كأساس للعلاقة بين الشعوب الإسلامية.

ثالثًا: الكلمة السواء بين فرقاء أمة الإجابة:

أمتنا بحاجة ماسة إلى إعادة بناء: كلمة سواء بين فرقائها وطوائفها، بذات درجة حاجتها إلى بناء تلك الكلمة مع الآخر. ويتصدر التأسيس لمفهوم (الكلمة السواء بين أبناء أمة الإجابة)، البحث في أساسيات العلاقة بين: ما بات يُعرف بأهل السنة، والشيعة، وتحرير تلك العلاقة من الحالة الراهنة المشوبة بعدم المعرفة الكافية تارة، والمعرفة المغلوطة تارة أخرى، والافتقار إلى بصيرة الإنصاف والعدل في قراءتها. **ومن الخطوط الأساسية لهذه المراجعة، البحث في:**

١ - تمثل عمق مفهوم تسوية الصف الإسلامي:

طوائف أمة الإجابة وشعوبها بحاجة ماسة إلى إقامة العدل في الصف الإسلامي، بأن

---

(١) أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دقائق التفسير، جمع وتقديم وتحليل: د. محمد السيد الجليند، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، د. ت، ٥/ ٢١٢ - ٢١٥، ٢٨٧.

يلزم كل منها الآخر بما يقوله، وليس بما يستنتجه هو، أو يفهمه مما يقوله، بأخذ مقولات كل طرف من كتبه لا من كتب غيره، ومن خطابه، لا من خطاب غيره عنه. ويجب أن تتمثل الأمة عمق النداء الذي تتغذى به، قبل تكبيرة الإحرام بأي صلاة جماعة، بتسوية الصف، بما أن اللَّه تعالى لا ينظر إلى الصف الأعوج، ساحة المساجد، ليصير دليلًا ناظمًا للعلاقة بين طوائفها وشعوبها، عبر عملية تعارف مخططة ومتعمقة، وبحث جاد ومخلص عن سبل تجسيد الحرية التوحيدية، في علاقة أعضاء جسد أمتنا الواحدة ببعضها.

وتتعدد المجالات التي ينبغي السعي إلى التعارف، لاستعادة استقامة الصف الإسلامي فيها، لتشمل: مجالات التذوق الجمالي، ومجالات العمل (للتمييز بين الخير والشر) ومجالات العلم (للتمييز بين الحقيقة والزيف)، ومجالات التوجيه (لتحديد مجال الحرية والاضطرار)، ومجالات النظر في الكائنات (لتوسيع دائرة المشهود)[1].

٢ - البحث في السيرة والعبرة التاريخية:

تقتضي إعادة تأسيس هذا المفهوم، البحث في سيرة نشأة الفرق الإسلامية، وإعادة تحرير ملابستها، ورصد معالم تطورها وخبرته وعبرته.

وتقدم دراسة حديثة، على وجازتها، نموذجًا إرشاديًّا يمكن أن تهتدي به الجماعة العلمية الإسلامية، في تطوير إطار منهجي منضبط لمشروع بحثي، حول: بناء الكلمة السواء بين طائفتي السنة والشيعة الإثني عشرية، صالح، في رأينا، إلى التعميم على العلاقة بين شعوب الأمة وطوائفها الأخرى وحكوماتها. **ومن أهم الخطوط المنهجية الإرشادية التي يقدمها هذا النموذج:**

أ - العدل في الحكم: يستدعي ضبطُ العلاقة بين السنة والشيعة، ببوصلة استعادة استواء الصف الإسلامي، الالتزامَ بضوابط ثلاثة، **أولها**: التركيز على الجامع المشترك عوضًا عن البحث عما يفرق، بما أن الفرقة داء منهي عنه في الإسلام، **وثانيها**: الحذر من البحث عن شرعية للخلاف السياسي بالعبث بالعقيدة، لمجافاة ذلك للميزان القرآني. فالعقيدة ثابت يجب عدم العبث به، وينبغي اتخاذه ميزانًا لما هو سواه. وقلب الأمر، بتحويل الموزون ميزانًا، تحريف للكلم عن مواضعه، **وثالثها**: حاجة الأمة إلى تعميم الوعي في صفوفها بخلاصة المراجعات الذاتية في فكر أهل السنة، وفي فكر الشيعة، في تحديد رؤية كل منهما

(١) د. أبو يعرب المرزوقي، مقومات وشروط الحوار السوي بين الحضارات، ضمن: أحمد مسجد جامعي، محاضرات في حوار الحضارات، دمشق: المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، ٢٠٠١م، ص٣٠، ٣١.

للآخر. فمن المخالف للميزان القرآني أن يواصل أبناء الأمة اجترار مقولات تاريخيـة مفرقة، رجع عنها جيل لاحق لمن قال بها، وتبين له زيفها[١].

ب - هامشية الفوارق المتبقية بين طائفتي السنة والشيعة: فلقد بينت الدراسة بحق أن الأمة يتوفر لديها إجماع كامل على ثوابت مشتركة، تعد أية خلافات، في حالة وعي الأمة بها، أمورًا ثانوية، من لوازم المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان وعلى رأس ذلك الثابت الجامع: الإجماع على أن القرآن الكريم هو الموجود في أيدينا الآن، وأن كل المقولات الخاصة بما يسمى: مصحف فاطمة، تتعلق في الحقيقة بشروح تفسيرية للقرآن. أما القرآن ذاته فثمة إجماع شيعي على أنه كتاب اللَّه، ولم يتعرض لأي تحريف ونُقل بشكل متواتر جيلًا عن جيل حتى الآن. ولا يختلف المصحف الذي تصدره المراجع الشيعية في إيران في شيء عن ذاك الذي يصدر في دوائر سنية، باستثناء اعتبار سورتي الضحى والانشراح سورة واحدة، والإيـلاف والفيل سورة واحدة. وهو اختلاف في أمر شكلي يسير. ومن العبث بعقل الأمة ترديد روايات توصلت الطائفة الشيعية ذاتها إلى تهوينها، والأولى إبراز الإجماع على أن الأمة تؤمن باللَّه، ورسولها واحد، وكتابها واحد، وأركان إسلامها واحدة، والاختلاف فيما بينها كان من بدايته اختلافًا حول فرعيات تتعلق بطريقة تأسيس السلطة في الدولة الإسلامية.

جـ - اندثار الفجوة بين المنظورين السني والشيعي للسلطة السياسية: يتعين التنويه، بداية، إلى أن السنة والشيعة لم يختلفا في تحديد وظيفة السلطة، بكونها السعي إلى إقامة عدل اللَّه ورسوله في الأرض. ثم إن الشيعة اجتهدوا في تطوير فكرهم السياسي، إلى حد جعل الفارق بينهم وبين الفكر السياسي السني، هامشيًّا للغاية. فلقد تحرك آية اللَّه الخوميني بذلك الفكر من دائرة: انتظار الإمام الغائب ليقيم هو الدولة وقتما يأتي، إلى رحاب: ولاية الفقيه في إقامة أمر الأمة وَفْق الشرع الإسلامي في غيبة الإمام. وتحرك آية اللَّه محمد مهدي شمس الدين بذلك الفكر إلى نقطة متقدمة أخرى، حيث نادى: بولاية الأمة على نفسها، بمعنى إقامة حكومة منتخبة بشكل حر في عصر الغيبة الكبرى. ووصل آية اللَّه منتظري في اجتهاده إلى حد اعتبار رضا الأمة أساسًا لتأسيس السلطة، واعتبار الشورى أداة للممارسة السياسية للسلطة.

وبات الخلاف بين الطائفتين منحصرًا في اعتبار الشيعة المهدي شخصًا بعينه، وذهاب أهل السنة إلى اعتباره شخصًا غير معين. ولم يعد لمفهوم العصمة مجال، ما دام الذي

---

(١) د. محمد سليم العوا: العلاقة بين السنة والشيعة، القاهرة، سفير الدولية للنشر، ٢٠٠٦م.

يلي الأمر هو الفقيه، أو هو النائب المنتخب من الأمة. فهما غير معصومين. ويتكثف في الفكر السياسي الشيعي الاتجاه إلى الكف عن سب الصحابة، بما أن المؤمن ليس سبابًا ولا لعانًا، وبما أن هذا السب باب لفرقة الأمة ونشر العداوة في صفها، كما يجرى تخليص المناهج الدراسية الشيعية من هذه الآفة، والتغليظ في الفتاوى على جرم من يسب الصحابة[١].

رابعًا: الكلمة السواء بين البشر والعوالم الكونية الأخرى:

لا يقف فضاء الدعوة القرآنية للإنسان عند تلمس أسباب إقامة الكلمة السواء بين البشر، بل يتجاوز ذلك إلى استعادتها بين: البشرية وعوالم الكون الأخرى، باستخدام كل شيء فيما خلقه اللَّه له، والاستفادة من تلك العوالم، بالتعرف على سننها، في بناء تصور رشيد لظاهرة السلطة، بتلمس محاكاة العلاقة بين البشر للعلاقة بين عوالم الكون الأخرى. ويأتي هنا، على سبيل المثال، التوجيه القرآني للبشرية، إلى التدبر في: كون كل عالم يمثل بنية لها نظامها المستقر، تتكون من مجموعة أجزاء متفاعلة، لكل منها فلكه الذي يتحرك فيه على الدوام، وتتفاعل مع العوالم الأخرى، وَفْق سنن لا تتبدل ولا تتحول، وكون وحدات عوالم النجوم والكواكب تتحرك كل واحدة منها في آن واحد حول نفسها، وحول مجموعتها، ومع مجموعتها في ذات الاتجاه ضمن العوالم الأخرى.

ويمكن التفكير على غرار ذلك في إبداع: بنية سلطة ذات قواعد شبه ثابتة لتفاعلات متبادلة للعملية السياسية بين أجزائها، وفيما بينها وبين نظائرها، ورسم معالم الأدوار السياسية المتكافلة، لشتى أنساق السلطة في المعمورة. وعبر التفكر في محاكاة مؤسسات السلطة في تفاعلها مع محيطها، لتفاعلات خلايا النبات مع محيطها، وبالأخص مع الضوء، في بناء عشرات المركبات في كل لحظة، ومحاكاة ما يقوم به الكبد في جسد الإنسان من عمليات بناء وهدم غايتها جعل ما يأتي إلى الجسد صالحًا له، وما يتيح إمكانية اختزانه لحالة الضرورة، فضلًا عن إفراز ما يساهم على تخليص الجسد مما ليس هو بحاجة إليه، يمكن فتح آفاق حقل التنشئة السياسية، على الاستفادة في عمارة القيم، من التسبيح المشترك بين السلطة وكل ما ومَن في محيطها، في تزويد البشرية بمتطلبات الحياة الطيبة، وتمكينها من ادخار ما لا تحتاجه في حاضرها، لتعزيز كفايتها في المستقبل، وإبداع آليات لتخليص جسد الأمة من الإفرازات الضارة المتولدة من حركته العمرانية، على غرار تخلص جسد الإنسان من الخبث والخبائث.

---

(١) د. محمد سليم العوا: العلاقة بين السنة والشيعة، المرجع السابق، ص١٦ – ٤٦.

والكون عامر بمظاهر القدرة الإلهية، التي يمكن للمنظِّرين السياسيين، لو تحولوا بأجندتهم البحثية، إلى التدبر في آفاق محاكاتها، في فضاء ظاهرة السلطة، إحداث تحول نوعي في ترشيد حياة الإنسان على الأرض. وتكفي الإشارة هنا إلى طبيعة الحركة المنتظمة في عالم مجرات الأجرام السماوية، والوظائف المتعددة لمكونات الأنظمة في الجسد الإنساني، وطبيعة عملية التكديس في الكثير من المخلوقات، ومظاهر القوة العجيبة في المخلوقات المتناهية الصغر والكبيرة في نفس الوقت. وبوسع المنظِّر السياسي أن يؤسس على قدرة البذرة الرقيقة على زحزحة الصخور واختراقها، الوعي بقدرة أي كيان سياسي على تلمس أسباب القدرة على البقاء، مهما كانت معطيات بيئته. وبوسعه أيضًا أن يؤسس على ظاهرة التعدد البالغ في أنواع المخلوقات وأشكالها، حقيقة كون الوجود لا يقبل الرؤية الأحادية، ويحتم التعددية السياسية[١].

ومن محاور تعزيز الحرية بحفظ الأمانات وأدائها، التوجيه إلى البحث عن (الكلمة السواء) بين أمة الإجابة وأمة الدعوة، مع بيان أن جوهر مفهوم (الكلمة السواء) هو الكلمة العدل بين الأنا والآخر التي يتساوى فيها الطرفان، ونواتها هي: الإقرار بأن البشر جميعًا هم: عباد اللَّه، لا فرق بين أحد منهم وغيره، إلا بالتقوى والعمل الصالح. وما دام العقل الإنساني، يشهد بأن كل البشر عباد للَّه، فإن مقتضى ذلك، نفي استحقاق بعضهم العبادة من بعض، ونفي وجوب الطاعة على بعضهم للبعض، إلا فيما كان طاعة للَّه. وآية ذلك، أن اللَّه لم يجعل لأحد من البشر طاعة مستقلة في غير المعروف. فقال في حدود الطاعة الواجبة للنبي ذاته: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ [الممتحنة: ١٢].

فلا إلزام لأحد بطاعة غير اللَّه إلا فيما أمر به، ولا موضع للتحليل والتحريم بفعل بشري، خارج حدود ما أحله اللَّه وحرمه، باعتبار ذلك بمثابة اتخاذ أرباب من البشر. وحماية لهذه الكلمة السواء، اعتبر القرآن الكريم من يتخلصون من استعباد البشر لهم (ملوكًا)، كما حذر من لم ينهون عن السوء، بالتسوية في الهلاك مع من عملوا السوء، ووصل في هذا إلى حد تحميل اليهود المعاصرين للنبي، مسئولية فعل أسلافهم، ما داموا مقرين له. فاللَّه يقول: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩١]. ورتب

(١) من المراجع التي يمكن الاسترشاد بها في هذا الصدد: جمال الدين عياد، قدرة اللَّه، مظاهرها من العلم الحديث، القاهرة، مجموعة شركات الطوبجي للطباعة والنشر والإعلان، د. ت.

القرآن الكريم شرعية القتال على نفي الفتنة في الدين، باستهداف حياة البشر بغير حق، وبالسعي في الفساد في الأرض[١].

خامسًا: محاور التنشئة على الكلمة السواء في المنظور القرآني:

من أهم هذه المحاور:

١ - تحديد الخط الفارق بين السلطة والحرية:

للحرية أفق نفسي ذاتي واجتماعي، حيث تتقيد بضابط داخلي ينبعث من نفس الإنسان، ويتجسد في خُلق: الحياء، إلى جانب ضوابط خارجية عرفية وقانونية، هي في جوهرها، في حالة التزامها بشرع اللَّه وسائل لحمايتها، ويستدعي كونها ظاهرة مجتمعية أن تكون نسبية من حيث الزمان والمكان، وأن يكون ناظمها هو: الرعاية المتبادلة بين أفراد كل نسق من أنساق الأمة، وبين كافة الأنساق الإنسانية.

وسؤال الإنسان على الدوام هو: ما هي الحرية؟ هل هي التحرر من القيود الفطرية؟ أم من القيود التي هي من صنع الإنسان ذاته؟ وهل الحقوق الفطرية ثابتة بحيث يُعتبر تقييد الإنسان لها عبثًا بها، أم هي حقوق نسبية؟ وهل الخير والشر بالتالي قيم مطلقة أم نسبية؟ وما السبيل للتوفيق بين الذات الفردية والجماعة في المكان الواحد وعبر الزمان؟ وبمعنى آخـر: ما هي طبيعة العلاقة بين الحرية وكل من العدالة والمساواة؟ وأين النقطة الصحيحة بين: جلد الذات، وكأن الأنا هو أصل كل الأخطاء، وتحميل الغير مسئولية كافة الأخطاء، وكأن الأنا مبرأ من الخطأ؟[٢].

ومن المداخل القرآنية لتنشئة الوعي بهذا الخيط الفاصل بين السلطة والحرية، أو بالأحرى بناء السلطة المسؤولة، توجيه الأمة إلى عدم التطلع إلى إلقاء مسئولية رعايتها على عاتق غيرها، مهما كانت درجة صلاحه. فمن عواقب إقدام الأمم على ذلك، الإصابة بالخمول، مما يؤدي في المدى البعيد، إلى تفريط الأمة في واجب إعانة من ولَّتْهم أمرها على الاستقامة، في القيام به، مما يُفضي إلى إطلاق يد السلطة السياسية في الأمة، والتأسيس للنماذج الفرعونية ولحكم الطاغوت. ومن شواهد ذلك، قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠٤]، المتضمن دعوة لأمة الإجابة إلى: تحاشي الإغراق في طلب رعاية الغير لها، حتى وإن كان

(١) أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص: أحكام القرآن، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت، ص١٤، ١٥، ٣٢، ٣٣، ٤٠١ - ٤٠٣.
(٢) سرى نسيبة، الحرية بين الحد والمطلق، بيروت، دار الساقي، ١٩٩٥م، ص٨ - ١١، ١٣٩ - ١٤٢.

هذا الغير بمستوى النبي ﷺ الرحيم بها الحريص عليها، المعصوم من الخطأ. فالمؤمنون مدعون إلى الاكتفاء بنظر الرسول ﷺ في أمرهم، لا برعايته له، بما في ذلك من مخالفة جلية لسلوكيات بني إسرائيل مع نبيهم ﷺ، حين قالوا له ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤][1].

ويأتي هنا التعنيف القرآني لمن لا يطابق قوله فعله، وبالأخص الجماعة المؤمنة. فالإشكالية الأساسية للحرية على مدى تاريخ العمران الإنساني، تتمثل في رسم الخط الفاصل بينها وبين السلطة، الجامع بينها وبين المسئولية فيها وعنها. فالبشرية تواجِه على الدوام معضلة القابلية: للإفراط أو للتفريط في تحديد مفهوم الحرية، والغموض في رسم معالم شبكته العلاقية، وتحقيق الانسجام بين واقعه النظري وواقعه التطبيقي، خاصة في نطاق العلاقة بين الحاكم والمحكوم. وفي حين عرف عالم اليوم درجة من التضخم، لفضاء مفهوم الحريات والحقوق، والاعتراف بها، فإنه يواجه، في نفس الوقت، حالة انفصام بين تلك الوفرة على صعيد الخطاب، وبين حالة الجفاف في نطاق تطبيق تلك الحقوق من منطلق كرامة الإنسان لذاته بصرف النظر عن أي اعتبار آخر.

وفي حين عرف صدر الإسلام نطاقًا للحرية، يصل إلى حد القول بعدم جواز اختلاف الحاكم عن سائر المحكومين في ملبسه ومطعمه ومركبه، وحق المحكوم في أن يبادل الحاكم لطمة بلطمة، فإن تاريخ الإنسانية عرف ضمورًا بالغًا لذلك النطاق على صعيد التطبيق. وفي كل الأحوال، خضعت ممارسة الحريات لضوابط قانونية وعرفية نسبية. وتستدعي هذه المعضلة البحث في ضمانات الحرية وتصنيفها، وخصائصها. **ومن الخطوط العريضة لذلك:**

أ - **ضمانات الحرية:** يتصدر هذه الضمانات في القرآن الكريم، تقرير مبادئ: التسوية بين البشر في الحقوق والواجبات من حيث المبدأ، مع إمكانية وجود استثناءات لاعتبارات موقفية، واعتبار الكرامة الإنسانية حقًّا مرادفًا لحق الحياة، وخضوع الدولة للشريعة، والفصل بين السلطات، والرقابة القضائية والحماية القضائية في ترتيب العلاقة بين الحاكم والمحكوم[2].

ب - **تصنيف الحريات:** يمكن التمييز في تصنيف أنواع الحريات في الإسلام، بين: حريات فردية مادية ومعنوية تشمل شخص الإنسان وماله وعقيدته، وحقه في إبداء الرأي، وفي التعليم

---

(١) المائدة: ٢٤، انظر هذا التفسير في: سرى نسيبة، الحرية بين الحد والمطلق، بيروت: دار الساقي، ص١٤٤، ومما يصب في اتجاه تعزيز هذا الفهم، أن الآية الكريمة نداء للذين آمنوا، مما يوحي بأن المعنى الذي فُسرت به، على أنها رد على لوي اليهود ألسنتهم بالكلام في تحيتهم لرسول اللَّه، قد لا يصيب جوهر المعنى، أو على الأقل لا يستوعبه.

(٢) د. وهبة الزحيلي: حق الحرية في العالم، بيروت، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٠م، ص٤١ - ٦٥.

والتعلم، وفي المشاركة السياسية، وحريات ذات طابع جمعي من أهمها: احترام الذات الإنسانية بصرف النظر عن أي اعتبار آخر، إلى حد الأمر بالقيام لجنازة غير مسلم، واعتبار الحرية أصلًا عامًّا تنتظم به كافة مجالات العلاقات الإنسانية، وتقرير مبدأ الشمول اللا زماني واللا مكاني لحرية الإنسان، بما أنه يولد حرًّا ويُفطر على التعاون، ويُكلف بتعزيز حريته.

ومن المهم الإشارة هنا، إلى أن الإسلام، يُولي حرية العقيدة اهتمامًا خاصًّا، بوصفها الأساس الركين لكافة الحريات. والأدلة كثيرة في القرآن الكريم على: حظر الإكراه في الدين، وعلى توجيه الأمة الإسلامية إلى الدفاع عن الحرية الدينية، وعلى تعزيز حرية كل إنسان في العمل بمقتضى ما يمليه عليه دينه. وتنص الآية التاسعة من سورة الممتحنة، بوجه خاص، على شرعية الود والبر كأساس للعلاقة بين المسلم وغير المسلم المسالم. فالقتال في الإسلام، مشروط بمجابهة الفتنة، المتمثلة في إكراه المسلمين على الارتداد من الإسلام. وليس القتال لنشر دعوة الإسلام. والمراد بكون (الدين للَّه) أن يكون الجزاء كله فيما يتعلق بالاعتقاد للَّه وحده في الدنيا والآخرة. فالدين يعني الجزاء، ولا يعنى: دين الإسلام، في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩] [(١)].

ويُستفاد من هذا التصنيف: أن الحرية بمثابة القيمة السياسية الناظمة لكافة أبعاد العمران الإنساني: السياسية والاقتصادية والعقيدية والثقافية والاجتماعية والعسكرية والتقنية.

جـ - خصائص الحرية: من أبرز خصائص الحرية العامة، في المنظور الإسلامي أنها:

(١) **معادِلة للحياة**: يسوي الإسلام بين الحياة والحرية، والكرامة الإنسانية، وينصب منهجه كله على تحقيق التوازن بين حرية الفرد والمجتمع على أساس المساواة، وتفعيل التكافل المرتب لتبعات: الجسد الواحد، والسفينة الواحدة، ومراعاة الظروف الاستثنائية، مع وضع حلول لها تكفل موقوتيتها[(٢)].

فالإسلام يقر حرمة النفس وعصمتها، وحرمة العقل والمال والعرض والمسكن والمعتقد والعمل والتعليم، كما يفتح أبواب حرية التعاقد، فيسمح بالاتجار والتصرف والاشتراط، ويوجب الوفاء بالعقود، ويقر مبدأ المساواة في الذمة المالية، ويقرر أن الأصل هو براءة الذمة، ويرسي العلاقة بين البشر على الإحسان والتكريم الإنساني.

---

(١) الأنفال: ٣٩، د. وهبة الزحيلي: مرجع سابق، ص١٤٤ – ١٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص٧٤ – ٨٠.

(٢) **الوجوب الجماعي**: مما يؤشر على هذه الخاصية أن الشارع يقرر حماية كافة صنوف الحريات الإنسانية بصيغة الجمع، حتى في نطاق الحريات الشخصية. فهو يسمح للإنسان بالحرية الشخصية شريطة أن لا يضر نفسه، ولا غيره، ويمنع الحجر على حرية أي إنسان بغير مقتضى شرعي، بل يعتبر أن الحرية واجب على الإنسان. فهو يُولد حرًّا، وعليه أن يستخدم كافة الأسباب المتاحة لكي يبقى حرًّا حتى يموت. ومن هذا المنطلق يأتي النهي القرآني للإنسان عن المخاطرة بنفسه وإلقائها في التهلكة، كما يأتي التأكيد النبوي في حَجة الوداع على حرمة النفس والمال والعرض، بلفظ الجمع، مؤشرًا على امتدادها من الأفراد إلى الجماعات والشعوب.

ويُستفاد من ذلك، أن البحث في حق الأمن، وحرمة المسكن، وآداب دخول البيوت، وحرية السير في الأرض، ينبغي أن يتخطى النظر إليها كحقوق للأفراد، إلى النظر إليها كحقوق للجماعات والشعوب، وكأساس لقانون إنساني بديل. ويترتب على إقرار الحقوق الشخصية للأنا الفردي، وللأنا الجمعي الإقرار بـ: المنعة الخصوصية (بمعنى الحق في الخصوصية وعدم استباحتها. فالمجالس بالأمانة، إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق).

(٣) **إنسانية النطاق**: أساس هذه الخاصية هو اعتبار الإسلام حرية العقيدة، بمثابة الركن الركين لكافة الحريات، بالنص الصريح في القرآن الكريم على: حظر الإكراه في الدين، وعلى توجيه الأمة الإسلامية إلى الدفاع عن الحرية الدينية، وعلى تعزيز حرية كل إنسان في العمل بمقتضى ما يمليه عليه دينه، وبالنص في الآية التاسعة من سورة الممتحنة، بوجه خاص، على شرعية الود والبر كأساس للعلاقة بين المسلم وغير المسلم المسالم، وجعل شرعية القتال مشروطة بمجابهة الفتنة، المتمثلة في إكراه المسلمين على الارتداد من الإسلام، وليس لنشر دعوة الإسلام. والمراد بالقتال حتى لا تكون فتنة ويكون (الدين للَّه) أن يكون الجزاء كله فيما يتعلق بالاعتقاد، للَّه وحده، في الدنيا والآخرة. فالدين يعني الجزاء، ولا يعني: دين الإسلام، في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩][1].

والنهي عن إيذاء المسلم للمسلم، دليل بذاته على عدم عصمة الأنا المسلم، ودليل

(١) الأنفال: ٣٩. د. وهبة الزحيلي،مرجع سابق، ص١٤٤ – ١٤٧.

بإلزامه بتجاوز مستوى العدل إلى مرتقى الإحسان، على أن من حق أي إنسان، بما أنه إنسان، أن يرفض الذل والمهانة. فالحرية حق لكل إنسان أيًّا كان موقفه من الدين لا يقبل التجزئة ولا التخصيص في كل الأمور الدنيوية. فلا موضع لظلم غير المسلم ولا انتقاصه، ولا تكليفه فوق طاقته، ولا أخذ شيء منه بغير طيب خاطر. ولا حق لأحد على أحد إلا بدليل تكليفي.

وتشييد الإنسان الصالح، أهم من تشييد الاقتصاد والسياسة وغيرهما. فبناء الأفق الإنساني الصحيح هو الأساس لبناء الحضارات المحققة لتمكين العـزة في الأرض. والحرية هي بمثابة الحق الإنساني العام، وهي حق فطري، يتصف بالخير لذاته، ولا يقبل التحول أيًّا كانت ملابسـات الزمان والمكان. ومع أن الحرية تقبل القيود فإن القيود خارجة عن حدودها، بمعنى أن حق الإنسان الفطري هو: الحرية بلا شرط. غير أن الواجب الفطري عليه أن يراعي حق غيره في مثل حقه. الحرية إذن لا تقاس بمعيار حق الأنا، وإنما بمعيار واجب كل من الأنا والآخر أن يضع حق الآخر في اعتباره. وفحوى ذلك هو ضرورة أن لا تخل الحريـة بالواجب. بل إن الحرية في جوهرها هي: القيام بالواجب، حتى لو تطلَّب ذلك التضحية بالنفس. ولا عبرة في هذا الميزان، بفعلٍ يُجبَر الإنسان عليه. فالإنسان حر بامتلاكه حق الاختيار. ومسيرة الإنسان على الأرض هي على الدوام، مسيرة التخلص من القيود المصنوعة، لا الفطرية. إلا أن الإنسان يقع أحيانًا في دائرة التخلص منها على حساب غيره. ولا عبرة بالمناداة بالحرية، دون فعل إنساني يسعى إلى تحقيقها، ودون وعي بأن كرامة الذات الإنسانية هي غاية ما ينبغي السعي إليه، وأن التمييز بين الهدف والوسيلة، وقبول مبدأ العدل كحد أدنى، والإحسان كغاية ترتجى، هو الطريق إلى رسم خريطة حرية الأنا والآخر.

فالحرية الحقة تتمثل في: عدم الاعتداء على حقوق الآخرين. بل إن الحرية الحقة، هي: التطبع على نفسيةٍ لا تسمح للذات بالاعتداء على غيرها، بقدر ما لا تسمح للغير بالاعتداء عليها. وليس من الصواب في دائرة مفهوم الحرية، أن نجرد الإنسان من التاريخ، أو أن نجرد التاريخ من الإنسان، أو أن نجرد الإنسان من عواطفه ووجدانه. وجوهر استعادة الكلمة السواء هو: التدقيق في زيف ما أقامه الإنسان من حقوق تاريخية ووضعية عبر القوة، وفرض إرادته على أخيه الإنسان. ومقتضى ذلك، أن التمييز بين: الحقوق الفطرية للإنسان، وتلك الحقوق التي تتأسس على موازين القوة الطارئة، وعلى مشاكلة أحكام الغابة. والتأسيس لمنظومة أخلاقية يتولد الالتزام بها من داخل النفس الإنسانية الفردية والجماعية، هو السبيل لاستعادة

الإبداع الإنساني المحقق لخير الإنسانية، والموظِّف لإمكانياتها الكامنة، والمجسد لبدائل مستقبلية مستوعبة لعبرة الماضي والحاضر.

ومن الواجب على الإنسان أن لا يصادر على حرية الموجودات، باستخدامها فيما خلقها اللَّه له، والتفاعل معها وَفْق شرع اللَّه تعالى. ومن شأن ذلك، التأسيس لبناء جديد لمفهوم القوة، تصير معه سعادة النوع الإنساني في الدنيا والآخرة، هي المحك في بناء الأنظمة الإنسانية، والتعامل بين المجتمعات، وفي الرعاية المتبادلة لهوية الشعوب وحريتها، المحققة لوعيها بذاتها، ولقدرتها على التفاعل مع العقبات التي تصادفها[١].

(٤) **براءة الذمة الإنسانية هي الأصل**: ذمة الذات الإنسانية الفردية والجماعية بريئة من أية تكاليف مادية أو معنوية لا تقوم البينة عليها. ومفهوم الذمة ذاته يشير قبل العبث به، إلى: وصف اعتباري في الإنسان، بصفته الفردية والجماعية، يلازمه من ولادته إلى موته، يجعله أهلًا لثبوت الحقوق له، وترتيب الالتزامات عليه، على قدم المساواة بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. ولا محل للمساس بحرية الإنسان دون ثبوت إدانته. بل إن الشك يُفسر لصالحه، ولا يزول إلا باليقين. ومن واجب الأمة أن تتثبت مما يرد إليها من أنباء، ولا تعاقب إلا بنص. فالأصل في الأشياء والأفعال والأقوال هو: الإباحة، ما لم يرد حظر صريح. ولا موضع للقياس على العقوبات المقدرة في غيرها، ولا في أصل العقائد. والحدود تدرأ بالشبهات، ولا يجوز حبس المدين المعسر. فالحبس يتوقف على المماطلة مع القدرة على الوفاء. ويحمي الشرع حرية الإنسان ضد السخرية والغيبة والظلم والرق.

(٥) **الوصال**: من خصائص الحرية، في المنظور القرآني، تحري التحرر بالوصال والود بين البشر. فالقرآن الكريم يوجه البشر إلى تعزيز حريتهم بمراعاة أسباب الألفة مع غيرهم، بالأدب في القول، واجتناب الإثارة والأذى، واللين وتحري القول السديد، والمجادلة بالتي هي أحسن، إلا مع المعتدين، والنأي عن فضول الكلام، والندب إلى العفو وكظم الغيظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحاشي الجهر بالسوء من القول، إلا في حالة وقوع الظلم على الإنسان[٢].

---

(١) تقدم دراسة سرى نسيبة، تصورًا تفصيليًّا رائدًا في تحديد معالم هذا التصور، انظر: سرى نسيبة، مرجع سابق، ص٧٧ – ١١٢، ١٢٠ – ١٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩٣ – ١٢١.

المبحث الثاني

التنشئة على العدل

يشير مفهوم العدل في لغة الضاد، وفي الاستعمال القرآني له إلى جماع: الاستقامة والنزاهة، والإنصاف، والتزكية، والتسوية بين المتماثلين، والوسطية، والقوامة، ونبذ الجور والميل والانحراف، والشهادة بالحق، والنّدية، والاستقامة على طريق الحق. فالعدل في المنظور القرآني هو: الاستقامة على طريق الإسلام الصحيح.

ولم يرد مفهوم العدالة بلفظه في القرآن الكريم. إلا أن بناء المفهوم الأخير على مفهوم العدل بمضامينه القرآنية المذكورة، يضعنا أمام مفهوم أوسع بكثير من نظيره المؤسَّس على المصالح المرسلة، وسد الذرائع، والاستجابة لحالات الضرورة الملجئة، وغير ذلك من المحددات الانتقائية التي تجر فكرًا وضعيًّا إلى بؤرة المفهوم، أكثر مما تؤسس لمعايرته بالثابت القرآني ذاته. فالعدل مفهوم قرآني شامل، يمتد ليشمل الاستقامة في الظاهر والباطن، على الصعيد المعنوي الأخلاقي، والمادي معًا.

وتعرَّض مفهوم العدالة بدلالته اللغوية والقرآنية الشاملة والعميقة أيضًا لعملية اختزال وتشويه في الفكر المعاصر بكافة روافده، بربط هذا المفهوم بالمجتمع القومي، وحصره فيما يسمى (العدالة الاجتماعية)، وهو المفهوم الذي أفرزته بيئة الثورة الصناعية الأوروبية، واستقبله الفكر الإسلامي كمفهوم وافد، يصعب فصله عن بيئته الأصلية. فهذا المفهوم المتعدد المعاني، والمضامين ينصرف حسب سياقه إلى واحد من هذه المعاني، ولكن كنواة للمعاني الأخرى، يستدعيها ويغذيها ويتغذى بها، على النقيض من مفهوم العدالة الاجتماعية، الذي اعتبر التسوية المادية وحدها ناظمًا له وغاية[1]. **ومن أهم محاور تأسيس الفضاء السياسي لهذا المفهوم من القرآن الكريم:**

أولًا: الحركة المعززة للحرية المنضبطة بالسنن الكونية:

يرتبط مفهوم العدالة في المنظور القرآني بالحركة المؤسسة لقابلية الذات الإنسانية بكل أنساقها ومستوياتها للتغيير، على نحو يعزز فاعليتها حينًا، ويؤدي إلى بنائها حينًا آخر. ومدار التغيير هو: شبكة التفاعل بين الإنسان والأفكار والأشياء، كظاهرة حركية، تعتمد فيها:

---

(١) من المصادر التي تطرح هذه الرؤية للمفهوم، وتصل إلى حد نقد، بل نقض، مفهوم العدالة الاجتماعية في الفكر الغربي، وكذا في فكر العديد من رواد الفكر الإسلامي المعاصر، من أمثال: محمد الغزالي وسيد قطب وأبو الأعلى المودودي: إحسان سهارة، مفهوم العدالة الاجتماعية في الفكر الإسلامي المعاصر، بيروت: دار النهضة الإسلامية، ١٩٩١م، ص٣٢ – ٥٠، ص٢١٦ – ٢٧٥.

بواعث التغيير، ومعوقاته، وتخطيطه، على القيم والمبادئ من جهة، والاختيار الإنساني الفردي والجماعي من جهة أخرى، على صعيد التشكيل السلوكي، وتأسيس قدرة الفرد والمجتمع على التغيير من الداخل.

ومن نافلة القول أن الفعل الإنساني المعزز للحرية، ليس هو الذي يلغي قانونًا كونيًّا، وإنما هو الفعل الذي يبني طريقًا للمزيد من الحرية، في ظل بقاء ذلك القانون ساريًا. من ذلك، ما قدمه العقل الإنساني لتيسير حركة الإنسان في البر والبحر والجو، رغم وجود قانون الجاذبية. فجوهر العدالة هو: سعي الإنسان إلى ابتكار وسائل تساعده على التصرف المعزز لقدرته على الخلافة في الأرض، مع الامتثال للسنن الكونية الأزلية. فتلك السنن لا تمثل استحالة مطلقة أمام الفعل الإنساني، بل تمثل نوعًا من أنواع التحدي الذي يستدعي اجتهادًا جديدًا من أجل التغيير. وبذا ترتبط العدالة بالاختيار الإنساني النابع من داخل النفس. وتؤشر سنة ربط التغيير الإلهي لحالة قوم ما بتغييرهم ما بأنفسهم، على أن إرادة الإنسان هي المحدد الأساسي للتخلص من السلبيات، ودعم الإيجابيات على صعيد القيم والسلوك والفكر، وعلى أن أي مشروع للتغيير لا يبدأ من التغيير الإنساني، مآله الفشل مهما أبدع من تصورات على صعيد النظم والمؤسسات[1].

ثانيًا: محورية البيئة المواتية للتغيير:

من مقتضيات العدالة مراعاة أن قضايا كل مجتمع تختلف عن قضايا غيره، وأن أولويات التنشئة المعززة للقدرة على التغيير يجب مراعاتها. فحالة أي مجتمع مرهونة بقدرته على تغيير نفسه كوسط مربي للإنسان، من داخل هويته وبصمته الذاتية. والفرق واسع للغاية بين صدق القيم والمبادئ، وبين فعاليتها في أرض الواقع. والبيئة هي الرحم الذي يتم فيه تغيير النفس الإنسانية. ويحتاج التغيير إلى استعادة المجتمع لروحه ولقدرته على الدفع السلوكي الفعال، وعلى تحسين الشروط الأخلاقية والمادية التي تتم في ظلها عملية التنشئة الإنسانية. فالإنسان يتربى في ظل ظروف، يلزم تغييرها هي ذاتها على صعيد الأطر والمؤسسات، فيما لو أُريد إيجاد التربة الصالحة لتمكينه، من تغيير ما بنفسه.

فالإنسان يحتاج إلى وضوح في الغاية، وإلى مبرر للسلوك، وإلى تحفيز لاستعداداته وقابلياته، على نحو يجعله يستوعب المعنى الاجتماعي للأمة. ولا يقف البعد القيمي

(١) د. علي القريشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٩م، ص١٠٥ – ١٢٠.

للتغيير الاجتماعي عند التربية على الوعي بمبادئ ومرتكزات الهوية، بل يلزم أيضًا التربية على فاعلية هذه المبادئ والمرتكزات. فعملية التنشئة في جوهرها عبارة عن: صناعة لـ: إنسان الفطرة الأولى التي فطر اللَّه الناس عليها بغرس المبادئ الأخلاقية، وتنمية الإرادة الإنسانية في وسط اجتماعي إيجابي، قادر على استثمار المواهب والقدرات، وعلى وعي بالأفكار الميتة والقاتلة، ولديه إرادة تخليص الجسد السياسي منها، سواء كانت نابعة من أفكار ذاتية، أو من أفكار وافدة، ومنفتح على الإنسانية كلها، وله مشروعه المستقبلي بعيد المدى[١].

ثالثًا: التحرر من نافيات العدالة:

من مقتضيات عدالة الإنسان في نظرته إلى نفسه بما أنه مخلوق مكرَّم عابد، أن يتحاشى إصابة منظومة قيمه وسلوكياته، بسلبيات عديدة في مقدمتها: اللفظية (بمعنى وجود فجوة بين القول والفعل، تحتشد في ظلها الثرثرة والإطناب والألقاب الفارغة، بينما تندر الكلمة الصادقة الفعالة)، والإصابة بالصيغ اللفظية المستبدة (ويراد بها القواعد غير المستندة على مصلحة البشر، والتي لا تهتم فحسب بما وراءه عمل إيجابي، مما يؤدي إلى نظرة سطحية يضيع في ظلها معنى العامل ودوره في الأمة)، والإصابة بتزكية النفس (من منطلق مركب نقص يكتفي في ظله بأمجاد الماضي عن فعل الحاضر وأمر المستقبل، ويجري في ظله الهرب من الواقع في عباءة مدح عقيم للماضي. ومع إصابة الأمة بالاستعداد لتقبل الحمد بما لم تفعل، تدخل في دائرة الخسران. فالحق يقول: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]. ومن أهم مؤشرات ذلك الخسران: الإصابة بالجدل التبريري (بمعنى البحث عن تبريرات لعدم القيام بتحقيق شروط الحركة الصالحة المصلحة، والبقاء في حالة السكون)، والإصابة بتمجيد الأشياء (على حساب الفكرة والإنسان، حيث تسيطر على الإنسان النزعة الكمية، والنزعة التجزيئية، على نحو يُفقده القدرة على رؤية الأبعاد المعنوية، وعلى امتلاك مرشحات للاقتباس الإيجابي من ماضيه، ومن خبرة غيره)، والانفصام على الواقع (على نحو يُبعد الإنسان عن الرؤية الفاعلة لمشاكله الحقيقية، مما قد يدفعه إلى ساحة الأسطورة والخرافة)[٢].

---

(١) د. علي القريشي: مرجع سابق، ص١١٨ – ١٥٠، ١٧٠ – ١٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٥ – ١٨٥.

رابعًا: التمكين للفطرة السوية:

تستبطن العدالة التمكين للفطرة السوية، بالاسترشاد في عملية التنشئة السياسية **بموجهات إسلامية على صعيد الفرد والجماعة والإنسانية، من أهمها:**

١ - التربية على مكارم الأخلاق:

يعتبر الفرد بمثابة المادة الأساسية للتغيير وإعادة البناء، وهو الوسيلة والهدف في آن واحد. وغرس مكارم الأخلاق على **مستوى الإنسان** هو شرط تجسيد المسئولية في سلوكه ظاهرًا وباطنًا، وتحقيق الفاعلية في قيامه برسالته على الأرض، وتيسير تكيفه مع الجماعة ومع الإنسانية من جهة، ووعيه بأن حريته قضية جماعية في كل أحوالها، وامتلاكه لأسباب النقد الذاتي الرشيد، وقابليته للتحرر من كل مظاهر الاستعداد.

وعلى مستوى الجماعة، يتعين غرس قيمة أخلاقية في كل أنساق الأمة، تُعلي الواجب على الحق، وتعمق الإحساس بقيمة الوقت، وبأهمية المراجعة للذات وللآخر، بأدلة يقبلها العقل الإنساني بوجه عام، وتلتزم بمراعاة تكريم الإنسان، وبالتأسيس للتعايش بين الشعوب[١]. فالإنسان مخلوق فريد له إرادته، وليس هو بالملاك المعصوم، ولا بالحيوان، ولا بالكائن الذي يتحرك بآلية الأشياء الجامدة. وهو لا يتدنى عن هذا المستوى إلا إذا عطَّل ملكاته وقدراته الإبداعية. ولمَّا كانت كرامة الإنسان تنبع من أساس العقيدة ذاتها، فإن حرية الإنسان وحقوقه ووجباته يجب أن لا تنفصل عنها. ويحتل العقل الإنساني مكانة مهمة في هذا الصدد، بما أنه هو أداة التعرف على العقيدة ذاتها، وبما أن الجهل يمثل في حقيقة أمره أحد أشكال الوثنية.

٢ - التربية على الوعي بسنن العمران:

من العدل التربية على التدبر في السنن الحاكمة للكون، والسنن الحاكمة للمجتمعات البشرية؛ لأن النظر فيها بمثابة فريضة دينية. وعلى رأس سنن الاجتماع الإنساني، التي يحث القرآن على رعايتها: إفساح المجال لكل صاحب دعوة أن يعرضها بشكل مباشر ويتحاور مع غيره بشأنها، مع اعتبار العمل مصدقًا للقول، وأساسًا لعدالته.

ويحث القرآن الكريم على تربية الوعي بالزمن لدى الإنسان. فالدنيا هي الإطار المكاني والزماني الذي يثبت فيه الإنسان الجدارة بالتكريم الإلهي له، أو الانحراف عن تلك المكانة. والوعي بالزمان هو أساس محاسبته لنفسه، ليس في حاضره فقط، بل عن ماضيه، وعن

(١) د. علي القريشي، مرجع سابق، ص٢٣٥ - ٢٦٤.

مستقبله. وتؤسس الحفاوة القرآنية بمفهوم الأجل المسمى للأفراد والأمم، وتحفيز الإنسان على النظر لِمَا قدَّمه لغده، وربط دار العمل الدنيوية بدار الجزاء، وتوظيف الزمن القابل للفناء في الحصول على الخلود، لِمَا يولده ذلك من سعي إنساني مسؤول، ملتزم بإطار زمني صارم لكل عمل الإنسان، على نحو يثري انتظام العمران الإنساني. والدين وحده هو القادر على إطلاق الطاقة الإنسانية من أبعد أعماق النفس الإنسانية، وتحريكها في أفق زماني ومكاني لا محدود، على قاعدة التوحيد والبر الإنساني.

والعدالة الإسلامية، بذلك، بمثابة حضن دافئ للإنسانية، يقدم الرحمة للعاملين، والرسالة للناس كافة، ويدعو إلى تبادل الخير بين الشعوب، والامتثال لشروط العدل مع أي إنسان، والسعي إلى السلم والإصلاح في الأرض. ولا موضع في ظل هذا التصور للجفاء. فالقرآن الكريم يدعو الإنسان إلى التجمل، وإلى التمتع بالجمال، ويلفت نظره إلى الجمال في خلق اللَّه تعالى. ومن الأدلة القرآنية على ذلك ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ويقول تعالى: ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** ﴾ [النمل: ٦٠].

٣ - الارتقاء بالوجدان:

يحرك القرآن الوجدان الإنساني بتصوير الجنة وما فيها، وبالحث على مكارم الأخلاق، بوصفها بمثابة: الجمال المعنوي للنفس الإنسانية، وبالدعوة إلى الطهارة للباطن والظاهر، والعناية بالضعفاء، وإزالة الحواجز بين البشر، وتحفيز الإنسان على تحويل الجمال المادي والمعنوي، الكامن بالقوة في خلق اللَّه تعالى، إلى جمال مادي ومعنوي كائن بالفعل في حياة الإنسان[١].

٤ - المواجهة المتكاملة للتحديات:

يفرض تكامل التحديات التي تواجه الإنسانية، تكامل مواجهتها، بعمل صحيح المعاني، قائم على منهج اللَّه تعالى المتكامل والمتوازن، بالتحرر من الرؤية التجزيئية للعمل الإسلامي، واعتبار التربية الروحية، والتوعية الفكرية، على رأس هموم الأمة في عملية

(١) فتحي يكن: أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ص١٧٤ - ١٧٨، فتحي عثمان، القيم الحضارية في رسالة الإسلام، جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م، ص٥٤ - ٧٤، ٩١ - ١٠٢، ١١٣ - ١٣٠.

التنشئة. والتواصي بالحق واجب شرعي، وهو جوهر النقد البنَّاء. ومن شروط هذه المواجهة: تحري الصدق في القصد، وفي القول، وتحري الأسلوب الأقوم القائم على التواصي بالحق وبالصبر، بالنصح المتبصر، الملتزم بخفض الجناح وبالرفق، وبرحابة الصدر، وبامتلاك البرهان الشرعي الصادق[١]. ومن شروطها أيضًا: صيانة النفس بالمراقبة الدائمة في مدرسة قيام الليل، واستحضار مراقبة اللَّه تعالى، وتعاقب الملائكة في بني الإنسان، وضرورة التزود بالحلال في المأكل والمشرب، وبالصحيح في تغذية القلب والروح[٢].

ومع أن التعددية في السعي الإنساني ظاهرة إيجابية، فإنها تحتاج إلى تحصين الإنسان ضد سلبيات، من بينها: الإصابة بنزعة الزعامة أو الهوى، أو التحرك على غير بينة، أو التعصب لرؤية بعينها. فذاك كله يعطل القدرة على: التغيير بالتي هي أحسن[٣].

٥ - تنويع أساليب توجيه الفطرة:

لا يصادم صحيح الدين فطرة الإنسان، بل يسعى إلى تحقيق أقصى درجة من النقاء لها بربطها بالتوحيد. فالشرع يدعو إلى مقصود الفطرة في أكل الطيبات، واتخاذ الملبس الحسن، من أجل البقاء والستر، ويزيح عن الإنسان التحول عن ذلك إلى أخلاقيات: البقاء من أجل الأكل، واتخاذ الملبس من أجل التبختر والتفاخر.

فالشرع بمثابة مصباح يرشد الفطرة إلى الطريق إلى معبودها الحقيقي، وإلى ارتقائها لأنْ تصير حرةً، لا معبود لها إلا اللَّه. فالإنسان كما جاء في القرآن الكريم مخلوق ﴿ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ﴾[التين: ٤]. وهو مزود في الأصل بكل مقومات الارتقاء والعمل الصالح. ومحط اختباره هو استخدام تلك القدرات إلى أجل مُسمى، من أجل حياة أفضل وأدوم. وهذا هو جوهر مفهوم العبادة التي هي علة خلق الإنسان.

ومداخل تحريك فطرة الإنسان متعددة، وما قد يصلح منها لإنسان، قد لا يصلح لإنسان آخر. ومن هنا فإن القرآن الكريم والحديث النبوي يقدمان مبادئ عامة وسننًا للعمران الإنساني، وأساليب متعددة، لتفعيل تلك المبادئ العامة، ويقرران بذلك ضرورة مراعاة تعدد الأشخاص والمواقف. ويؤسس الحديث النبوي لحق المواطنة القائم على السلوكيات الظاهرة للإنسان، مع ترك سريرته للَّه تعالى، حين يعلن أن من يشهد أن لا إله إلا اللَّه لا يحل قتاله. فالأحاديث الموجهة إلى أشخاص بعينهم تراعى أوضاع مخصوصة بهم، يجب عدم

(١) فتحي يكن: مرجع سابق، ص١٧٤ - ١٧٨.
(٢) المرجع السابق، ص١٨٥ - ١٩٢.
(٣) المرجع السابق، ص ٩ - ٣٣.

تعميمها، بعكس الأحاديث التي تحدد حقوقًا دستورية لا زمانية ولا مكانية، كالحديث المشار إليه[١].

٦ - نسبية الكمال الإنساني:

أودع اللَّه تعالى في فطرة الإنسان القدرة على التمييز بين الحق والباطل، والفصل في التفاعل بين قوى الهداية وقوى الضلالة. واهتم القرآن الكريم بالتأكيد على بشرية النبي ﷺ، بل على بشرية كافة الرسل - عليهم السلام -، من جهة، والتأكيد على محدودية قدرتهم، في دفع الضرر عن أنفسهم أو عن غيرهم، وعدم علمهم إلا بما يكشفه اللَّه لهم من الغيب، إلى جانب بيان أن محمدًا ﷺ هو الحلقة الخاتمة لدين الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها من بداية وجود الإنسان على الأرض. ومن الملاحظ أن القرآن الكريم لم يتخذ من مدح الرسول ﷺ موضوعًا مستقلًّا، وإنما تناول ذلك بإشارات لطيفة ضمنية تتعلق بلينه وخلقه ورحمته وبشريته ومحبته للإنسانية كإنسان على خُلُقٍ رفيع مصدِّقٌ لمن سبقوه من الرسل، لا يدعي أن له مكانة فوق البشر، ولا يخص بدعوته فريقًا دون الآخر في أي زمان أو مكان. وفى ذلك تأسيس قَوي لحرية الإنسان، التي نال منها وقوع أمم أخرى في وهم الخلط بين اللَّه ورسله.

ولكمال الإنسان درجتان: بلوغ الكمال الخلقي غايته الإنسانية كصفة فيه، واستحكام تلك الصفة على نحو يجعله قادرًا على التأثير في غيره وطبعه بها. فكمال الثلج برودته، وكمال الثاني تبريده لغيره. وبالمثل: فإن كمال الإنسان هو في بلوغ قمة الصلاح لذاته. أما الدرجة الأعلى فهي صيرورته مصلحًا لغيره بالأسوة. فالإنسان قد يتعلق كماله بنفسه، وقد يتعلق بتكميله لغيره. والطاعة التي يفردها الإسلام هي طاعة للَّه وحده، يلتزم بها الجميع، وفى مقدمتهم رسل اللَّه تعالى[٢].

٧ - التشريع الإنساني في دائرة المباح:

لا يستبعد الإسلام دور الإنسان في التشريع، وإنما يحصره في حدود ضوابط يبينها القرآن الكريم وصحيح السنة. وفى ضوء هذه المعايير يشرع الإنسان لوسائل تفعيل أوامر

---

(١) أبو الأعلى المودودي: مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص١٢ - ٢٥، ٤٧ - ٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص٨٩ - ١١٤، ١٢٥ - ١٣٠. وانظر في أبعاد مفهوم الحرية الأخلاقية، والحرية الاقتصادية في الإسلام، المرجع السابق، ص١٤٣ - ١٦٦. ويقدم المودودي مقاربة في تأسيس مفهوم العدالة الاجتماعية على نحو مقارن بين مدلولها في الإسلام، ومدلولها في الفكر الوضعي، المرجع السابق، ص١٧٠ - ١٨٩.

اللَّه تعالى ونواهيه، في ضوء معطيات الموقف، كما يجتهد في مواجهة القضايا المستجدة، وفي استنباط التفصيلات الفرعية من المجمل، وفي التعامل مع الحالات الطارئة، وفي ترتيب ما سكت الشرع عنه. وهو في هذا كله محكوم بالشورى، وبالرجوع إلى أهل الذكر، وبالرد إلى اللَّه ورسوله حالة الاختلاف[١].

٨ - ارتباط مصير الإنسان بفعله:

تصب كافة السمات السابقة، في التنشئة على الإرادة الحرة المبدعة المسؤولة، كمرادف لوجود الإنسان ذاته. فالحرية هي قدرة الإنسان على اختيار أفعاله عن وعي. وهذا المعنى مستحيل التجسد في الواقع ما لم تتوفر بدائل لفعل الإنسان من جهة، وقدرة إنسانية على الإقدام على الفعل أو الامتناع عنه. وللحرية بهذا المعنى مستويات، تشمل امتلاك: القدرة على الفعل عن وعي وإرادة، والقدرة على القيام بعمل لا يصادم الشرع، ولا يضر بالآخرين، ويعبر عن شخصية القائم به ويحمل بصمته كعلامة على الخصوصية والإبداع، وتخطي الغريزة إلى مستوى الالتزام الذاتي بالخلق الحميد، الذي يجعل من الإنسان كائنًا حرًّا مفكرًا ملتزمًا من داخله. والحرية في كل هذه المستويات لا تنفصل عن السنن الكونية الطبيعية، ولا عن متطلبات حياة الإنسان على الأرض[٢].

وللفعل الإنساني المقام الأسمى في تقرير مصير الإنسان. فعلم اللَّه تعالى، الشامل لكل شيء، ليس هو الذي يدفع الإنسان إلى الفعل وعدم الفعل، ولا يستساغ الوهم بأنه يفرض أية درجة من الجبر على الإنسان في فضاء الأمر التكليفي. فمع علم اللَّه تعالى بكل شيء، فإن إرادته تعالى هي: عدم الإكراه في الدين، وجعل الدنيا دار ابتلاء لا محل له إلا بحرية الإنسان.

وتعدد أساليب الخطاب القرآني ذاته، دليل على أن طريق الدين هو طريق البلاغ الحر، النافي لأية شبهة للجبر. فمحل تقويم الإنسان في حياته الدنيا هو: الابتلاء على ميزان الارتقاء في حسن العمل[٣]. وبالتالي، فإن العمل الصالح، حر وعادل بالضرورة. ومن الشواهد القرآنية على ذلك، قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. وفي مقابل الابتلاء أعطى اللَّه تعالى للإنسان ثلاث وسائل لتعزيز حريته: القدرة، والإرادة، والعقل، بما أن

(١) أبو الأعلى المودودي: مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، مرجع سابق، ص١٩٢ - ١٩٦، ٢٢١ - ٢٢٧، ٢٤٦ - ٢٤٨.

(٢) حورية يونس الخطيب: الإسلام ومفهوم الحرية، ليبا سول، دار الملتقى للطباعة والنشر، ١٩٩٣م، ص٥ - ١٩.

(٣) المرجع السابق، ص٣٠- ٣٤.

اللَّه تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها. ومفاد شرط الإمكان هذا، أن بالكون ما لا يستطيع الإنسان أن يغيـره أو يبدله، ويخرج بالتالي عن نطاق مسؤوليته. ويبين القرآن أن اللَّه تعالى هو خالق السنن والنواميس الكونية. وهذه السنن ثابتة، وإن كانت لا تستعصي على مشيئـة اللَّه في التصرف فيها. والإنسان هو محور التكليف الإلهي، في دائرة الاستطاعة الإنسانية. فالحرية هي: تعميق الاستطاعة الإنسانية، في تحقيق الوسع في العمران والتزكية، باستعمال أسبابهما، وَفْق النواظم الشرعية، على أفضل شكل ممكن. فالإنسان مسئول عن تحديد هويته الإنسانية بمعرفة ذاته، ومعرفة الآخر، ومعرفة الكون، للتمكين لقدرته على الفهم والعمل والإبداع.

والحرية بذلك هي لب مخلوق نفخ اللَّه فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء كلها، وخلقه في أحسن تقويم، لتهيئته للتكليف القائم على حرية الاختيار، ولاستخدام ما سخره اللَّه له، على الوجه الذي يرتضيه اللَّه تعالى، بحيث يستجيب الإنسان لنغمة تسبيح الكون للَّه، كي يستجيب الكون للتسبيح معه للَّه تعالى. ويحضرنا هنا قول اللَّه تعالى في تحديد العلاقة بين: تسبيح داود، وتسبيح الجبال والطير والحديد، للَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]. وتنطلق هذه الحرية من معطيات واقـع معيشي، بما يعنيه ذلك من الالتصاق بالحياة واعتبارها، بالتخلـق بالوسطية والتيسير، وبالتدافع النافي للضرر وللضرار، ورعاية مبادئ الشورى والعدالة والمساواة في بنيـة الأمة ونسيجها[١].

ويهمنا أن نؤكد هنا أن كمال الإنسان لا يجب أن يوهمنا بعصمته. فغاية النبل الإنساني هي إمكانية أن تعد عيوب الإنسان. ومفهوم الإنسان ذاته يتقاطع بشدة مع مفهوم النسيان. وبالتالي فإن معراج الكمال الإنساني، يظل مرهونًا بمدى لجوء الراغب فيه إلى القرآن الكريم، لجوء المفتقر إليه، بوصفه هو المصدر الحافظ للدين الذي جاءت به كافة الرسل، الكاشف عنه، المحدد لكيفية بناء الشخصية الإنسانية والجماعة الإنسانية المسلمة، المعادل للكون كله، والمجدد لرسالات اللَّه تعالى جميعًا، الذي تولى اللَّه حفظه إلى يوم القيامة[٢].

---

(١) انظر في التفصيلات: حورية يونس الخطيب: مرجع سابق، ص٥٩ – ٦٩. وانظر في الترابط الوثيق بين العدل والمساواة والحرية في المنظور الإسلامي، المرجع السابق، ص٨٠ – ١٠٣.

(٢) للتوسع في هذا المعنى: د. طه جابر العلواني، أزمة الإنسانية ودور القرآن في الخلاص منها، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م، ص١٥ – ٢٠.

٩ - التربية على المسئولية في الحياة الدنيا، عبر رسم صورة إدراكية للآخرة:

من نماذج التأسيس القرآني لذلك، الإشارةُ إلى أن اللَّه تعالى قد صورنا فأحسن صورنا، وخلقنا في أحسن تقويم، وأودع فينا من القُوى والمشاعر ما هو كفيل بالسعي إلى تحصيل جميع الكمالات الظاهرة والباطنة. وأناط بالإنسان أن يجعل من نفسه نموذجًا في هذه النشأة، لغيره من المخلوقات، يجعله جديرًا بشهادتها له، بالتميز عليها. ولم يحرم اللَّه تعالى الإنسان الذي لم يهتد إلى الإيمان من حظ من الخلق الحميد والسيرة الحسنة، فيما لو استند إلى بقية من فطرته الصحيحة.

وفي ذات الوقت، بيَّن ﷻ أن النشأة الآخرة، التي تمثل تهيئة الإنسان لخلود ما، هي ملك للَّه تعالى وحده، منبهًا بذلك إلى ضرورة إحسان السريرة في استعمال نعم اللَّه تعالى، والسعي إلى حسن السيرة في حياة الإنسان، باستحضار إحاطة اللَّه تعالى بـ(ذات الصدور). فالمحيط بالمضمرات المستكنة في صدور الناس، التي لم تفارقها، لا يخفى عليه من باب أوْلَى ما يُسر به الإنسان، وما يعلنه.وكل ما يحصله الإنسان من نعيم الدنيا أو عذابها يدخل في مفهوم (الذوق)، بما يرمز إليه ذلك من تفاهته، بالقياس بنعيم الآخرة وعذابها. ومن الشواهد القرآنية على ذلك، قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ٥].

فكل ما يحصله غير مسلم من نعيم، يسير في ميزان اللَّه تعالى؛ لأنه لن يكون كفارة لذنبه، ولا مطية له لنعيم الآخرة. والوحي هو مصدر النور الكمالي للإنسان. إلا أن ذلك النور لا يتأسس إلا على النور الفطري. ويوم القيامة يجمع اللَّه بين الإنسان وعمله. ولا يكون التغابن في الحقيقة في أمور الدنيا، بما أنها فانية، وإنما يكون فيما يدوم، في لحظة تبدو الأشياء فيها على خلاف مقاديرها في الدنيا. فيغبن الكافر لتركه الإيمان، ويغبن المؤمن لتقصيره في الإحسان. ويقف الترقي في الآخرة، على المقام الذي يحصله المكلف في الدار الدنيا.

ويأتي إطلاق مفهوم (يوم التغابن) على يوم الحساب؛ لانقطاع فرصة الترقي فيه. ويؤشر ذلك على ضرورة الاجتهاد في أسباب كشف الغشاوة عن البصيرة ومشاهدة آيات اللَّه في الأنفس والآفاق، ابتغاء أسباب هداية القلب إلى العمل. ومطية ذلك هي: طاعة اللَّه تعالى، وطاعة الأمة لنبيها ﷺ، وطاعة أولي الأمر في القيام بواجب طاعة اللَّه تعالى. ويتحدد العدو، في هذا المنظور بفعله لا بذاته على مقياس: فرصة الترقي في الآخرة. ومن الشواهد على ذلك

قول اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤]. فكل من يفعل فعل العدو يصير عدوًّا.

ومن المنطقي أن لا تكون العداوة ظاهرة بين المؤمن وزوجه وأولاده. فالتحذير هو من الابتلاء بهم، على نحو يُفضي إلى إيثارهم على حق اللَّه تعالى، مع الندب إلى الإحسان إليهم بالمداراة وتصفح الأحوال والمغفرة والرحمة، وعدم الاحتجاب عنهم. فالآية الكريمة توجه إلى التحذير من الإفراط في محبتهم، لا إلى عدم معاشرتهم بالإحسان. فالنساء زينة للدنيا، وهن من أعظم نعم الجنة، وبهن نظام العالم. وبركة الإنفاق على الأولاد والأزواج مفتاح للمغفرة من بعض الذنوب. والسعي إلى إصلاح ذات البين، والإحسان في نطاق الأسرة، هو الأساس المطلوب للعلاقة، في حالتي: الوئام والنشوز على السواء. والوصال مفهوم يدعو إليه القرآن، ولا يفتح المجال لنقيضه، إلا في دائرة الضرورات المبيحة للمحظورات. فالعتاق هو أحب شيء إلى اللَّه. والطلاق هو أبغض شيء إليه؛ لأنه ضد الوصال[1].

ومن الأساليب القرآنية لتشكيل الصورة الإدراكية للآخرة، الإشارة إلى (مفهوم الخزي). فمن أعلى نعم اللَّه تعالى على أمة الإجابة، أن يعفيها يوم القيامة، جنبًا إلى جنب مع نبيها ﷺ، من الخزي. يقول اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

ويحذر القرآن الكريم من الاستدراج بالنعم، التي قد تدفع إلى الظن بأنها علامة رضًا وتفضيلٍ، بينما هي في الحقيقة سبب للهلاك. فالإمهال بنعم لا يؤدى الإنسان حق شكرها، هو باب لزيادة الإثم. وعلى العكس من ذلك، فإن النعمة المتمثلة في التوبة النصوح هي التي تتدارك الإنسان، فتعيده إلى طريق الاستقرار.

١٠ - التحفيز على الطاعة، بالتوعية بالقابلية للوهن:

يبين القرآن أن الإنسان قابل للخوف وللجزع، ولمنع الخير. وهو في ذات الوقت، قابل لمعالجة هذه المخاطر بالعمل الصالح، والترقي في الاستجابة لأمر اللَّه تعالى ونهيه، وطلب

(١) انظر في تفصيلات هذه الأفكار: إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، بيروت، دار أجياد للتراث الإسلامي، ١٩٨٥م، ص٤ - ٢٦.

الرشد، الذي لا موضع فيه للبخس ولا للظلم. والحُجة قائمة على الإنسان بالفطرة التي فطره اللَّه عليها، وبالرسالات التي أبلغها رسل اللَّه إليه، خالية عن أي تخليط، وعن أي نقص. والنفس البشرية مؤهلة للارتقاء. وأهم مجال لارتقائها هو: الليل، بما يستبطنه من إحساس بالحاجة إلى النور، ومن صدق في التوجه إلى اللَّه وحده. فالنفس القائمة بالليل ذات قدم أكثر ثباتًا عند ربها. والعبادة التي تنشأ بالليل أشد موافقة بين سر الإنسان وعلانيته، وهي الزاد الذي يستطيع الإنسان به أن يحقق: السبح الطويل في النهار. ويرشد القرآن هنا إلى ضرورة الاستغفار في كل وقت وفي كل حال، والسعي إلى التبتل للَّه تعالى، بجعل الإنسان إرادته تابعة لإرادة اللَّه[١].

وعلامة الخوف من مقام اللَّه تعالى، هي نهي النفس عن الهوى، والحذر من الطغيان. فشرْعُ اللَّه تعالى عزيز. ومن شأن الكريم دائمًا، أن لا يقبل على من يُدْبِرُ عنه. ومهمة الرسل هي البلاغ المبين، بلسان الحال قبل لسان المقال، لكرامة، هي في ذاتها، جوهر الحرية الدينية. ومن أساسيات هذه الكرامة: اليقين بأن الإنسان لا يأمن على نفسه الخطأ، وأن من العدل أن نميز بين البشر على ميزان التقوى. والإنسان يحمل على الدوام أحمال أعماله وأحواله. فإن حسُنت، فنعم الحمل، وإن ساءت فبئس الحمل، في يوم تعلم فيه كل نفس ما قدمت وأخرت، وما حولت من نطاق القدرة إلى نطاق الفعل، وما كان وراء الفعل من نية. وأهم ما يدعو إليه القرآن في هذا الصدد هو: الحذر من التطفيف، في ميزان الأخلاق والعمل[٢].

١١ - الحياء الحق من اللَّه:

استقامة أمر الأمم رهن بالحياء الحق من اللَّه، بحفظ البطن وما حوى، والعقل وما وعى، وتذكر الموت والبلى، على كافة مستويات أنساقها العمرانية، والحفر المعرفي لتمحيص الفكر، وتصحيح الذاكرة، والمس الصادق لروح القرآن. فقد تعتقد الذات الإنسانية على مستوى الفرد والجماعة والأمة، على خلاف الحقيقة، أنها قد تعرفت على جوهر القرآن الكريم، وأن سلوكها يمثل تجسيدًا صحيحًا وأمينًا له.وقد يملي لها اللَّه على ظلمها لنفسها، حتى حين، فإذا أخذها لم يفلتها. ومع أن عواقب الفهم الخاطئ في هذا الصدد، قد لا تظهر في حياة جيل واحد، وقد توجد شواهد ازدهار مادي توهم في الظاهر استقامة أمرها، في

(١) إسماعيل حقي البروسوي: مرجع سابق، ص١٢٤ - ١٣٦، ١٦٣ - ١٦٨، ٢٠٢ - ٢٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص٣١٩ - ٣٤٤، ٣٥٦ - ٣٦٥.

حين أنها تمثل في الحقيقة نوعًا من الاستدراج لها والابتلاء لغيرها.وقد توجد إلى حين أممٌ تحارب القرآن وتناهض أمته، ويتحقق لها مع ذلك، الكبرياء في الأرض، وتظن أنها باتت نموذجًا يحتذى في التقدم، أو أنها قد كتبت بنموذجها الحضاري نهاية التاريخ.وقد يصل الأمر بأمم أخرى إلى تصديق ذلك واعتبار نفسها متخلفة، واللهاث وراء حُلُم اللحاق. إلا أن سنة اللَّه في الأمم هي: سوء عاقبة من يفعل ذلك، ومن يسير على دربه، بحلول الأجل المسمى عند اللَّه تعالى.

ومن العلامات التي يمكن بها أن تتحقق الأمم من الصدق في دعوى التخلق بالقرآن، ومن صحة فهمها له: التخلق بالحياء. فجوهر القرآن هو تمكين الذوات الإنسانية من الحصول على: لباس التقوى، في مقابـل: حرص الشيطان على نزع هذا اللباس عن الإنسان. فإذا كان التعامل مع القرآن يُقَوي ضمير الإنسان وباطنه، فتلك علامة صدق معه، تجعله يمس قلبه ويؤدي وظيفته. ومن علامات الصدق أيضًا في الفهم، أن يصل إلى القارئ رزق اللَّه تعالى. فهذه مريم تُسأل فتجيب ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. ومن شواهد هذا الرزق القرآني: وَجَلُ القلب، وفيض الدمع من العين، وتجافي الجنوب عن المضاجع، واليقين باللَّه، والحب فيه وله، واستشعار قرة العين في الصلاة. ومن دلائل الصدق أيضًا: تحقيق علامات (الحياة الطيبة)، بالانشراح للطاعة، والتخلص من مظاهر الوهن والجمود والانحطاط، بما أن المعرفة الصحيحة بالقرآن الكريم، توصل صاحبها، بمصدر قوةٍ لا يتوقف، وبنور لا ينطفئ[1].

المبحث الثالث

التنشئة على التحرر من هجر القرآن

يتسع مفهوم هجر القرآن ليشمل: هجر الإيمان به، والإنصات له، والعمل به، وتحكيمه، وتدبره، واتخاذه علاجًا من أمراض القلوب على مستوى الفرد والجماعة والشعوب والأمم،

(١) وحيد الدين خان: حكمة الدين، تفسير عناصر الإسلام ومقتضياته، ترجمة: ظفر الإسلام خان، القاهرة، المختار الإسلامي، ١٩٧٨م، ص١٦ – ٣٥. وانظر أيضًا، محمد صالح الفرفوري، النسائيات من الأحاديث النبوية الشريفة، بيروت: الشركة المتحدة للتوزيع، ١٩٦٦م، حيث يشير إلى نماذج عديدة للهدي النبوي في طلب العلم، وما يترتب عليه من رزق إلهي، يشمل مساندة الملائكة، واستغفار من في السموات ومن في الأرض لطالبه، وتفضيله على العابد، بوصفه وارثًا للأنبياء، كما تحدد شروط العلم، الموافق للرؤية القرآنية، ومن بينها: السعي إلى الحسنة في الدنيا والآخرة، مع إرادة وجه اللَّه وحده، والرغبة في إحياء سنن الصلاح، وهداية الآخرين، والوسطية بالحرص على ما يدخل في نطاق الطاقة، ويتحقق له الدوام. المرجع السابق، ص٣ – ٢٣.

وقلب الذات الإنسانية الفردية أو الجماعية الخالي من القرآن، الشبيه بالبيت الخرب، هو القلب الذي لا يقيم علاقة وصال مع القرآن على صعيد: الإيمان به، والإنصات إليه، والعمل به، وتدبره وتحكيمه. فنسيان القرآن لا يقف عند حد نسيان لفظه، وإنما يمتد إلى كافة تلك المجالات. والوصال يقتضي قراءة للقرآن تجتمع عليها القلوب، بما أن القرآن في جوهره كتاب جامع للإنسانية. وليس من شيء يمكن أن نتقرب به إلى اللَّه بأعظم من كلامه ذاته.

ومن أهم مداخل تنشئة أجيال الأمة على الوصال مع القرآن، والخروج بها من دائرة اتخاذه مهجورًا، كركن لا قوام للتنشئة إلا عليه، **إقامة عملية التنشئة على المرتكزات الثلاث التالية:**

أولًا: المرجعية القرآنية الجامعة:

نواة الوصال مع القرآن هي الإيمان به، كمرجعية شاملة جامعة للبشرية في كل زمان ومكان. فالقراءة بسم اللَّه، هي مفتاح لتنشئة الذوات الإنسانية الحرة، المحررة التي تألف غيرها ويألفها غيرها، وهي الخاصية الأم لغاية الكلمة السواء ذاتها، التي لا يمكن التوصل إليها ولا رعايتها وتوفير مقومات بقائها وإثمارها، إلا بين ذوات إنسانية تتربى بالقرآن، على التدبر في الأشياء وشهودها، على نحو يبلغها مقام الإحسان في تسخير قابلياتها في محراب التوحيد، بوصفها كيانات مجعولة من اللَّه مكلفة ومختارة، تتصل إرادتها الإنسانية بالسنن الإلهية من منطلق اعتبار الشرع هو المرجعية، وليس واقع الناس، وتعي أن طبيعة الأشياء لا تتغير، وإنما تتغير طرق إشباعها، وأن مفتاح الإبداع في ذلك، هو النظر في سنن الكون المادية، وصولًا إلى عمارة القيم وتزكية النفس.

فالقرآن الكريم كتاب يحقق وحدة القلب الإنساني، حيث يبين الطريق إلى التحرر من التباغض، والتحلي بالأخوة الإنسانية، مع الفحص الدائم لقلب أي كيان إنساني، على مؤشر: عدم التقدم بين يدي اللَّه ورسوله، والنصح والنصيحة لتحقيق أخوة العمل للَّه بلسان المقال ولسان الحال. ويتضمن النص القرآني بيانًا شافيًا لكيفية التحرر من دواعي البخل، والتزود بعُدَّة الأحرار المحررين لوجه اللَّه، التي هي زاد الوقاية من النفاق، ومن تزكية النفس من مدخل العجب بها، والبحث في عيوب الآخرين، ومن الهوى. ويبين القرآن أن مفتاح النور الإنساني، هو التخلق بخلق: امتلاك النفس والإحصاء عليها، قبل أن يُحصى عليها، بوزنها بميزان الحسنات والسيئات، والتقوى في كل الأحوال، والسير في الأرض لمعرفة الشر لتجنبه، والخير للعمل به، والتحلي بالشفافية في الظاهر والباطن، ولزوم الجماعة، والعبرة بمآل الآخرين[1].

(١) للتوسع في هذه المفاهيم، انظر: محمد أحمد الراشد، العوائق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م. وانظر أيضًا: محمد أحمد الراشد، =

ثانيًا: اقتحام العقبة:

لب مؤشر صدق الوصال مع القرآن هو اقتحام الذوات الإنسانية للعقبة. ومن أهم العقبات التي يستدعي الوصال مع القرآن التخلص منها، على صعيد الفرد والجماعة والأمة: عقبة التوبة (بالسعي إلى رفع المقام في العمل بمنهج اللَّه تعالى، من مرتبة: النفس الأمارة، إلى النفس اللوامة، إلى النفس الأوابة، إلى النفس المطمئنة)، وعقبة العوائق الأربعة (النفس والشيطان والخَلْق والدنيا، والتي تعترض طريق الصدق في التوبة)، وعقبة العوارض الأربعة (المتمثلة في الخوف من الأخطار والقضاء والشدائد، والخوف على الرزق. وهي باب للقابلية للإصابة بالبخل والخوف، والوسوسة الشيطانية)، وعقبة البواعث (وتتمثل في قابلية الفطرة للوقوع في الاستخفاف بالصغائر ومحقَّرات الذنوب، والاشتغال بالمباحات، عن العزائم، مما قد يوقع في البدعة والمعصية والكبائر)، وعقبة القوادح (ومفتاحها هو: الاغترار بالطاعة، مما يوقع في المنة على الخالق، ويفتح بابًا عريضًا للشيطان، وللاشتغال بالعمل المفضول عن الأفضل)، وعقبة شكر النعمة (فالنعمة لا تدوم إلا بالشكر. والنجاح في تخطي العقبات السابقة، يستدعي بذاته الاجتهاد في الثناء على اللَّه وذكره بالقول وبالفعل وبالحال).

ثالثًا: الوعي بخريطة التغاير والتواصل في الكون:

من أساسيات الوصال مع القرآن، الوعي بجوهر العلاقة الإنسانية مع اللَّه تعالى، ومع المخلوقات الأخرى، مع التركيز على الفضاء السياسي لها. **ومن ركائز بناء هذا الوعي:**

١ - التغاير بين البيان القرآني والبيان الإنساني:

نواة الوصال مع القرآن هي إدراك الطابع المطلق للبيان القرآني والطابع النسبي للبيان الإنساني، بما أن الأول بيان إلهي، والتمييز من ثَمّ بين العمق اللانهائي للنص القرآني، ونسبية نصيب الإنسان الناظر فيه من فهمه.ومن أبرز علامات الهدي النبوي هنا أمر الرسول ﷺ بكتابة القرآن وبحفظه في الصدور، ووصوله في الحفاوة بتجنب أية إمكانية لاختلاط غيره به، إلى حد النهي - في عهد تنزله - عن كتابة الحديث النبوي ذاته، رغم توفر عاملين يجعلان حدوث ذلك في عداد المستحيلات هما تولي اللَّه حفظ القرآن من جهة، وحقيقة

= المنطلق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م، حيث يشير إلى قانون التماثل في مصير الأمم التي تسكت على الظلم، ويبين أن سجدة الحرية، التي هي سجدة البراءة من كل طاغوت، هي مفتاح السعادة الإنسانية، وأن المنعزلين عن نفع الناس هم بمثابة الخفافيش. أما مقام القدوة الصحيحة فهو: المتعلم العامل، صاحب النية الخالصة مع اللَّه تعالى.

التمايز الذي يستوي الكل في التسليم به بين نظم القرآن وبين نظم أي كلام آخر مهما كانت بلاغة قائله[١]. **ومن أهم مؤشرات الالتزام بهذه الركيزة:**

أ - مراعاة الطابع الكلي للهدي القرآني: من أهم مقتضيات عملية التنشئة الإنسانية على الوصال مع القرآن، النظر إليه على أنه: كتاب الدين كله، والإنسانية كلها، والزمان والمكان كله. فالقرآن هو الآية الكبرى الكافية للبشرية إلى يوم الدين، وهو كتاب هداية يخاطب كيان الإنسانية كله على نحو لا يقوم على إدهاش البصر وإخضاع العنق بالخوارق، وإنما على إخضاع العقل عبر البصيرة من داخل الرسالة ذاتها لا من خارجها. فالوصال مع القرآن هو السبيل إلى الوصال مع اللَّه تعالى، وإلى الوصال مع الكون كله على بصيرة. ومن ثَمّ، فإن من مقتضيات الوصال معه: اتخاذه دليلًا لحركة الحياة كلها.

ويقوم منهج التنشئة السياسية المنشودة، على الوصال القويم مع القرآن، كأساس للوصال القويم مع الوجود كله بـ: الرجوع إلى الأصول، والتزود من ينابيعه الصافية، سواء في قراءة المنطلقات، أو تحديد الغايات، أو رسم معالم المناهج، وفي قراءة القرآن الكريم، والسنة النبوية، والواقع واستشراف المستقبل، في ضوء المقاصد، مع مراعاة: فقه الواقع، والموازنات، والأولويات، والتغيير. ولا اعتبار للفهم الحرفي للنصوص الجزئية بمعزل عن مقاصد الشرع.

فالوقوف عند الفهم الحرفي، وإنكار تعليل الأحكام، هو باب للجمود، يحرم من سعة العلم. وبالمثل، فإن التنكر للشكل بدعوى الاكتفاء بالجوهر، هو: دعوة للتبديد. والنقطة الوحيدة المرضِيُّ عنها هي: السعي إلى الوسطية الجامعة بين الجوهر والشكل. والدخول من هذا المدخل هو قاطرة التحرر من الخلط بين أقوال البشر، خاصة في لحظة وهن الأمة، وبين حقيقة الشرع، وكذا التحرر من الجمود على ظواهر النصوص، الذي أفرخ في واقع أمتنا الراهن ظاهريةً جدد، ضيقوا على الأمة، ما وسعه اللَّه عليها، ولم يدركوا المضامين القرآنية الصحيحة لمقاصد الشريعة في مجالات الكليات الخمس الشهيرة من جهة، ومقتضيات إقامة الأمة الوسط التي تعم فيها مكارم الأخلاق، وتصلح كأمة شاهدة على غيرها، وشغلوا الأمة بأمور لا طائل من ورائها، بدل النظر في تأسيس كليات نظامها، وبالأخص ترتيب العلاقة بينها وبين ولاة أمورها، من منطلق الشورى، وتفعيل السنن الكلية للسلف الصالح، بدلًا من الغرق في أقوالهم الجزئية، بمنأى عن البحث في المقاصد والعلل[٢].

---

(١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، الكويت: الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ١٩٨٣م، ص١١٢ - ١١٥، ٢٠٣-٢٠٩.

(٢) د. يوسف القرضاوي: السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٩٨م، ص٢٦ - ١٤٩. =

ب - مراعاة معطيات الزمان والمكان: لَمَّا كان الحكم على الأشياء فرعًا عن تصورها، فإن تغير الأعراف، ومعطيات الواقع تستوجب تغييرًا، في الفتوى، لا في الأحكام. ويستوجب ذلك الموازنة بين المصالح والمفاسد، وتقديم درء المفسدة على جلب المصلحة، وتقديم ما ضرره أقل، على ما ضرره أكبر. ومن هذا المدخل يتأسس فقه الأولويات، الذي يضع كل شيء في وزنه الصحيح بميزان الشرع، بحيث تظل العقيدة في القمة، وتظل فرائض الدين وأحكامه القطعية الدلالة، والقيم الأخلاقية التي يدعو إليها على رأس اهتمامات الأمة. وعلى ذلك يتأسس الوعي بأنواع التغيير وأبعاده، وطرقه، على نحو يراعي سنة التدرج، ويقدم الضرورات على ما عداها، ويتدرج في تحقيق المثال المرتجى حسب استطاعة الأمة[١].

فالإنسان في تعامله مع القرآن، كفرد وكجماعة، يَسبح في بحر الحياة، يلزمه امتلاك بوصلة يتحرك على هدًى منها، للتعرف على مضمون القرآن كما هو، في لقائه الأول مع قلب النبي ﷺ، الممثل لذروة الأسوة الحسنة لكل ذات بشرية، تسعى قدر استطاعتها إلى التخلق بالقرآن، وإلى التحول إلى قرآن يمشي على الأرض، بالسير على نهجه، واتخاذه دليلًا مرشدًا في الانفتاح على آيات اللَّه في الأنفس وفى الآفاق[٢].

ومن شأن مثل هذا التعامل مع القرآن امتلاك أسباب الصحوة الراشدة، بمعالمها التغييرية الجامعة بين: الاجتهاد في الانتقاء من تراثنا، والإنشاء الإبداعي في مستجداتنا، على نحو يتحول فيه مركز اهتمام الأمة بكل أنساقها من: الشكل والمظهر إلى الحقيقة والجوهر، ومن الجدل إلى العطاء والعمل، ومن العاطفية الغوغائية إلى العقلانية العلمية، ومن التركيز على فروع المسائل وذيولها إلى التركيز على رؤوسها وأصولها، ومن التعسير والتنفير إلى رحاب التيسير والتبشير، ومن الجمود والتقليد إلى رحاب الاجتهاد والتجديد، ومن التعصب والانغلاق إلى التسامح والانطلاق، ومن الغلو والانحلال إلى الوسطية والاعتدال، ومن العنف والجفوة إلى الرفق والرحمة، ومن تلمس الاختلاف والتنابذ إلى تلمس الائتلاف والتضامن[٣].

= ويقدم هذا الكتاب نموذجًا لتفعيل المبادئ السابقة، في قراءته لفقه سيدنا عمر في معايرة المتغيرات في ضوء الثوابت، في تعامله مع أرض الخراج، مستفيدًا من الأدلة القرآنية من جهة، ومن دلالة التنوع في السنة النبوية في التعامل مع القضية محل النظر، مع رؤية الأمة كوحدة متكاملة لا زمانية ولا مكانية. كما يرسم معالم ما يمكن تسميته بالإجراءات المؤقتة، لاعتبارات موقفية، في فقه عمر ﷺ. انظر تفصيلات ذلك في: المرجع السابق، ص١٨٢ - ٢٢٢.

(١) المرجع السابق، ص٢٢٨ - ٣٢٨.

(٢) د. جمال البرى: هندسة القرآن، دراسة فكرية جديدة في تحليل النص، دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، ٢٠٠٣م، ص٧١ - ٧٢.

(٣) د. يوسف القرضاوي، خطابنا الإسلامي في عصر...، مرجع سابق، ص١٧ - ٢٤.

جـ - الجمع بين المعرفة بالقرآن والعمل به: يتمثل أساس الفعل الإنساني العمراني في الأرض في تنشئة دائرة عمرانية. ويقدم القرآن رؤية مرشدة للفعل الإنساني، تمثل: نصف تلك الدائرة. أما نصف الدائرة الثاني فيتشكل بفعل إنساني بتطبيق تلك الرؤية. ويبرهن ذلك على أهمية الإنسان في تفعيل القـرآن في أرض اللَّه تعالى. وجوهر تشكيل هذه الدائرة هو التخلق بالقرآن. ودائرة هذا المسعى غير قابلة للتوقف، لا في الزمان ولا في المكان ولا في الإبداع. فسعة القرآن وعمقه، يشملان الإنسان كله، أيًّا كانت درجة كماله. وبوسع الإنسان أن يرتقي بالتخلق بالقرآن، إلى مدارج لا حدود لها، على قدر سعيه للتخلص من آفات أربع: الاختلاف بين الظاهر والباطن (الذي قد يأخذ شكل التكلف، والتزلف في التعامل مع البشر)، والتقليد (بالعمل بقول الغير دون دليل)، والتجريد (بعدم البحث في نصوص القرآن من أجل التوصل إلى دليل للعمل، لا لمجرد المعرفة المجردة)، والاختزال (بالغفلة بالمعاني والدلالات الروحية، عن المتطلبات المادية للحياة، أو العكس، والذهول عن الحاجة إلى المراجعة والتصحيح الدائم، والتعامل السطحي الانتقائي مع القرآن، ومع الواقع)[١].

د - اعتبار القرآن ميزانًا لكل شيء: من أهم ما يحتاج إليه الإنسان في المجال السياسي: الانطلاق من التسليم بحاجته إلى ناظم من خارجه يسانده في نطاق ما هو داخل في استطاعته العقلية والوجدانية من جهة، ويتولى أمر ما هو خارج عن استطاعته من جهة أخرى، من منطلق التسليم بوجود نواميس للكون، تمثل القاعدة التي يجب التحرك من نطاقها، إلى الوعي بالحاجة إلى إجابة على الأسئلة الكلية الكبرى، وإلى بواعث وضوابط تكفل للإنسان أسباب العيش، في مجتمعات متعاونة ومتماسكة ومتحابة ومتعارفة، وتوجه علمه إلى البناء والتعمير، لا إلى الهدم والتدمير[٢].

ومن مقتضيات وزن الأمر كله بميزان القرآن، العنايةُ بدلالة السياق، وأسباب التنزيل، مع تطبيق القاعدة الأم، وهي: اعتبار القرآن أصلًا يُرجع إليه، ولا يرجع هو إلى قول أحد. فمن الخطأ جعل أي فكر حاكمًا للقرآن. ويحتاج ذلك إلى الوعي بالصوارف عن القرآن والتحرر منها، والحذر من وضع النص في غير موضعه، ومن الشرود عن إجماع الأمة، والحرص على التدبر المتكرر في القرآن الكريم، الرامي إلى اتباعه والتعرف على منهجه في الدعوة

(١) د. يوسف القرضاوي، خطابنا الإسلامي في عصر...، مرجع سابق، ص٩٦ - ١٠٤.

(٢) د. يوسف القرضاوى: مدخل لمعرفة الإسلام، مقوماته، خصائصه، أهدافه، مصادره، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠١، ص٩ - ٣٤، انظر في هذا المرجع أيضًا مردود العقيدة، والعبادة، والأخلاق الإسلامية، في مجال السياسة، ص٥١ - ١١٠، ١٤٤ - ١٤٨.

من جهة، وحسن الاستدلال به، والإيمان به كله، كميزان معنوي، على نحو لا يُصغر كبيرًا، ولا يُكبر صغيرًا.

هـ - **توظيف النفس لخدمة القرآن**: من مقتضيات التمكين لقيمة العدالة في التنشئة السياسية، التفرقة بوضوح بين: توظيف العطاء القرآني لمآرب دنيوية، وبين الرجوع إليه بوصفه المرجعية التي توظف النفس الإنسانية لخدمتها طلبًا لرضا اللَّه تعالى[١]. ويحتاج الوصول إلى مرتبة توظيف النفس وما ملكت، لخدمة دين اللَّه تعالى إلى تحرير الأمة من العبث بمفاهيمها. والوسيلة الأساسية لتحقيق ذلك هي إزالة الصوارف التي امتلأت بها كتب تفسير القرآن الكريم، والتي حجبت قدرة الأمة على أن تكون: أمةً للقرآن، وأمةً بالقرآن[٢].

ومن أهم متطلبات معية المتخلقين بالقرآن، أصحاب النية الخالصة في طلبه، المزينين له بأفعالهم، الواصلين له: التنافس في أسباب الوصال معه، وبه، وتصرف الذات الإنسانية الفردية والجماعية الساعية إلى تحقيق هذه الوضعية الرفيعة، كما لو كانت هي المكلَّفة الأولى به. ومن مؤشرات توظيف النفس لخدمة القرآن: إخلاص تلك الذات في الطلب، بمطابقة الأفعال للأقوال، وتقوى اللَّه في الأمر كله، بالبعد عن الشبهات، والنظر في المآلات، عبر الوعي بالواقع الذي تعيشه، والاعتقاد بأنها هي المقصودة بكل خطاب في القرآن، والمكلفة بالتجاوب معه، وبالترقي في مراقي تدبره بقلب حاضر، وعزيمة تأخذ الكتاب بقوة، ونفس تحرص على التحرر من موانع الفهم التي تقف بصاحبها عند مجرد تحقيق الحروف، وتقليد المذاهب، والتفسير بالهوى، وعدم إحسان الإنصات إليه، الواصم لفاعله بالزيف في دعوى الاستماع[٣].

ولخلاص الإنسانية بالقرآن الكريم، شروط من أهمها: تجريد معارفه، من آثار النسبية البشرية التي أحاطت بمطلقه، والالتزام بالأمانة معه، بعدم البحث عن شواهد لأفكار مسبقة يتبناها الباحث، والاستعاضة عن ذلك بأن تكون حركة التغيير بالقرآن، نابعة من داخل النفس، بعيدة عن مداخل التجميع الكمي الذي يقف عند سطح المضامين القرآنية، والدخول إلى

---

(١) د. طه جابر العلواني، أزمة الإنسانية ودور القرآن، ص٣٤ - ٣٦.

(٢) راجع تفصيلات مهمة في هذا الصدد في: المرجع السابق، ص٤٨ - ٦٤. ويقارن هذا المصدر بين مداخل ثلاثة لرؤية أزمة الإنسانية الراهنة، مدخل وحدة الوجود اللاهوتية، ومدخل وحدة الوجود المادية، في مقابل الرؤية الإسلامية التوحيدية. الرؤيتان الأوليان تؤسسان لمقولة حلول الإله في الطبيعة وفي الإنسان، أو لتحول الإنسان والطبيعة إلى إله، في حين تقدم الأخيرة الإنسان في وضعية مغايرة للخالق، مع الربط بينهما على محك الرقابة الإلهية، والهداية الإلهية، والمسئولية الإنسانية الحرة. المرجع السابق، ص٦٦ - ٧٢.

(٣) د. يوسف القرضاوى: كيف نتعامل مع القرآن الكريم، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٥م، ص١٣٨ - ١٨١، ٢٠١ - ٢٦٣، ٣٤١ - ٤٣٠.

ساحته، من مدخل اليقين بأن به الحل، وأن غيره لا يغني عنه، والوعي بالخصائص الذاتية للأمة القرآنية[١]. ولن تكون الخلافة في الأرض لمن يحملون القرآن على شاكلة حمل الحمير للأسفار، ومن علاماتهم الإصابة بأمراض هجر اللسان العربي، وقبول اللَّهجات العامية، وتكريس أكذوبة عدم اتساع تلك اللغة للعلوم الطبيعية، واجترار الأفكار الدهرية العلمانية، وإنما ستكون لمن يحملونه حمل البشر المستخلفين في الأرض، المتبرئين من هذه الأسقام[٢].

و - **تعليل الأفعال الإنسانية**: جوهر أهداف الإسلام هو: بناء الإنسان الصالح، والأسرة الصالحة والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة، والدولة الصالحة، والدعوة إلى خير الإنسانية[٣].

والحق ﷻ أنزل القرآن لتتعقل البشرية معانيه، وتتدبر أحكامه، وتستنبط منها معالم الطريق إلى تزكية النفس، والعمران في الأرض. فمنه تجد أمة الإجابة القول الفصل في الرد على كافة صنوف البشر، في معرض إقامة الدليل على معالم الطريق إلى اللَّه تعالى، وترتيب العلاقة بين الإنسان وربه، وبينه وبين سائر المخلوقات. ويولي القرآن اهتمامًا بالغًا بالشأن الدنيوي، بما أنه هو ميدان الإعداد للآخرة، بدليل أن أطول آية في القرآن الكريم هي آية الدَّيْن[٤].

ومما يلزم محاكاة القرآن فيه في ترتيب علاقة توافقية بين البشر: تعليل القواعد التي تتأسس عليها العلاقة. فالنص القرآني يقدم عللًا مفهومة لتدبر معانيه، ولتبرير الالتزام بالشرع الذي يدعو إليه، تبين أنه في صالح العباد في الدنيا والآخرة، كما يُفسح المجال للرخص المستجيبة للحظات الضعف الإنسانية، جنبًا إلى جنب، مع توجيه الإنسان إلى المزج بين نصيبه من الأخلاق الربانية المجسدة لصلته باللَّه تعالى (كالشكر والحمد والرجاء والإخلاص والرضا)، ونصيبه من مكارم الأخلاق الإنسانية (كالتسامح والأمانة والوفاء وصلة الرحم)، ورسم معالم لنماذج إنسانية رفيعة في تجسيد الأخلاق الربانية والإنسانية، متمثلة في الرسل والصالحين (حيث نجد صفات من قبيل: الخلق العظيم، وصدق الوعد، والصبر، والوفاء والشكر). فالأسلوب القرآني يؤسس لاصطناع نموذج إنساني، ملتزم بالميزان القرآني، رائده هو اعتبار القلب محورًا للنجاح، والعناية بالباعث على العمل وبصورة العمل في آن واحد.

---

(١) د. يوسف القرضاوى، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، مرجع سابق، ٢٠٠٥م، ص٨٢ - ٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩٨ - ١١٤. (٣) انظر في التفصيلات: المرجع السابق، ص٢٠٤ - ٢٨٩.

(٤) د. يوسف القرضاوى، كيف نتعامل مع..، مرجع سابق، ٢٠٠٥م، ص٣١ - ٥٥.

ز - **تحاشي المساس بكرامة الإنسان**: لب مقاصد القرآن الكريم هو: تصحيح العقائد عبر التوحيد الخالص الذي هو أساس لتكريم الإنسان وتزكيته وبناء الأمة الشهيدة على البشرية، والعالم الإنساني المكرَّم. ومن شواهد ذلك التكريم للإنسان: النص على تكريمه، وتأكيد قابلية أي إنسان للخطأ، إلا بعصمة من اللَّه، وتقرير الحق في النصيحة وفي إنكار المنكر، وفي رفض الفساد في الأرض، وحق الإنسان في النظر والتفكير حتى في خلق اللَّه تعالى، وحقه في حرية الاعتقاد، وفي المساواة بغيره في كل ما لا دخل له فيه كالجنس واللون والنسب، وحقه في الاستمتاع بالطيبات وبزينة اللَّه التي أخرجها لعباده، مع كفالة حقوق أعلى للضعفاء من بني البشر، والتوجيه إلى: تطهير العقول من الخرافات، والقلوب من أدران الجاهلية، والإرادة من الشهوات، عبر أساليب للتزكية والترقي على مدارج وضعية: الأمة الشاهدة على البشرية، والدعوة إلى عالم إنساني متعاون[١].

ح - **مراعاة الأولويات وسنة التدرج**: من شواهد الصدق في التخلق بالقرآن مراعاة الأولويات والتركيز على داء الأمة، في أي مشروع للإصلاح. فكل رسول انطلق في عملية الإصلاح من معالجة أخطر مظاهر فساد الأمة التي يرمي إلى تنشئتها. ومن نماذج ذلك، ما يبينه القرآن في سيرة لوط وشعيب مع قومهما، من أن أي مشروع لإصلاح حال الأمم يتخذ من معالجة الداء الذي أُصيبت به الأمة التي يخاطبها حجر أساس لمنهج حياة شامل لكافة متطلبات الحياة الطيبة. فجوهر دعوة لوط هي: التحذير من إتيان الرجال وهجر النساء. وجوهر دعوة شعيب هي: التحذير من التطفيف في المعاملات. وفي المقابل، يكاد جوهر رد المعارضين، لدعوة الرسل، أن يكون ثابتًا وواحدًا، متمثلًا في: الزعم بأنه ليس من حق أحد أن يتدخل في إدارتهم لأموالهم، وتفعيل قانون القوة والإكراه في مواجهة الرسل[٢].

وما حُرمت البشرية في عصر من العصور من الوصول إلى الدعوة الرشيدة، إلا من جراء التشدد في النوافل، وتضييع الأصول، والاشتغال بالمختَلف فيه، مع تضييع المتَّفَق عليه، وعدم الوعي بالتمييز بين لباب منهج اللَّه تعالى، وقشوره، والزهد في رعاية سُنة التدرج التي هي سُنة كونية وشرعية في الكون كله.

ومن أساسيات التدرج: البدء بما اتفق عليه البشر لا بما اختلفوا فيه، ومراعاة الرفق والرحمة والتلطف في الدعوة؛ لأن البشر لا يطيقون الفظاظة حتى من نبي، والسعي إلى الإمساك بمقاليد أسلوب الموعظة الحسنة، بـ: حسن اختيار الموضوع والأسلوب والتوقيت

(١) د. يوسف القرضاوى، كيف نتعامل مع..، مرجع سابق، ، ٢٠٠٥م، ص٦٨ - ١٢٥.

(٢) انظر: محمد جواد مغنية، مرجع سابق، ص٢٩٥ - ٣٠٢.

والمكان، ومراعاة حال المخاطب، والوسطية في الترغيب والترهيب، وتحاشي إغراق المخاطب في أمور جزئية، وكذا تحاشي مخاطبة الأحياء بلسان الأموات.

ط - الإحسان إلى الآخر: في حين تكفي الموعظة الحسنة في تعامل أمة الإجابة فيما بينها، فإن من حق أمة الدعوة أن يكون الحوار معها بالتي هي أحسن. ومن مقتضيات (الأحسن) اختيار أرق عبارة وألطف أسلوب لتحقيق الوفاق، وإرضاء غرور الخصم. ومن النماذج القرآنية الواضحة الدلالة هنا، أن يسمي المسلم ما يفعله (إجرامًا)، في مقابل تسميته لما يفعله المخالف له في الدين (عملًا) تأليفًا له، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٥].

ومما يجافي هذا المبدأ، تلك الأدعية الاستفزازية تجاه أمة الدعوة، وذلك في ظل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]. فلا موضع للدعوة عليهم بالإبادة ولا بتيتيم الأطفال، ولا بترميل النساء.

فالقرآن الكريم يخاطب غير المؤمنين بعبارات من بينها: يا أيها الناس، يا بني آدم، يا عبادي، يا أهل الكتاب. بل إن القرآن الكريم وصف كل نبي بأنه: أخ لقومه، حتى وإن كذبوا برسالته. فالأخوة الإنسانية لا تتأسس على وحدة الدين. والإشارات القرآنية إلى تشبيه بعض العصاة من البشر بحيوانات، إنما تأتي في سياق مسخ الطبع لا مسخ البدن، ولا تقف عند حد من كفر باللَّه، بل تنال، في المقام الأول، من آمن به، ولم يقم بحق الإيمان. ومن مقتضى العدل، في معاملة الآخر، ملاحظةُ أنه إلى جانب وجود آيات تنعى على العصاة عصيانهم، توجد آيات أخرى، تثني على فطرتهم الصحيحة في أصلها، وعلى تمكينهم للإصلاح في الأرض، في لحظات تاريخية معينة، وعلى وجوب عدم أخذ إنسان بذنب غيره[1].

ومن المهم هنا أيضًا إعادة بناء مفهوم الجهاد، لتحريره من النظر إليه على أنه يقف عند حد القتال في سبيل اللَّه. فجهاد النفس، وجهاد المظالم والمنكرات، والجهاد بالقرآن بالدعوة والتبليغ، والسعي إلى تعزيز قدرات الأمة، ودعم الثغور، والسعي على المعيشة، جميعها صور للجهاد في مضامينه القرآنية. وجوهر الإسلام هو: السِّلم في كل هذه الصور، فهو

(١) د. يوسف القرضاوى: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٤م، ص١٨٧ - ١٩٥.

يقرر: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ي - الاجتهاد بالضوابط القرآنية: من الأهمية بمكان، إعادة بناء حقل التنشئة الإنسانية من مدخل: تربية الوعي بمعالم وضوابط الاجتهاد من مرجعية قرآنية، بالاسترشاد **بالموجهات التالية:**

(١) لا اجتهاد بغير امتلاك أدواته من جانب إنسان عدل مرضِي السيرة، يقتضي واقع الأمة الراهن أن يكون مؤسسة لا فردًا.

(٢) لا اجتهاد بغير استفراغ الجهد في تتبع الأدلة في مظانها الصحيحة ومعرفة مراتبها والموازنة بينها.

(٣) لا اجتهاد في المسائل القطعية، ولا في تحويل الظنيات إلى قطعيات، ولا على جهل بالحديث النبوي دراية ورواية، فيما لو كان هو أساس الاجتهاد، والحذر من إخضاع الشرع للواقع، والحفاوة بالجديد النافع على صعيد الأمور الدنيوية، وفروع الشرع، والوسائل إلى حفظ الأصول.

٢ - تأسيس العلاقة بين الإنسان وغيره على التغاير، والتواصل:

تمثل هذه الركيزة لب الوصال مع القرآن، بضبط كافة العلاقات الإنسانية، على ناظمه. فمع أن الحق ﷻ هو الآخر المطلق، الذي تنتفي أية شبهة لإمكانية المماثلة بينه وبين أي مخلوق، كما تنتفي إمكانية التعدد والاشتراك بينه وبين خلقه، بما أن ألوهيته ﷻ تقتضي أمورًا أربعة: التقدم على كل ما عاداه، وإنشاء كل شيء، والسلطان على كل شيء، والعلو فوق كل شيء، بما ينفي أي مجال لوساطة قُوَى أخرى بينه وبين الإنسان، بما يعني في ذات الوقت التأسيسَ لحرية حقيقية للإنسان، فإن العلاقة بينه ﷻ وبين الإنسان تستلزم في وجهها الآخر التواصل، من مدخل كون كافة المخلوقات بمثابة: آخر نسبي للإنسان وَضَعَه اللَّه تعالى في خدمة رسالة الإنسان على الأرض، وَفْق ضوابط إلهية، واعتبار كمال أي مخلوق بما في ذلك الإنسان، كمالًا إضافيًّا ناقصًا، يستحيل في ضوئه التحول من مخلوق إلى خالق. وفي ظل ذلك، تأتي قابلية الإنسان للخلافة في الأرض، بما فطره اللَّه عليه، وبما عززه اللَّه به من هدى، من طريق ما تنزل به الروح الأمين، على النبيين والمرسلين.

ومن بين ما أكد عليه القرآن الكريم في طبيعة العلاقة بين الإنسان وربه، بيان أن كل المخلوقات تسأل اللَّه تعالى: الرزق، والموت لأسباب وهنها، والحياة لأسباب عزتها، وأن

نعمة اللَّه تعالى على عباده، تتحصل بالتخويف تارة، والترغيب تارة أخرى، وأن الحق يرعى مخلوقاته بشكل لا يتوقف، فيغفر ذنوبهم، ويفرج كربهم، ويداول الأيام بينهم، وهو مشرف على أحوالهم ومطلع على أفعالهم وأقوالهم. والوعد الإلهي للإنسان هو: أن يرزقه بجنة، في مقابل: العمل وفعل الطاعات وترك المعصية، وبجنة بالفضل الإلهي عليه، من مدخل: الرد على الإحسان بالإحسان. والميزان العدل الذي وضعه اللَّه في الأرض، وأمر بعدم تجاوزه، هو: القرآن، لتضمنه كل ما يحتاج إليه الإنسان، على صعيد التخلص من القابلية للجور والبخس، من جهة، وطرد الغفلة وتحصيل الحُجة، والتعرف على طريق الإحسان، من جهة أخرى [١].

واستحضار الأمم لعلاقة الاستعانة باللَّه، وشهادة اللَّه على السر والعلانية، تحول بينها وبين الوقوع في ست آفات: ذل الشهوات، والجهل، والخوف، والفساد، والحقارة، والوهن، فضلًا عن الشرور التي قد تأتيها من كافة المخلوقات الأخرى. ومن معالم صيانة حرية الإنسان، في هذا التصور القرآني: الابتلاء بالخير والشر، الذي يصل إلى حد إمكانية إلحاق الأذى بالرسل، والتأكيد على بشرية الرسل، وتأجيل محاسبة العاصي، وخضوع الأسباب لمسبب الأسباب، وتقرير قابلية الإنسان للغواية والتوبة، ونفي أي مظهر للتمييز في الرزق الدنيوي بسبب الإيمان؛ لأن تشديد المحنة على غير المؤمنين، كان سينفي حرية الاختيار الحقيقية في مجال الدين. والإنسان خاضع بالضرورة لأوامر اللَّه التكوينية التي تسري على كل كائن حي، في مقابل كونه محكومًا بإرادته الإنسانية الحرة في فضاء الأوامر التكليفية، والتي هي جوهر الفضاء السياسي.

أما علاقة الإنسان مع المخلوقات الأخرى، فالقانون الإلهي الحاكم لها هو: المساواة المطلقة كأساس للتواصل والتراحم بين كافة البشر في كل زمان ومكان، على قاعدة: التسبيح المشترك، في ظل الحرية التوحيدية بين الإنسان والكون، عبر التناصح والتكافل والتدافع. ونواة هذه الحرية التوحيدية هي: الحرية الدينية، المرتكزة على الحرية الإنسانية، وانتفاء العصمة، وسُنة الابتلاء الإلهي. وفي ظل هذه العلاقة يتأسس متصل أنماط العلاقة بين الأنا الداخل في أمة الإجابة، ومتصل أنماط العلاقة بين أمتي الدعوة والإجابة.

وفي ظل هذه المحددات، تأتي قدرة الإنسان على تطويع الطبيعة من جهة، وقابلية الطبيعة للتطويع من جهة أخرى، ضمن تيسير اللَّه تعالى، كل مخلوق، لتحقيق غاية وجوده في هذا

(١) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٢٤١هـ، ٥/ ١٤٢ - ١٥٣.

الكون، لتتأسس مسئولية الإنسان كمخلوق عابد مسئول في عملية العمران عن تغيير: نفسه، وبيئته، ومجتمعه، وَفْق النموذج الإلهي. فغاية وجود الإنسان هي: العبادة المتجسدة في العمران التوحيدي، الصادر عن إرادة إنسانية حرة خالصة لوجه اللَّه.

وعلى خلفية بيان هذه العلاقة بين اللَّه والإنسان وبقية المخلوقات، تتحدد المضامين السياسية للحرية التوحيدية كنواة لمنظومة القيم الإسلامية. **ومن أهم هذه المضامين:**

أ - إمكانية تأسيس علاقة إحسان، أو علاقة عقوق بين الإنسان والكون: تتعدد المراتب على هذا المتصل، بقدر اقتراب الجماعة البشرية من الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها، أو ابتعادهم عنها. فمن مشيئة اللَّه تعالى، أن لا يُجمع البشر على السجود الاختياري للَّه. إلا أن ذلك لا يمنع قيام السلام الإنساني على الأرض، فيما لو نجحت أُمَّتَا الدعوة والإجابة في: تأسيس الكلمة السواء بينهما، على أن لا تستعبد إحداهما الأخرى، وأن تتعزز حرية الإنسان وكرامته، في علاقة ضابطها أمران: ما لدى كافة الأمم من الحقيقة التي تنزلت عليها، وما في الفطرة الإنسانية من جامع مشترك يمكن تأسيس الأعراف عليه، وبناء العلاقة التعاقدية عليه أيضًا.

وتتأسس علاقة الإحسان بين الإنسان والكون، في المنظور القرآني، على علاقة تعاقدية نواتها هي: العهد الإلهي المؤسس، الذي يشمل: الميثاق الذي أخذه اللَّه تعالى على البشر وهم في أصلاب آبائهم، بكونهم مطبوعين على التوحيد، مطالبين بالطاعة عن اختيار وتعاهد، لا عذر لهم في التقليد، والعهد المأخوذ على النبيين، ومن ثَمّ على أممهم، بالإقرار بوحدة الرسل، وبوحدة دين اللَّه تعالى من يوم أن خلق السماوات والأرض، والرسالات التي أوحى اللَّه بها إلى من قصهم علينا من الأنبياء والمرسلين، ومن لم يقصصهم علينا، والعقود الإنسانية التي أمر اللَّه بحفظها والوفاء بها.

ب - محددات الأمر الإلهي التكليفي: جاء مفهوم الأمر في القرآن الكريم متلبسًا بالمشيئة الإلهية التكوينية، التي لا مرد لها تارة، ومتلبسًا بإرادة الإنسان - الطاعة أو المعصية - تارة أخرى. والأخير هو المقصود بالأمر التكليفي، في مقابل الأمر التكويني. ومع أن لفظ التكليف، لم يرد بالقرآن كصفة للأمر، فإنه ورد بشكل غير مباشر بمرادفاته ولوازمه[1]. **ولهذا المفهوم سبعة محددات:**

---

(١) انظر: د. السيد عمر: الأساس في علم السياسة، القاهرة، جهاز نشر الكتاب الجامعي بجامعة حلوان، ٢٠٠٧م، ص٣٧-٤٣. انظر مادة أمر في القرآن في مرجع سابق، ص٧٦ - ٧٩.

(١) **وحدة دين اللَّه تعالى**: بما أن كافة الرسل – عليهم السلام – جاءوا بالإسلام، وكان محمد ﷺ هو اللبنة الخاتمة لصرح بيت الإيمان الذي ساهم فيه كل رسل اللَّه السابقين وأممهم، فإن الدعوة المحمدية تردُّ كافة الأحياء، والأشياء، والبشر، إلى سُنن واحدة، وإلى شرعة واحدة، وتدعوهم إلى التمسك بالفطرة الإنسانية الأصلية كأساس لانسجام الإنسان مع نظام الكون كله.

(٢) **عبادة اللَّه**: بالتزام منهجه في ترتيب العلاقات بين الإنسان وربه على قاعدة: نفي التزاحم، وترتيب العلاقة بين الإنسان والكائنات الأخرى على قاعدة: التمكين للتراحم. وجوهر تقوى اللَّه هو تنفيذ هاتين القاعدتين، بترتيب منظومة من الحقوق والواجبات على أساسهما، وصولًا إلى: رعاية ما أمر اللَّه به أن يوصل، بالجمع بين تقوى اللَّه وتقوى الأرحام.

(٣) **الابتلاء بالشر والخير**: مع تكريم اللَّه للإنسان، فإنه يبتليه بالشيطان، الساعي إلى تدليته بغرور، بأساليب ملتوية وخفية، تمامًا كما فعل مع آدم وحواء من جهة، كما يبتليه بالإنعام عليه بالعناية الإلهية، وبحفظةٍ يتعاقبون حفظه ما لم يغير ما بنفسه، مع نفي أي سلطان للشيطان على المؤمنين، وتعزيزهم بالمعية الإلهية والرسالات المنزلة واستغفار الملائكة لهم.

(٤) **سُنة الإنضاج في مدرسة الشدة والرخاء**: فالشدة تؤسس لقدرة الإنسان على الصمود، وعلى تجاوز الإصابة المؤقتة بها، في حين قد ينشغل في الرخاء بعمل ما هو من قبيل اللعب في نهاية الأمر حتى يؤخذ بغتة. وبالتالي، فإن الاختبار بالرخاء، لا يقل في خطورته، عن الاختبار بالشدة.

(٥) **غريزة المحاكاة**: خير زاد لغريزة المحاكاة عند البشر هو التزود بالأسوة الصالحة. وثمة طريقان للمحاكاة أمام البشرية: محاكاة القرآن بالبحث عن نصيب وافر من مضامين التخلق بأسماء اللَّه تعالى وسيرة الرسل والصالحين، أو محاكاة حيوانات الغابة، والمتكاثرين المغرورين من شياطين الإنس والجن المكسبة لطباع القردة والخنازير والكلاب والحمير.

(٦) **علاقة السفينة**: بما أن الأرض هي البيت المشترك للبشرية، شاملة أمتَي الإجابة والدعوة. والعلاقة بينهما ينتظمها أمران، كي لا تغرق السفينة: التدافع النافي للفعل السلبي على الأنا والآخر، والمبادرة والفعل الإيجابي المنجي لهما معًا.

(٧) **الرقابة الضميرية**: بروافدها الثلاثة: رقابة من يعلم السر وأخفى، المربية للضمير الحي، ورقابة الرسول وصالح المؤمنين، ورقابة النفس لذاتها.

جـ - متصلات شبكة العلاقات الكونية: في ضوء هذا التحديد لطبيعة العلاقة بين اللَّه والإنسان والمخلوقات، وبيان محاورها الرئيسة، تتحدد نواة شبكة العلاقات الكونية، ومتصلاتها السياسية. ودون دخول في تفصيلات لا يتسع لها المقام، تكفي الإشارة إلى أن نواة هذه الشبكة هي: صلة الإنسان بربه، ومنها تنشأ صلات نابعة ذات روافد ثلاثة: تفاعل الإنسان مع أشياء تحركـه، وتفاعله مع أشياء يتحرك معها، وتفاعله مع أشياء تتحرك ضده. **ومن هذه التفاعلات يتأسس**:

(١) **متصل الطاعة/ المعصية البشرية للَّه**: يمتد هذا المتصل بين: أقصى درجات الطاعة مع اللَّه تعالى، وترتيب العلاقات مع البشر، وكافة الكائنات، وَفْق شروطها، وأقصى درجات المعصية للَّه تعالى، والانفصام عن شرعه، في ترتيب العلاقة بالموجودات. وتنشأ عن ذلك أنماط من الصلة، تتراوح بين الوصل والفصل، والقرب والبعد.

ويتمثل متصل الطاعة النموذجي في: حسن استخـدام الإنسان لِمَا سخره اللَّه له، ولِمَا زوده اللَّه به من قدرات في: اقتحام العقبة، وجوهرها: تعزيز حرية الأنا والآخر. وفي المقابل، يتمثل متصل المعصية في التكذيب بالدين، والعزوف عن سبل التمكين لكرامة الأنا والآخر، وعنوان المتصل الأول هو: الإحسان والعدل. وعنوان الثاني هو: الخيانة والعدوان. ومن أهم الآفات التي يحتاج الإنسان، إلى السعي الدائم - على الصعيدين الفردي والجمعي - إلى التخلص منها، للاحتفاظ بالفطرة السوية العابدة عن اختيار حر: النسيان، وتعطيل الحواس، والتقليد الأعمى، والتغرير، والخوف على مصالح دنيوية مكتسبة من منظور يفتقر إلى بعد النظر. **ومن بين المضامين السياسية لهذا المتصل المعياري، التنشئة على مقومات أربعة**:

(أ) **التعامل مع كل الموجودات على أنها من خلق اللَّه تعالى**: هي بالتالي مادة لتفعيل الإنسان العابد لإرادة اللَّه فيها، من مدخل اجتناب الخبائث والتمتع بالطيبات، وَفْق ضوابط لسلوكياتها لا تتغير عبر الزمان والمكان، كسُنن إلهية لا تتغير ولا تتبدل.

(ب) **رد الأمر كله للَّه**: فالإيمان هو شرط الأمن. ورأس الظلم المبدد للأمن هو: الشرك باللَّه، والتقاعس عن الحكم بما أنزل اللَّه.

(جـ) **التلازم المطلق بين التوحيد ووحدة الحقيقة**: فالتناقض بين الوحي والعقل هو في حكم المستحيل، والانفتاح الدائم أمام الدليل الجديد هو روح ما أمر اللَّه به في كتابه الكريم.

(د) **حسن الظن باللَّه كأساس لاستعادة الفطرة الأولى**: عبر الوعي بأن جوهر الدين هو الحنيفية السمحاء الجامعة، وبأن الفرقة هي بمثابة خروج على روح الدين. ومن ثوابت علاقة الإنسان بالكون في ظل اتخاذ الحرية التوحيدية ناظمًا للعمران الإنساني: الإيمان بأن مبدع الكون ومالك أمره كله هو اللَّه، وكل ما يحدث في الوجود هو من صنع اللَّه، والإنسان هو مجرد مستخدم لأسباب خلقها اللَّه تعالى، وهو مسئول عن الأخذ بالأسباب والتنقيب عن سنن مبثوثة في الكون مع استحضار رقابة اللَّه له، والوعي بأن المخلوقات لم تُخلق عبثًا، ولم تترك سدًى، وهي مملوكة للَّه، والإنسان مجرد مؤتمن عليها، مسموح له بالانتفاع بها في حدود الإحسان إليها ونبذ عقوقها، في سياق التكافل بين المسبحين بحمد اللَّه.

وهذا الناظم التوحيدي شامل للهويات الإنسانية بكل مستوياتها، في كل زمان ومكان. فالبشر على الدوام أمَّتان، أولاهما هي: أمة الإجابة، التي يخرجها اللَّه تعالى لنفسها ولأمة الدعوة. وعنوان أمة الإجابة هو: التعارف، والتدافع التكافلي في مواجهة المنكر كله، سواء كان من فِعل الذات أو الآخر، وإهدار كافة الفروق الإنسانية الخارجة عن إرادة الإنسان. وهي أمة أمية مفتوحة قريبة من الفطرة النقية، تمثل أداة للبلاغ بما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين اللَّه والإنسان والمخلوقات، مع دفع الفتنة في الدين. وهي أمة لا تتمركز حول العِرْق، بل أمة رسالة وأخوة جامعة تحب لغيرها ما تحب لنفسها، وتسعى بوحدة الرؤية والإرادة والعمل الصالح إلى إقامة الميزان بالقسط بين ما هو مادي وما هو روحي، وإلى محاكاة الجنة، كما وصفت في القرآن الكريم على الأرض، وعنوان فعلها هو: النصيحة والتناصح بين بني الإنسان، على قاعدة: حب الإنسان لنفسه ما يحبه لغيره، والتفاعل بين بني الإنسان عبر: النصيحة الجامعة للَّه ولرسوله ولكتابه ولعامة المسلمين، وعدم تزكية النفس، وعدم الطمع في السلامة من أذى الناس، والتربية على الأمانة، والشفاعة الحسنة، ورد التحية بمثلها أو بأحسن منها، والمجادلة بالتي هي أحسن، والتواصي بالحق والصبر، وتعظيم ما عظمه الشرع، والنظر إلى الكائنات بعين الحرية التوحيدية.

(٢) **المتصلات العلاقية الإنسانية**: تنشأ من التصور السابق مجموعة من المتصلات العلاقية الإنسانية، بعضها يمثل: متصل أمة الإجابة، وبعضها يمثل: متصلات أمة الدعوة. وتوجد في داخل كل متصل أنماط لعلاقات سوية بين التابعين له في داخله، وللعلاقة بينه وبين الآخر، على **النحو التالي**:

(أ) **متصل أمة الإجابة**: أهم ما نود التأكيد عليه هنا هو: انتفاء العصمة، وانتفاء التماثل داخل أي متصل إنساني. ودون دخول في تفصيلات لا يتسع لها المقام يمكن الإشارة إلى

أن متصلات أمة الإجابة تضم: المُخلَصين والمخلِصين، مرورًا بالمقتصدين فالظالمين لأنفسهم فالمنافقين. **ويمكن التمييز على المتصل العلاقي الخاص بأمة الإجابة، بين عدة أنماط، وَفْقًا لمؤشرات للتصنيف. فثمة:**

(أ/ ١) **نمط الأسوة الحسنة**: ويشمل الرسل والأنبياء، وفئات المنعَم عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين. وتتأسس علاقة هذا الأنا مع البشرية على: تزكية البشر ببيان النموذج الإنساني المجسد للوحي الصحيح المنزل، وإمداد البشرية بالمعايير السلوكية لهذا النموذج، وفي مقدمتها: اللين وعدم اليأس من روح اللَّه، والتأكيد على بشرية الرسل مع انحصار الفارق بينهم وبين غيرهم من البشر في كونهم يوحى إليهم، واعتبارهم على رأس المسؤولين أمام الشرع، والتمكين لفضيلة العفو عند المقدرة، وبناء الأسوة الحسنة لأمة الإجابة في كل زمان ومكان، بتجسيد أخلاقيات الأمة الداعية إلى الخير المعتصمة بحبل اللَّه، الساعية إلى حيازة أسباب القدرة، على تلبية هذا التكليف، والمتخلقة بالوسطية، القائمة بالبر والتقوى والإصلاح بين الناس، وبالسعي إلى الوحدة والإيلاف الإنساني، بأوسع معانيه، بما فيها: حسن الجوار والبر والعدل حتى مع الخصم، والإحسان إلى الغير، وتفعيل مثلث التحرر والحرية والتحرير، والثبات في الثقة بحسن العاقبة، والسعي إلى التعارف، والدعوة إلى الارتقاء إلى مستوى كلمة سواء، وتعلية حب اللَّه ورسوله على حب ما سواهما.

(أ/ ٢) **نمط المجتمع المسلم، والدولة المسلمة**: يبدأ هذا المتصل بالمحاكين في سلوكهم للنموذج النبوي والسابقين بالخيرات، مرورًا بالمقتصدين، فالظالمين لأنفسهم بالإفراط والتفريط، وصولًا إلى من لا يزالون في عداد أمة الدعوة.

فالمجتمع المسلم القائم على قاعدة: لا إكراه في الدين، يتسع للمسلم ولغير المسلم. ويمكن تصنيف أنماط فرعية داخل هذا المجتمع بمعايير من قبيل:

(أ/ ٢/ ١) **الالتزام بمنهج اللَّه**: ينقسم البشر على هذا المعيار إلى: محسنين حنفاء، ومتناجين بالإثم والعدوان، ومختانين لأنفسهم مستخفين من الناس لا من اللَّه، منافقين، مستكبرين في الأرض يلبسون الحق بالباطل.

(أ/ ٢/ ٢) **الموقف من القرآن**: ينقسم البشر على هذا المعيار إلى: الراسخين في العلم، وأصحاب القلوب الزائغة المتبعين للمتشابه، والهاجرين للقرآن.

(أ/ ٢/ ٣) **العلاقة الأسرية**: ينقسم البشر على هذا المعيار إلى: صالحين وصالحات حافظين للغيب بما حفظ اللَّه، مُعرضين ومُعرضات يُخشى نشوزهم.

(أ/ ٢/ ٤) الجهاد: يتوزع البشر على هذا المقياس إلى: مجاهدين بالمال والنفس، وقاعدين من أولي الضرر الناصحين للَّه ورسوله، وقاعدين من غير أولى الضرر، ومستضعفين لا حيلة لهم، وظالمين لأنفسهم بقبول وضعية الاستضعاف رغم قدرتهم على التخلص منها، ومرجفين، مثبطين للهمم، سمَّاعين للمرجفين والمثبطين.

(أ/ ٢/ ٤) **الموقف من وحدة دين اللَّه الحق**: ينقسم البشر على هذا المعيار إلى الكافرين حقًّا، الذين يريدون التفريق بين اللَّه ورسله وبين كتب اللَّه تعالى، والمؤمنين حقًّا باللَّه ورسوله وكتبه وقضائه وباليوم الآخر.

وهكذا يتضح، بجلاء، أن عصمة متصل أمة الإجابة، تتأسس على أمر تكليفي، يجب السعي إلى إنجازه، عبر تلمس أسباب إجماع الأمة في الرؤية والإرادة والفعل، وليس هو سمة تكوينية للأمة. والفيصل في التعامل مع نماذج الانحراف على صعيد توصيفها ومعالجتها هـو: تفعيل ميزان التقوى. فوسط أمة الإجابة عرفت البشرية نماذج من أمثال: قابيل، والسامري، وقارون، وأخوة يوسف. وبالمثل ظهرت نماذج للانحراف الجمعي من بينها: النموذج الإسرائيلي، الذي عرف: الانحراف بعد الإيمان، وعرف متصلًا علاقيًّا يبدأ من: الطائفة التي دخلت في الإسلام، والأمة المقتصدة، التي تؤدي الأمانة إلى أهلها، التي تقيم علاقة متكافئة مع الآخر، مؤسَّسة على ما احتفظت به من فطرة صحيحة، مرورًا بطائفة من الجهلة، الأسيرة للأماني والأوهام، وصولًا إلى طائفة من علماء السوء تحرف الكلم عن مواضعه، وتنقض الميثاق، وتسوِّل لأتباعها أنهم أبناء اللَّه وأحباؤه.

(ب) **متصل أمة الدعوة**: يضم هذا المتصل، المؤمنين بما أُنزل إليهم فحسب، والمعاهدين لأمة الإجابة، مرورًا بأصحاب الموقف المحايد، وصولًا إلى دعاة فتنة الناس في دينهم، الساعين إلى إخراج المؤمنين من ديارهم. ولم يَخْلُ صف هذه الأمة أبدًا من عناصر نموذجية للصلاح كامرأة فرعون ومؤمن آل فرعون. بل إن النموذج الفرعوني، كواحد من أعتى نماذج هذا المتصل العلاقي، لم ينبذ مبدأ الحوار إلا بعد أن أُقيمت عليه الحجة، ووقع في الظن بأنه يمثل الرشاد والصلاح، ولم يبدد فرصة الوقوف في مواجهته عند حد البلاغ المبين، غير سلوكه المتمحور حول: الاستكبار في الأرض، واستضعاف الآخر، ونسبة الشر كله إلى الآخر، رغم كل الأدلة على العكس، ورفض الدخول في دين اللَّه، إلا في لحظة الموت[1].

---

(١) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٢٤١هـ، ٥/ ١٦٥ – ١٧٧، وانظر:د. السيد عمر، الأنا والآخر في المنظور القرآني، القاهرة، مركز حوار الحضارات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، قيد النشر.

خَاتِمَة

إذا كان البحث العلمي بمثابة فعل إنساني مسؤول، فإن من أول حقوقه، التأكيد على إتقانه. وشروط هذا الإتقان خمسة: الصدق في صدوره، والأمانة في أدائه، والتناغم بينه وبين فعل الجماعة الكلي، وتلمس خصبه في ذاته وتخصيبه في امتداداته وتفاعلاته لغيره، وحمله لحلم كمال الإنسان وموجبات السعي إلى تحقيقه. ومن حقوق البحث أيضًا تحمل المسئولية تجاهه، بمتابعة امتداداته وآثاره في التصور والتنفيذ، والمحاسبة الذاتية تجاهه، من منطلق التحرر من وهم الكمال في الفعل الإنساني، والشجاعة في المواجهة المحتفية بتوقع الخلل ومعالجته، بقدر الحفاوة بإحراز تقدم على طريق الكمال في المشروع الحضاري الإسلامي.

ولا يعدو ما أنجزتْه هذه الدراسة، مجرد لبنة تأسيسية لبناء التنشئة السياسية الإسلامية من منظور قرآني. وهي لبنة طرية العود، سؤالها المُلِحُّ هو: ما السبيل إلى صقلها، ورفع القواعد منها؟ فغاية ما نطمح فيه أن يكون توفيق اللَّه تعالى قد حالفنا، في هذه المحاولة الرامية إلى التوصل إلى مخطط أوَّلي بالغ السذاجة، للإجابة على السؤال البحثي لهذه الدراسة: ما هي نواة بناء علم التنشئة السياسية الإسلاميـة؟ وما هي شروط ترشيد عملية التنشئة الإنسانية، على صعيد العالم بأسره؟.

ومعيار جدية هذه الدراسة عندي هو أن تكون قد توصلت إلى لبنة تأسيسية لتحديد تلك النواة وتلك الشروط، من مرجعية قرآنية. إلا أن جدوى تلك اللبنة تظل مرهونة بمشروع بحثي ضخم يقوم به فريق بحثي، يستشعر الحاجة الملحة لصقلها، والمراكمة عليها، ورفع قواعد علم التنشئة الإنسانية الإسلامية على صيغة أشد إحكامًا، مما توصلت إليه هذه الدراسة.

وإن كان لي من مساهمة آنية، في استشراف آفاق الطريق إلى الصقل، ورفع القواعد، وبيان شروطهما، فإنني أشير إلى أنني بصدد التخطيط لمشروع بحثي جماعي برعاية مركز الدراسات المعرفية حول بناء خريطة المفاهيم القرآنية المتعلقة بالتنشئة السياسية الإسلامية، وأطرح قائمة من الموضوعات الحيوية، التي أرى أنها لم تحظ بالقدر اللائق من الحفر المعرفي.إلا أنني أرى أن شرط صقل وتطوير ما قدمته هذه الدراسة، على صعيد الانضباط المنهجي، وصياغة أجندة القضايا الأوْلى بالدراسة في حقل التنشئة السياسية، هو: الحذر من الانطلاق في رفع قواعد بنية علم التنشئة السياسية، عن عمد أو عن غير عمد من مرجعية غير مرجعية الوصال المباشر مع القرآن.

ولست أول من أطلق هذا التحذير. وتتملكني رهبة الإحساس بأن القعود عن تلبيته، يكاد يمثل خلقًا سائدًا في عالم اليوم، رغم أنه لا سبيل لإصلاح حالة العمران الإنساني إلا بأخذه بقوة. فمنذ عشرين سنة، انتظمت دراسة مهمة – في سلك عشرات الدراسات التي أخرجتها أقلام عقول إسلامية، من أمثال: مصطفى صادق الرافعي، ومحمود شاكر، ومالك بن نبي، وإسماعيل الفاروقي، والشاهد البوشيخي – في التحذير من أن الأمة الإسلامية ترسل جحافل من المبعوثين إلى الخارج لاستكمال دراساتهم، فيعودون وفي أيديهم معاول هدم لا أدوات بناء، وخلصت بكل صرامة إلى أنه: ما لم تراجع الأمة موقفها، فإن الابتعاث سيكون هو الطريق إلى الانتحار والفناء الكامل لهويتها في الحضارة الغربية. وحددت المخرج من هذا المصير بـ: حسن النية والإخلاص، في فك الارتباط بالتوجيه الغربي، المستشري في جسد الأمة، عبر صنائع الغرب المنبثة في كوادرها التربوية والتعليمية، التي تصنع لها حلقة مفرغة تعيد إنتاج نفسها بنفسها.

ويطرح هذا التحذير أسئلة مصيرية: كيف نقتبس التفوق التقني العلمي من الغرب، مع الحفاظ على بصمتنا الحضارية وثقافتنا؟ وما السبيل إلى التدافع الحضاري في مواجهة أدوات الإمبريالية ومطاياها، وعلاقتها بالصهيونية؟ وما الدرس الذي يجب أن تتعلمه أمتنا من النموذج الإسرائيلي في حماية الهوية اليهودية، بالقياس بالانفتاح غير المحسوب من جانبنا على حقل ثقافة الآخر وطرائق تنشئته السياسية؟ وما السبيل إلى تزويد المبتعثين بأسباب الحصانة الفكرية والأخلاقية، وتربيتهم قبل إرسالهم؟ وما السبيل لمواجهة عمليات غسيل المخ الأكاديمية الهادئة المخادعة التي يتعرضون لها من رواد، يتخفون في ملابس الكهنوت الأكاديمي؟. تكمن الإجابة على هذه الأسئلة المشروعة في بناء علم تنشئة إسلامية بديل، يفرخ نوعية من المبعوثين، ذات رؤية عقيدية مستنيرة شاملة، تنخرط في جهاد من ثلاثة أنواع: جهاد النفس، وجهاد عبر المجتمع المسلم بالخارج، وجهاد في صميم المجتمع العام غير المسلم.

وتتأسس عملية التنشئة السياسية، في ضوء هذا التصور، على رؤية كونية تجمع بين بُعْدين: بُعْدٍ مادي تحسه الحواس، ويناط بالإنسان كشف أسراره، وبُعد غير مادي غائب أكثر عمقًا وأهمية، ينعكس على وجوده الكوني بدءًا من عملية النشأة الأولى، مرورًا بكافة التفاعلات الكونية، وصولًا إلى النشأة الآخرة ويوم الحساب. ومن شأن استحضار هذين البعدين معًا التحرر من أسر الحواس ومحدوديتها، وربط الممارسات الإنسانية بأفق أرحب نابع من الإيمان بالغيب، وتخطي وضعية الاكتفاء بحالة مماثلة لمن ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

وَبِلُغَةٍ أخرى، يعني تجاوزُ عملية التنشئة للظاهر، إلى رحاب الغيب، التأهلَ لامتلاك نظرة مستقبلية مستقلة، يصعب أن تقبل ما ينتجه العقل البشرى دون تدقيق وسبر أغوار، حيث تحتكم إلى الثابت في معايرة الظن البشري. والإنسان بطبيعته ينزع إلى الماورائيات، من أجل امتلاك رؤية عقائدية شاملة ورحبة الأفق. ويؤدي هذا النزوع إلى استحضار الرغبة في الإتقان والإحسان. ومما يركز عليه الإسلام في هذا الصدد الأمر بأخذ الزينة، وإماطة الأذى، وتجاوز العدل إلى الإحسان، ومراعاة سلم الأولويات في المسؤولية، انطلاقًا من المسئولية عن النفس، وعن من تعول.

ومن شأن هذه الرؤية حصول الإنسان على فرصة فريدة للاستفادة من خلاصة التجارب الإنسانية عبر الزمان والمكان، لتوظيفها في رحلة حياته القصيرة والإضافة إليها. وآيات القرآن الكريم تفتح للأمم منابع القيم والعبر والدلالات التاريخية، وتغذي قابليتها لاستشراف المستقبل القريب والبعيد، بالتواصل مع أفق زمني مفتوح، وأفق مكاني يغطي الكرة الأرضية بِرُمَّتِها، من لحظة هبوط آدم وحواء إلى الأرض، إلى اليوم الآخر.

ويغدو الموت في هذا السياق مجرد لحظة تأهيلية لخلود لاحق. وتمتد الذات الإنسانية التي تتم تنشئتها وَفْق هذه المعطيات، في الزمن وفي المكان، على نحو يستعصي على إمكانية العدم أو الفناء، حيث تصير على ضوء هذا التصور، شهيدة حاضرة حية قبل الموت وبعده. وفي ظل هذه المعطيات لا يصير حب الموت دليلًا على عشق الفناء، بل على الطموح في حياة أرقى، وفي مجابهة مخاطر الفناء. وعبر الامتداد الأفقي في الزمان والمكان، تحقق الذات الإسلامية الامتداد العميق، في الروح والحس والوجدان[1].

ويستدعي النسج على هذا المنوال في عملية التنشئة، الحضَّ على السعي الدائم إلى التغيير النابع من داخل النفس، غير المفروض من الخارج المتحقق بالإقناع بالحجة والبرهان، بعيدًا عن الإكراه والقسر. ولقد بلغ القرآن الكريم في دفاعه عن الاختيار الحر كأساس للتغيير إلى حد اعتبار الإكراه فتنة تفوق جريمة القتل. فالحق يقول: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]، ويحض القرآن الكريم على طلب البرهان وتقديمه، وعلى الوعظ والمجادلة بالتي هي أحسن، بحيث يتقبل العقل الأفكار والعقائد عن تدبر ودليل. بل إن كلمة الدين جاءت في القرآن الكريم مرادفة للعلم، مؤشرة بذلك على حقيقة استحالة التناقض بين الدين والعلم الصحيح.

---

(١) د. عماد الدين خليل: حوار في المعمار الكوني وقضايا إسلامية معاصرة، الدوحة، دار الثقافة، ١٩٨٧م.

ومن أهم مقتضيات الحرية، بالتالي، الاجتهادُ. فالأخير جزء أصيل من التكليف الإلهي للإنسان، بما أنه الأساس لإقامة الشريعة في واقع الفرد والجماعة، والقيام بفروض الكفاية المحققة لوصف الأمة بالشاهدة، وهو السبيل إلى استكمال أدوات الخلافة في الأرض ولا يُعد الرجوع إلى العلماء تقليدًا منهيًّا عنه، بل هو سبيل لتعزيز الحرية، ودليل على الشعور بالمسؤولية، التي تقتضي واحدًا من اثنين: إما طلب العلم، وإما سؤال أهل الذكر.

فالاجتهاد هو السبيل إلى حماية الأمة من آفتين: التسيب، والتيبس. ولا ينبغي أن يتوقف الاجتهاد، ولا أن يجتهد عصر لعصر. وجوهر المعضلة التي تواجهنا في هذا الصدد تتمثل في قلة الممتلكين لشروطه المعتبرة في اللحظة التاريخية الراهنـة، القادرين على بيان جوهر النظام الإسلامي، وتجلية معالم الطريق إلى تطبيقه على الواقع التاريخي بمعطياته المكانية والزمانية، إلى جانب زيادة الهوة بين الشريعة والواقع على مستوى الجماهير والسلطة الحاكمة والمؤسسات ومجريات الحياة اليومية.

ومما ينقصنا أيضًا الآن التدريب على تحويل الأفكار والمبادئ الإسلامية إلى برامج عمل، وتجاوز الاجتهاد في الجزئيات اليسيرة، لصالح الاجتهاد على مستوى القضايا الكبرى، والنقاط المفصلية المُلِحَّة في الواقع الإسلامي المعاصر، وقراءة التحديات المعاصرة من موقع المبادرة ومن المرجعية الإسلامية، وليس من موقع رد الفعل، ولا بالمفردات ووحدات التحليل الوافدة.

خلاصة القول أن أمتنا تحتاج إلى حوافز إيجابية للاجتهاد، تحقق نقلة تصورية اعتقادية، ومعرفية ومنهجية، قادرة على تحريرها من الأغلال التي قيدتها في القرون الأخيرة. وأساس النقلة الاعتقادية هو استعادة الرسالة الحضارية المتمثلة في « الخروج بالنفس من الظلمات إلى النور، ومن العسر إلى اليسر »، عبر الحرية التوحيدية. وجوهر هذه النقلة المعرفية المرجوة، هو التحول المعرفي في الاتجاه الذي تحدده القراءة بسم اللَّه، كأساس لإعادة تشكيل عقل المسلم، على نحو يحرره من دواعي القلق والاستسلام، ويدفع به في اتجاه الحركة الواثقة الباحثة عن المضامين القرآنية المعرفية من جهة، والمضامين المعرفية المبثوثة في الكون من جهة أخرى.

أما النقلة المنهجية المرجوة، فترتبط بالبحث عن الطريق المستقيم إلى الهدف المحدد. وجوهر هذه النقلة هو العودة مرة أخرى بالعقلية المسلمة إلى رحاب (علاقة السببية) في كون بناه اللَّه تعالى، على سُنن لا تتبدل ولا تتغير، كقاعدة لا ينفيها الاستثناء بل يؤكدها.

والقرآن هو المَعِيْنُ المنقطع النظير، لتوجيه العقل الإنساني إلى تشكيل رؤية تركيبية للكون والحياة تربط الأسباب بالمسببات، وتتجاوز النظرات القشرية المختزلة، والمقاربات السطحية الوهمية، إلى رحاب المقارنات العميقة، الرامية إلى تحديد شبكة العلاقات، والتوصل إلى السنن الحاكمة لها. بمعنى آخر، يوفر النص القرآني أركان ومقومات بناء عقلية تركيبية استشرافية جامعة تنظر في الكون من بداية الخلق إلى نهايته، مستكشفة معالم الإبداع، والقوانين الخادمة للتمكين للأمة في الأرض.

ويؤكد القصص القرآني على خضوع التاريخ الإنساني لقوانين ونواميس حاكمة. ويرفدنا القرآن الكريم بأصول منهج التعامل مع التاريخ البشري كميدان للاختبار ولبناء العبرة، والتعرف على النواميس كمسالك مقننة للحركة الإنسانية الرشيدة، ويبين الثوابت في الظاهرة الإنسانية، ومآلات التفاعل بينها وبين ما في الكون من مخلوقات. ولا يؤكد القرآن على ثبات هذه السنن فقط، وإنما يحولها إلى دافع حركي، يفرض على الجماعة الإنسانية، تجاوز تكرار الأخطاء التاريخية، ومحاكاة تجارب التعامل بالحسنى مع قُوَى الكون الأخرى. ويدعو القرآن في هذا السياق إلى إعمال الحواس في النظر فيما حولنا، والتدبر فيه، وتحريك البصيرة والعقل في عملية التنقيب عن السنن، وفي عملية الإبداع في توظيفها واستيعابها في حمل الأمانة.

ومن الأسباب المهمة لاستواء عملية التنشئة في هذا الصدد، ما يقدمه القرآن الكريم لنا من حافز عقيدي مؤسَّس على الوسطية، والتسبيح المشترك بين الأزواج المخلوقة، على نحو يتجاوز الصراع، ويؤسس لفعل إنساني دائم، للحضور في قلب شؤون العالم، ولتحقيق مفهوم الشهادة على الناس بعقلية منفتحة ومتجددة، وذات طابع جامع، يحوِّل التحدي إلى فرصة للارتقاء، لا إلى سبب للوهن أو للصراع.

وعلى ضوء ذلك ينبغي أن يتصدر السعي لبناء الوعي بالمنهج الإلهي سُلَّم أولويات عملية التنشئة، فيما لو أردنا استعادة العزة الإسلامية. ولباب هذا المنهج هو التفكير المنظم البعيد النظر، في مستويين: حشد الطاقات، والتنسيق بينها لتصب في خدمة هدف واحد هو: الخلافة في الأرض. والمنهج بذلك هو بمثابة العدسة اللامة. ولا منهج دون اجتهاد وتخطيط مدروسين، ودون عقلية متجددة وقادرة على الإبداع بالتعامل مع وضعية الوهن الراهنة التي تعاني منها الأمة.

وهذه قائمة إرشادية لبحوث مقترحة لدرجتي الماجستير والدكتوراه في حقل التنشئة السياسية:

سنكتفي في هذه القائمة بالإشارة إلى مجموعة من العناوين الجديرة بالدراسة في هذا المجال، والتي لا يتوفر على حد علم الباحث حاليًّا أكثر من مجرد مقاربات أولية بالغة العمومية لها:

١ - فقه الأسرة المسلمة:

يتصدر تأسيس الفقه السياسي للأسرة الموضوعات الأوْلى بالدراسة المعمقة، في مجال التنشئة السياسية الإسلامية. ومن أهم محاوره: موجهات العلاقة بين الوالدين والأبناء، والإعداد التربوي للوالدية، وأطر إثراء القدرة على تحمل أمانة الوالدية، وتعزيز مجددات الفطرة السوية لدى الطفل، التي تكفل إخراج جيل من الأطفال المسلمين المتسمين بالمبادرة والنشاط والوعي بالذات، وبالبيئة، وبالعلاقة الجامعة بينهما، والتلقائية المكسبة لسمة: الامتلاء بالرغبة في التطابق بين الظاهر الباطن.

ويتعانق مع هذا المستهدف، البحث في سبل تصحيح أساليب التقويم المستخدمة حاليًّا في كافة قنوات التنشئة، بما يؤسس للتخلص من التقويم المتسلط، والتمكين للتقويم الإنساني المكرس للتواصل، والذي يبدأ وينتهي باحترام كرامة الإنسان، و الارتقاء بعملية التربية لتتحول من: موقف متكرر، إلى موقف للتدبر والاستغراق، حيث يجد المرء قيمته وهويته في إنجازه الحضاري، في رحاب الاهتمام الناضج بالكون كله والتحرر من التركيز على الذات، والتدرب على الإبداع والإثراء المتواصل.

٢ - تنشئة الأنساق الإنسانية المكرمة العابدة الحرة:

من الموضوعات المهمة التي تحتاج إلى دراسات جادة: بناء أنساق إنسانية عمرانية منتظمة بأيام اللَّه، من مستوى الأسرة، والجماعة، إلى مستوى أُمَتَي الإجابة والدعوة، ورسم منارات السبيل إلى تنشئة فرد مسلم على وعي بمسؤوليته عن كافة الأنساق السياسية المجتمعية، وعلى معرفة بالوظيفة الظاهرة والمستترة لمختلف الْبِنَى المجتمعية، وبطرق الجمع بين المحافظة والتغيير في قنوات التنشئة. وبتعبير آخر: **كيف يمكن تنشئة الفرد المتحلي بالمسئولية الذاتية عن الأمة، بعناصرها الثلاثة:**

أ - الاهتمام المحقق للارتباط العاطفي بالأمة: تجاوز الانفعال مع الجماعة، والانفعال بالجماعة، إلى: التوحد معها، وتعقلها، والتفكر بها. وفحوى الحالة الأخيرة هو: الجمع

بين التوحد مع الجماعة وتعقلها، وبين الاهتمام المتزن بأمرها كله، المستهدي بنور الشريعة والعقل.

ب - **فهم الفرد للأمة**: بحاضرها وماضيها ومستقبلها، مع فهم المغزى الاجتماعي لتصرفاته.

جـ - **المشاركة السياسية**: بأبعادها الثلاثة: تقبل الفرد لدوره، والعمل مع الجماعة، وتجاوز مسايرتها إلى تقويم أدائها.

د - **ترشيد قنوات التنشئة السياسية**: كافة قنوات التنشئة السياسية، قنوات معرفية تربوية، يمتد فضاء الدراسة النظرية والعملية لها ليشمل الحاضر والماضي والمستقبل. وتعد البصيرة الاجتماعية شرطًا أساسيًّا للاستنارة العلمية، وتحتاج الأمة بالتالي إلى: الباحث والمربي القدوة المتحرك بقوة العقل والقلب المطمئن في آن واحد، بل تحتاج إلى الجماعة التربوية، والبيئة الاجتماعية المجتمعية الحاضنة للفطرة الإنسانية السوية. وتحتاج هذه الأطر إلى دراسات معمقة تكفل الكتابة والقراءة والفهم المعزز للفطرة الإنسانية السوية، وبناء الإلزام الذاتي المتجاوز للإلزام المقاوم والمتقبل، والمتمحور حول التوحد مع الجماعة من منطلق: الاختيار الحر وعمل الواجب، والثقة النابعة من الوعي الظاهر بواقع الأمة، والوعي الباطن بخبرتها الخاصة، والوعي الفائق بأركان ومقومات نموذجها الحضاري، عبر تصور: مشروع العمل الصالح، وتصور نتائجه، وعملية نقله من عالم التصور إلى عالم التحقق، ومواجهة توابعه وعواقبه[1].

هـ - **الحرية التوحيدية والعمران الإنساني**: جوهر هذا الموضوع هو تحليل قيمة الحرية المؤسسة على التوحيد كنواة لدوائر إنسانية تسعة: النفس الواحدة المخلوق منها زوجها، والأسر، والأفخاذ، والعشائر، والبطون، والقبائل المتعارفة، والشعوب المتعارفة، والأمة الواحدة العابدة للَّه، وأمة الدعوة، والإنسانية المكرمة. ومحاور التحليل النسقي لهذا المفهوم هي: بناء مفهومي الحرية التوحيدية والعمران الإنساني من القرآن وصحيح السنة، مع التركيز على الأنساق السياسية وطبيعة علاقتها ببيئتها، وبمنظومة القيم، وبقواعد السلوك السياسي.

ويركز الباحث هنا على تجلية الرؤية الكلية الإسلامية للإنسان الرباني، وللأمة كنسق جامع، وللدين كمنهج حياة شامل، وللإنسانية كجسد واحد متراحم ملتزم بمجموعة

(١) د. سيد أحمد عثمان: التحليل الأخلاقي للمسئولية الاجتماعية، القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٩٦م، ص٤٠ - ٥٩.

من المواثيق المرتكزة على التوحيد. ومن أهم الإشكاليات ذات الصلة بهذا الموضوع: البحث في أطر وآليات التنشئة الذاتية، والتنشئة المجتمعية، والتكافل السياسي، وجوهر القيم السياسية الإسلامية، ومنظومتها، والعبرة المستفادة منها في التعانق مع الواقع في ظل نماذج ودراسات حالَّة، وتحديد شروط وآفاق تفعيل عملية التنشئة السياسية، والارتقاء بقنواتها.

و - السنن الكونية لقيام الأمم وسقوطها وإحيائها: جوهر هذا الموضوع هو البحث من خلال القصص القرآني عما ورد في القرآن الكريم وفي صحيح السنة، فضلًا عن البحث في الخبرة التاريخية للأمم، من أجل **استخلاص الثلاثية التالية**:

(١) معالم عدل اللَّه في الأمم: عدم تغيير اللَّه ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وتعجيل الجزاء للأمم في الدنيا، ومحورية الخصوصية والهوية الذاتية للأمم، ومبدأ المسئولية الجماعية، وأساسيات العدل التوزيعي والتصحيحي، وسنن الاجتماع والعمران الإنساني.

(٢) محاور الواجبات السياسية الفردية والجماعية: حسن التدبير، والوقوف عند حدود الشريعة، والتناصح والمراقبة المتبادلة، و قبول العدل من الآخر، وتقديم الإحسان إليه.

(٣) الوعي بدورة استقلال الأمم: تحريك دواعي الاعتلال لدواعي البراءة منها، مما يؤدي إلى تشكيل صفوة ذات غاية سياسية، تأخذ من الناظم الديني سفينة لتحقيق الإجماع الرشيد، وبث روح الاستقلال في العامة[١].

ز - مداخل الإصلاح السياسي في المنظور الإسلامي: يدور هذا الموضوع حول:

(١) مرتكزات مفهوم الإصلاح الإسلامي: المتمثلة في: التوحيد، والعقل المحرر من الخرافة، والنظر المستنير في الكون، والأخذ المباشر من القرآن والسنة، وإقامة شرع اللَّه في الأرض، و تكريم الإنسان، والبحث في مفسدات كلٍّ من نظام الفطرة، ونظام الدين.

(٢) دورات فساد الأمة: دورة فرقة الأمة، ودورة طغيان القوة غير الملتزمة بالشرع، ودورة التغيير الصوري للأمم، وأنماط المفسدين.

(٣) شروط استعادة العافية السياسية للأمة، ودورة التغيير السنني للأمم.

ح - الدور السياسي لقنوات التنشئة السياسية: تحتاج كافة قنوات التنشئة السياسية التي تشمل: الأسرة، والأقران، ودور العبادة، ودور التعليم، والجمعيات الأهلية، والنوادي الرياضية إلى

---

(١) انظر مقاربة في تحديد الخطوط الأساسية لخريطة مداخل الإصلاح التوحيدية المعاصرة في عالمنا الإسلامي: د. السيد عمر: مداخل الإصلاح في الأمة، جدالات الديني والسياسي، القاهرة، أمتي في العالم، العدد السابع، ٢٠٠٦م.

دراسات تتناول واقعها الراهن، وكيفية تجسير المسافة بينه وبين الرؤية الإسلامية، على صعيد مضمون الدور وأدواته، وضوابطه.

ويمكن الإشارة هنا لضيق المجال إلى ضرورة تفكيك، وتجلية تهافت: القراءة الثقافية الساكنة، والقراءة العلمانية الغربية، من أجل التخلص من الأزمات التي ولدتها في الداخل الإسلامي، وصولًا إلى التأسيس للنظرية الرسالية الرامية إلى بناء بديل حضاري إسلامي، وإلى تحقيق المناعة الحضارية للهوية الإسلامية، وتصحيح الصورة الذاتية للمسلم في كافة تلك القنوات الناقلة للقيم السياسية من جيل إلى آخر.

ط - واقع الحركات الإسلامية المعاصرة، وآفاق المستقبل: فضاء هذا الموضوع بالغ الاتساع، ويمكن للباحث أن يختار دراسات حالة، ويقارن بينها. ومن أهم محاور هذا الموضوع: تحديد معالم كلٍّ من: الدور المعياري، والدور الفعلي، والدور المتصور للحركات الإسلامية المعاصرة، وأساسيات النقد الذاتي، والتصحيح الذاتي، والتأسيس لخيار المجادلة بالتي هي أحسن على صعيدي الداخل والخارج، واستشراف أولويات الحركة الإسلامية، والتأسيس لفقه الأولويات والموازنات، والرشد السياسي، وتحويل الشعارات الإسلامية إلى برامج عمل سياسية وإبداع آليات سياسية، والتأسيس للرؤية الكلية للإنسان في المنظور الإسلامي ككائن متدين، عاقل، صاحب نفس مكرمة، يقوم نظامه على حفظ النسب، يتزود من معطيات الحياة المسخرة بأسباب البقاء والعمران، مفطور على التوحيد، متسابق في تجسيد ما ينبغي أن يكون في أرض الواقع.

ي - الإحسان بين الإنسان والكون في الرؤية الكلية الإسلامية: جوهر هذا الموضوع هو: بناء مفهوم الوالدية بين الإنسان وكافة الموجودات، على قاعدة: تسبيح كل شيء بسم اللَّه تعالى. ومن المعالم الأساسية لهذا الطرح التأكيد على: التفـرد المطلق للَّه تعالى، والوضعية الخاصة بالإنسان ككائن حامل للأمانة مأذون له باستخدام ما في الكون بضوابط حددها اللَّه تعالى، مع الالتزام بالميزان القرآني عن اختيار.

ويتأسس مفهوم الوالدية في هذا التصور على: تفكيك الرؤية الكونية الكلية الصراعية الغربية للإنسان، والتأسيس للرؤية التوحيدية الإسلامية، التي تحصر غاية التنشئة السياسية في الحمد الكامل للَّه، والذكر الدائم للَّه، على صعيد القول والفعل والحال، من أجل تنشئة الذوات الإنسانية العابدة للَّه، المتسمة بالتكامل بين الظاهر والباطن، والواعية بصلة القربى مع كافة الكائنات، والمعنية بحفظ المقاصد الشرعية، والمؤمنة بانتفاء العصمة البشرية.

وتتمحور التربية السياسية في منظور ذات تتمتع بهذه الخصائص، في: السعي لامتلاك أسباب عبور العقبات الدنيوية التي تعترض السير على درب تحقيق التوازن الإيجابي الفعال، والتربية بالقدوة، واستخلاص المضامين السياسية لعلاقة الإحسان بين الإنسان والمخلوقات المسخرة في الكون[١].

ك - مرتكزات الرؤية الكونية الإسلامية للأنا والآخر في المنظور الإسلامي: من أهم محاور هذا الموضوع: المغايرة الكاملة للخالق عن المخلوقات، وقدرة الإنسان على التعرف على الإرادة الإلهية بالحد اللازم لخلافته في الأرض، وقيام الوجود على نظام هادف لا تتغير سننه ولا تتبدل، وقدرة الإنسان على تطويع الطبيعة، ومسؤوليته عن ذلك وقابلية الطبيعة للتطويع. ويمكن التركيز هنا على العهد الإلهي المؤسس الذي هو بمثابة نواة لتلك العلاقات الكونية، والمواثيق المنبثقة عنه، وموضوع التكليف الإلهي وبيئته، وشبكة العلاقات الكونية، والتلازم المطلق بين التوحيد ووحدة الحقيقة، ومشروطية الأمانة والوكالة في تعامل الإنسان مع المخلوقات الأخرى، وخصوصيات أمة الإجابة وعلاقتها بأمة الدعوة، وأنماط العلاقة بين الأنا المسلم والآخر في كافة صورها[٢].

* * *
* *
*

(١) انظر في التفاصيل: الوالدية والتربية السياسية للأبناء في ضوء الرؤية الكونية الحضارية الإسلامية، مقاربة أولية في التأسيس المفاهيمي، ضمن الجزء الثاني من أعمال ندوة: نحو والدية راشدة من أجل مجتمع أرشد، كلية التربية بسوهاج، ومركز الدراسات المعرفية، مارس ٢٠٠٤م. وانظر: د. السيد عمر: النسق السياسي في المنظور الإسلامي، ضمن مؤتمر: واقع الأسرة في المجتمع، تشخيص للمشكلات واستكشاف السياسات المواجهة، القاهرة: كلية الآداب جامعة عين شمس، سبتمبر ٢٠٠٤م.

(٢) انظر في أساسيات الرؤية الكونية الإسلامية للأنا والآخر في المنظور الإسلامي، وشبكة علاقات الإنسان بالكون كله التي تتخذ من التوحيد ناظمًا لها لتأسيس: إجماع الرؤية والإرادة والعمل الصالح، وأنماط العلاقة بين الأنا والآخر في القرآن الكريم، د. السيد عمر: الأنا والآخر في المنظور القرآني، ضمن مشروع: التأصيل النظري للدراسات الحضارية: العلاقة بين الثقافة والحضارة والدين، القاهرة، برنامج حوار الحضارات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٥م.

obeikan.com